جامعة بيروت العربية
كلية الآداب
قسم التاريخ – السنة الثانية

محاضرات
في
تاريخ الدولة العباسية

دكتورة
نبيلة حسن محمد

مكتب كريديه اخوان
بيروت

المحتـــــوى

الموضـــوع	الصفحـــة
الباب الاول : العصر العباسي الاول	٣ — ١٣٨
مقدمة : سمات الدولة العباسيـــة	٤
الفصل الاول : عظمة الدولة الاموية وبداية الأفول	٧
الفصل الثاني : الدعوة الشيعية العباسية	١٥
الفصل الثالث : ابتداء الدولة العباسية وبيعة ابي العباس	٤٠
الفصل الرابع : خلافة المنصور	٤٨
الفصل الخامس : خلافة المهدى	٧٤
الفصل السادس : خلافة الهادى	٨٢
الفصل السابع : خلافة الرشيـد	٨٦
الفصل الثامن : الصراع بين الامين والمأمون: خلافة الأمين	٩٥
الفصل التاسع : خلافة المأمون	١٠٨
الفصل العاشر: خلافة المعتصم	١٢٤
الباب الثاني : دراسة لبعض الدول المستقلة	١٣٩—٢٣٢
الفصل الاول : ١ــ الدولة الصفاريـــة	١٤٠
٢ــ الدولة السامانيـــة	١٤٦
الفصل الثاني : ١ــ الدولة الطولونية في مصر والشام	١٥٨
٢ــ الدولة الاخشيدية في مصر والشام	١٦٧
الفصل الثالث : دولة الاغالبة في القيروان	١٧٥
بعض المصادر والمراجع	٢٣٣—٢٤٠

الباب الأول

العصر العباسي الأول

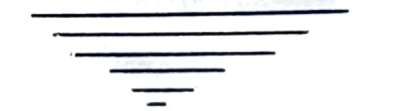

مقدمة : سمات الدولة العباسية :

دالت الدولة الأموية ، التي حكمت الدولة العربية الاسلامية ، من الحاضرة دمشق ، وقامت على أنقاضها دولة جديدة تنتمي الى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وهي الدولة العباسية ، وارتفعت بنود العباسيين السوداء .

ويعتبر قيام الأسرة الجديدة نقطة تحول خطيرة في دولة الاسلام وذلك أن صبغة الدولة أصبحت اسلامية عالمية بعد أن كانت عربية . واستمرت الدولة العباسية في الحكم حوالي خمسة قرون شهدت الدولة خلالها فترات من العظمة والسؤدد والأبهة، وتمتع الخلفاء أثناءها بكل مظاهر الترف والحضارة كما شهدوا أيضا فترات من الضعف والشدة والبؤس ذاقوا خلالها مرارة الذل والهوان .

والعصر العباسي الأول يشغل فترة القرن الأول من هذه الفترة . وخلال هذا القرن كان الفرس يحتلون مركز الصدارة في الدولة ولهذا يطلق الكتّاب على هذه الفترة اسم العصر الفارسي أو دولة الفرس . وأعقبت فترة الازدهار والقوة هذه فترة انتاب فيها الخلفاء الضعف الشديد وتغلب عليهم قواد الجيش من الترك وأصبح الأمر والنهي في الدولة لقائد الجيوش الذى عرف بلقب أمير الأمراء . كذلك شهدت الدولة خلال هذه الفترة التفتت والانقسام السياسي الذى بدأ أول الأمر في المغرب والاندلس ثم انتقل الى المشرق الذى بدأ ينفصل بدوره عن الدولة .

هذه الفترة — أو المرحلة الثانية — يطلق عليها الكتّاب اسم العصر التركي أو دولة الترك . وهذه الفترة تنقسم بدورها الى فترات ساد المشرق فيها بعض العناصر التركية وغير التركية . ففي قبيل منتصف القرن الرابع الهجرى فرضت أسرة البويهيين من الديلم وصايتها على الخليفة في بغداد من سنة ٣٣٤ هـ الى منتصف القرن الخامس الهجرى تقريبا . وبنو بويه هؤلاء كانوا يدينون بالمذهب الشيعي ورغم ذلك لم يحاولوا أن يقضوا على الخلافة السنية بل حافظوا عليها . ولكن قيام دولتهم ساعد على انتشار الأفكار الشيعية في المشرق . وكان ذلك ايذانا بتحول كل المشرق الايراني الى المذهب الشيعي .

وتلى الديلم دولة السلاجقة وهم من الأتراك واستمر العنصر التركي يسود الدولة حتى نهاية بغداد على أيدى المغول . وكان سقوط بغداد حاضرة الخلافة العباسية

أثره الخطير بالنسبة للدولة الاسلامية من الناحيتين السياسية والحضارية . فمن الناحية السياسية انتهت دولة الخلافة وتقسمت الدولة الى ذلك العدد الكبير من الدول المعروفة في المغرب وفي المشرق وحاول الأتراك العثمانيون أن يعيدوا هذه الوحدة وقد نجحوا الى حد ما .

أما من الناحية الحضارية فكان سقوط بغداد يعني توقف العلوم والحضارة العربية الاسلامية . وتلى هذا التوقف فترة من التدهور والاضمحلال استمرت الى وقت قريب عندما بدأ العرب المسلمون يفيقون من ثباتهم هذا في الوقت الذى كانت فيه أوربا تنهض من الناحيتين السياسية والحضارية فبدأت الفترة الحديثة الحالية في تاريخ الاسلام التي نسميها فترة النهضة .

أما عن السمات التي تميزت بها الدولة العباسية ففي مقدمتها أن الدولة اتخذت سياسة شرقية على عكس الدولة الأموية التي كانت تتجه في سياستها العامة اتجاها غربيا والمثل لذلك هو أن بلاد المغرب كانت أول البلاد التي خرجت على سلطان الخلافة العباسية وبدأت حركة المد الاسلامي في بلاد المغرب تفقد بعض قوتها ، كما بدأ ينكمش أمام ضغط أوربا المتزايد .

وفيما يتعلق بخلفاء الدولة العباسية فقد اعتبروا أنفسهم ورثة النبي صلى الله عليه وسلم الذين يسيرون بالجماعة الاسلامية في الطريق القويم المستقيم . واذا ماتأملنا في كتب التاريخ نجد أن الكتّاب يؤكدون حرمة وقداسة الخليفة العباسي سليل بيت النبوة بينما يظهرون خلفاء بني أمية بمظهر الزعماء غير المتدينين ويبالغون في وصف رذائلهم . ويمكن أن نفسر ذلك بأن معظم الكتّاب الذين كتبوا عن تاريخ الدولة الأموية انما دوّنوا مصنفاتهم تلك على أيام العباسيين ولهذا السبب لا نتوقع منهم أن يسجلوا أمجاد أسرة انمحت واندثرت . وصورة الخليفة العباسي عند هؤلاء الكتّاب أشبه ماتكون بصورة كسرى فارس فهو يتمتع بكثير من الأبهة والفخامة والرونق والعظمة ، كما تحيط به مظاهر الترف والتحضر . فقد زخر بلاط الخليفة بأهل العلم والفقه ممن يتصفون بالورع والتقوى ، الى جانب الأدباء والمغنين والشعراء ، والأطباء الأخيار ، والقضاة ، وكذلك المشعوذين والمنجمين . وشهدت كما يقول ديومبين ليالي بغداد الساحرة محافل الخلفاء ومجالسهم ، فبعد صلاة العشاء الورعة تنشد الأغاني وتدار كؤوس الراح خلال ذلك . ويعطر الجو بأنسام عبقة تتصاعد من المبخرات ، ويختلط على رنين قطرات الينابيع ويهتز الجو طربا للأصوات القوية المفردة المنبعثة عن أفواه المغنيات وألحان

الأعواد . وقد يعترض هذه الحفلات اليومية حادثة غير متوقعة فتكسبها طرافة كاستجواب سجين لبق ذى فصاحة مفحمة ، أو زيارة ناسك متسول ذى كبرياء وفظاظة ، وقد يحز رأس بينما تدور الأقداح . وتقترب الليلة من نهايتها ، فيثقل الخمر قلوب النشاوى ، وتنهمل الدموع ، وقد ينشد شاعر قصيدة ينعي فيها العمر القصير . وفي الختام يبزغ الفجر بأضوائه المتهيبة ، فيؤدى صلاة الصبح أولئك الذين فيهم بقية من وعي بخشوع وتقوى . انها حياة ملأى بالأحاسيس ، عنيفة رقيقة معا ، تحفل بالفظاظة ورقة الطبع في آن واحد ، نجد مثيلا لها لكن بصورة أوضح وأعنف ، وذلك في عصر النهضة الأوربية . وقد ورد وصف هذه الحياة الحافلة في ألف ليلة وليلة ، والأغاني ، ومروج الذهب ، وفي روايات المؤرخين وقصائد الشعراء . ولكن وراء هذا الوجه الرومنتيكي للحياة يعيش شعب بينهم من يفكر . وقد شهد القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) قمة جهود المسلمين لفهم ذات الله والانسان والحياة ، والتوفيق بين العقل والنقل . وكان عصر ازدهار الأدب العربي كذلك ، وبداية احياء آخر للفن الاسلامي بصورة فعالة . وفي هذا العصر كذلك نجد كل امكانيات الازدهار العقلي والمادى قد تحققت بوضوح . وفي السنوات الأخيرة من هذا العصر بالذات آذنت الساعة بزوال وتفسخ هذا المجد [1] .

---

(١) انظره جودفروا دينزمبين ، النظم الاسلامية ، ترجمة الدكتور فيصل السامر ، الدكتور صالح الشماع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

الفصل الأول

عظمة الدولة الأموية وبداية الأفول

بلغت الدولة الأموية ذروة مجدها وعظمتها في نهاية القرن الاول وبداية القرن الثاني للهجرة – وهو القرن الثامن الميلادى – ففي هذا القرن وضعت جميع النظم الاسلامية وبدأت كافة الاتجاهات الفكرية، حينما أخذت الافكار تتجاوز حدودها الاقليمية الى آفاق أوسع · وهو عصر تفتح الروح الاسلامية وسط ثراء مادى غزير، وهي كذلك الفترة التي مهدت بعد سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠م للدولة العباسية أن تكون مركزا مهما للحياة العقلية (١)

وهناك خلفاء عظام مثل : الوليد وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز تسيّدوا أكبر دولة اسلامية · وفي الحقيقة ان الفضل في اتساع الدولة انما يرجع الى كبار العمال من رجال الحرب والادارة الذين خدموا هؤلاء الخلفاء · وأغلب الظن ان السبب في عدم معرفتنا بأعمال خلفاء الامويين الشخصية ، انما يرجع الى أن ماكتب عنهم انما كتب في العصر العباسي · ولما كان العباسيون يكنون للأمويين حقدا كبيرا كان من الطبيعي ان يصوّر الكتّاب خلفاء الامويين تصويرا قاتما ، فهم يصفون الخليفة الوليد بأنه مستبد ظالم ، وسليمان شره

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٦ ·

أكول (١) . ولم يسلم من النقد من الخلفاء الامويين سوى الخليفة الورع التقي عمر بن عبد العزيز الذى يعتبره الكتاب خامس الخلفاء الراشدين . ورغم الاعتراف بمكانة عمر بن عبد العزيز الذى يرجع اليه الفضل في منع سب الامام علي رضي الله عنه من على المنابر . كما انه اعترف له بفضله عندما نظر الى الاسلام نظرة تختلف عن نظرة سابقيه ، فهو يرى ان الدولة عندما اتسعت كانت تهدف الى نشر الاسلام قبل الحصول على المكاسب المادية وأعلن رأيه هذا عندما تضاربت السياسة الدينية مع السياسة الادارية ، وطولب الداخلون الجدد في الاسلام بدفع الجزية مثلهم في ذلك مثل أهل الذمة (غير المسلمين من أهل الكتاب) فأمر عمر برفع الجزية عمن أسلم ، ولهذا يعتبر عمر نموذجا للورع والعدل والحكمة . ورغم ذلك نجد ان بعض كتّاب العباسيين ينالون منه كما نالوا من أقاربه . وينسب الى المنصور العباسي انه قال عندما ذكر في مجلسه: "أنه أعور وسط عميان" (٢) .

وبناء على ذلك نلاحظ ان الفضل في الاعمال السياسية والعسكرية التي حققها الاسلام على عهد الدولة الاموية انما يرجع الى كبار رجال الدولة مثل: الحجاج بن يوسف الثقفي الذى اشتهر بعنفه وشدته وبطشه حتى انه غرس كراهية أهل الشام في قلوب أهل العراق ، ولكن يرجع الفضل الى قسوته في الحفاظ على وحدة الدولة.

ونذكر أيضا من الرجال العظام قتيبة بن مسلم فاتح بلاد ماوراء النهر والذى وسع حدود الاسلام حتى مغارب السند ، ثم موسى بن نصير فاتح الأندلس .

امتد سلطان الدولة في المشرق والمغرب ولكنها لم تستطع ان تفتح القسطنطينية ففشلت المحاولات التي بذلها معاوية وخلفائه مثل الوليد وسليمان

---

(١) انظر، المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تنقيح وتصحيح شارل پلّا (عن طبعة بربيه دى مينار وبافيه دى كرتاى) ، منشورات الجامعة اللبنانية — قسم الدراسات التاريخية ، بيروت ١٩٧٣، ج ٤، ص ١٣٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

أما فيما يتعلق بالسياسة الداخلية فانه في هذه الفترة للتي شهدت فيها الدولة أقصى اتساعها حدثت تغييرات مهمة في نظمها الداخلية وكذلك بدأ ظهور العمارات الاسلامية الفخمة التي نفخر ونعتز بها ٠

كذلك ينبغي الاشارة الى المجهودات العظيمة التي قام بها الخليفة عبد الملك بن مروان من أجل تعريب الدواوين أى تعريب الادارة وعمل على تغلغل هذا التعريب بين أهل الأمصار ٠ وعمل التعريب وانتشار الاسلام على تكسير الحواجز التي كانت موجودة بين العرب وبين أهل البلاد وكان ذلك تمهيدا لقيام المجتمع العربي الاسلامي الموحد ٠ واستمر في هذه السياسة التي بدأها عبد الملك ابنه الوليد وكذلك عمر بن عبد العزيز ٠ ويرجع الفضل في انشاء المسجد الجامع في دمشق الى الوليد ابن عبد الملك ، الذى استجلب لبناء هذا الجامع الفنانين من بلاد الروم وكذلك من مصر ، وأنفق عليه بسخاء حتى أصبح مفخرة من مفاخر الاسلام ونموذجا من نماذج الفن الاسلامي ٠

وبعد أن بلغت الدولة من الناحية العسكرية أقصى اتساعها بدأ عصر التوقف العسكرى والاقليمي وكان هذا يعني بداية عصر الأفول والاضمحلال ٠

أما في المشرق فتحركت المسيحية أيضا فانتهى حصار القسطنطينية الأخير بالفشل ثم أن الامبراطورية البيزنطية خرجت من فترة الضعف التي كانت تمر بها واعتلى عرشها امبراطور قوى هو ليو الثالث الأيسورى الذى قام بحملات عسكرية في آسية الصغرى وكذلك في مناطق القوقاز ٠ وفي سنة ١٢٢ هـ تذكر الحوليات أن ابن الخليفة هشام بن عبد الملك الذى كان قد توغل في الأراضي البيزنطية لقي هزيمة مروعة اذ تشتت مقدمة جيشه وقضت هذه الكارثة على حلم الأمويين في القضاء على بيزنطة ٠ هذا فيما يتعلق بتوقف الفتح العسكرى ٠

أما فيما يتعلق بالاحوال الداخلية في الدولة فانها لم تكن بأحسن حالا من التوسع العسكرى ٠ ففي كثير من الأقاليم ظهرت ميول واتجاهات انفصالية ، أما في داخل الدولة فكان من أهم القلاقل التي أصابت الدولة ظهور الخصومات والنزاعات الدينية ٠ فمنذ البداية ظهرت الحركة الخارجية في مركز الدولة ولكن بفضل جهود الحجاج ابن يوسف الثقفي استطاعت الدولة القضاء على الخوارج ولكن هذا لم يكن يعني القضاء التام على الحركة اذ أنها ظهرت ونجحت في المشرق وفي المغرب ٠

وعلى أواخر أيام الأمويين بدأ الخوارج يثيرون الاضطراب من جديد في مركز الدولة منتهزين ضعف الحكومة . ففي سنة ١٢٧ هـ/ ٧٤٥ م حشد الخوارج قواهم في منطقة الكوفة برياسة ضحاك بن قيس الشيباني ، وكذلك فعل الخوارج الأباضية في جزيرة العرب فجمعوا قواهم برياسة أبو حمزة الخارجي (١) .

الى جانب المذهب الخارجي كان الشيعة مصدر قلاقل أيضا للدولة خاصة في العراق فقد استدعوا أحد أحفاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو زيد بن علي زين العابدين وذلك على أيام خلافة هشام بن عبد الملك وأعلنوا إمامته . وباءت جهود الخلافة في دمشق بالفشل حوالي العام في القضاء على ثورة العراق . ولكن انتهى الأمر بالقضاء على بعض المتآمرين ، وعرف مكان زيد وتتبعته قوات الخلافة وتمكنوا من رميه بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى فثبت في دماغه " ومات زيد في صفر من سنة ١٢٢ هـ/ يناير ٧٤٠ م .

وبذلك خضبت يدى بني أمية من جديد بدم حفدة الرسول صلى الله عليه وسلم . بل ولم يحترموا جثمان زيد وكان أتباعه قد دفنوه في ساقية وأجروا عليه الماء خوفا من التمثيل به ، ولكن القبر نبش واستخرج منه وقطع رأسه وصلب ثم أمر به فحرق بالنار (٢) .

والى جانب النزاعات الدينية هذه كانت الخصومات والنزاعات بين القبائل العربية نقطة من نقاط الضعف التي أدت الى انهيار دولة الأمويين . ومن النزاعات بين هذه القبائل العربية ذلك النزاع الذى حدث في سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م بين اليمنية والقيسية (المضرية) والذى انتهى بانتصار اليمنية في وقعة " مرج راهط " . وعمل هذا النصر على زيادة اشتعال نار الفرقة بين العصبيتين المتناهضتين ، وكان على

---

(١) انظر ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تحقيق عبد الوهاب النجار ، طبعة مصر سنة ١٣٥٧هـ ، ج ٤ ، أحداث سنة ١٢٧ ، ص ٢٨٩ .
(ذكر خروج الضحاك محكما) ، أحداث سنة ١٢٨ ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ . (ذكر قتل الضحاك الخارجي) ، ص ٢٩٧ (ذكر خبر أبى حمزة الخارجي مع طالب الحق) .

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٤٠ - ٢٤٣ أحداث سنة ١٢١ هـ (ذكر ظهور زيد بن علي بن الحسين) ، أحداث سنة ١٢٢ هـ ص ٢٤٥ - ٢٤٨ (ذكر مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب) .

الخليفة الأموي أن يساوس كل من الفريقين أو أن يقف الى جانب أحدهما حسب الحال .

وكان أعظم عمال الوليد بن عبد الملك هم ، الحجاج بن يوسف الثقفي ، وقتيبة بن مسلم الباهلي ، فاتح ماوراء النهر وهما من العصبية القيسية . وكان هذا يعني أن الخليفة الوليد بن عبد الملك كان يتبع سياسة موالاة القيسية ، وعندما خلفه سليمان نهج سياسة مضادة لهذه السياسة فحابى اليمنية وعلى رأسهم يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعصبيته .

وعندما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز حاول أن يقوّم الموقف وأن يتبع سياسة محايدة تهدف الى التوفيق بين العصبيتين ولكن سياسته هذه لم تطل لأمد طويل اذ أنه سرعان ماعتمد يزيد بن عبد الملك اعتمادا كليا على القيسية ثم ان هشام بن عبد الملك ذهب الى عكس هذه السياسة ثم عاد اليها ونتج عن ذلك أن اليمنية ثاروا لأنفسهم من الخليفة الوليد الثاني فتآمروا على خلعه وكانت هذه الثورة سببا في عزلة بلاد الشام جميعا .

والى جانب العصبية القبلية نذكر حدثا له مغزاه وهذا الحدث يتمثل في هجرة خلفاء الأمويين بعيدا عن دمشق وسكناهم الصحراء . ويشبه بعض الكتّاب هذا الحدث بالانفصال الروحي بين الأمويين وبين عصبيتهم من أهل الشام . فقد شعر آخر خلفاء الأمويين بعدم اطمئنانهم في بلاد الشام وفي حاضرتهم دمشق فخرجوا الى البادية وكان أول من فعل ذلك هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي كان يقيم في بادية الأردن .

ومن أهم القصور الصحراوية التي بناها الأمويين قصر " الرصافة " في بادية الشام .

وقد استمر الأمويون في سكنى الصحراء . ويعدد الأثريون بقايا خمسة وثلاثين قصرا من هذه القصور . وكان الخليفة يتمتع في قصوره الصحراوية هذه برياضة الصيد . كما يعتبر العصر الأموي عصر نهضة بالنسبة للشعر العربي ، واشتهر كثير من أمراء الأمويين بقول الشعر كما أنهم أحاطوا أنفسهم بالشعراء . وشاعر الأمويين كما نعرف هو الشاعر النصراني " الأخطل " . والى جانب ازدهار الأدب والشعر لم تحظ العلوم والفلسفة الا بحظ ضئيل من عناية أمراء الأمويين . ولكن ينبغي الاشارة الى أن بداية العمل في الفلسفة الاسلامية ظهر في هذه الفترة وبدأ الكلام في مسألة القضاء والقدر وظهور الفرقة التي عرفت باسم القدرية والتي ستكون نواة لفرقة المتكلمين والمعروفة

باسم المعتزلة .

وحاول هشام بن عبد الملك أن يوقف تضخم هذه الفرقة ، وسار على نفس السياسة الوليد الثاني الذى راح ضحية معارضيه القدرية الذين ناصروا أعداءه من اليمنية وأقاموا الخليفة يزيد الثالث . ولكن هذا الاختيار لم يرض جميع الناس فسرت الاضطرابات في كل أرجاء الشام ، كما ظهر للخليفة الجديد منافسون في العراق. وتوفي يزيد بعد فترة قصيرة لم تزد على خمسة أشهر ، وعجز أخوه ابراهيم عن تقويم الموقف ، وتمكن منافس الخليفة في العراق ، مروان بن محمد ، من التقدم نحو الشام واستطاع أن يكسب القيسية الى جانبه ، وفي صفر عام ١٢٧ هـ / ٧٤٥ م استطاع أن يستولي على دمشق .

مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين

وهكذا تمكن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي من انتزاع الخلافة من أبناء عمومته . وكان يلقب بالحمار لصبره في الحروب .

والظاهر أن مروان كان يحن الى العراق وعلى ذلك فهو ينقل مقر الحكم الى حران[١] في أرض الجزيرة . وكان هذا يعني الانفصال النهائي بين الأمويين وبين أهل الشام .

ونشبت الثورات في كل مكان واضطر مروان أن يهدم تحصينات بعض المدن الكبرى في بلاد الشام وذلك لكي يخضعها ، وسرت الثورات ليس في الشام فقط بل في العراق والحجاز أيضا .

واستطاع مروان أن يقضي على الثورة التي قام بها سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي فر الى حمص ثم الى الكوفة ، واضطر مروان الى هدم أسوار حمص[٢] وأتبع ذلك بالقضاء على تحصينات دمشق وبيت المقدس وغيرها من مدن الشام .

وكان على مروان بعد ذلك أن يقضي على القلاقل والاضطرابات التي أثارها الخوارج في العراق وفي بلاد العرب . اذ يفهم من الروايات أن الضحاك ابن قيس الشيباني الخارجي اغتنم فرصة انقسام الأمويين بعد مقتل الوليد بن يزيد ، ثم بعد أن عزل مروان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عامل العراق وولى مكانه النضر بن سعيد الحرشي ، فلم يسلم ابن عمر اليه العمل واعتصم بالحيرة ، عندئذ انتهز الضحاك ذلك وأقبل الى الكوفة في سنة ١٢٧ هـ/ ٧٤٥ م . وزادت جموعه وألحقوا الهزيمة بالأمويين ثم تقدم الضحاك بعد ذلك الى الموصل واستولى عليها وكورها ومنها اتجه الى

---

(١) عن انتقال مروان الى حران انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٨٦ .

(٢) انظر ، ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٦ (ذكر انتقاض أهل حمص) ، (ذكر خلاف أهل الشوطة) ، ص ٢٨١ (ذكر خلاف أهل فلسطين) ، ص ٢٨٧ وما بعدها (ذكر خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان بن محمد) .

نصيبين وكان معه "مايزيد على مائة ألف" وهزم جيشا أمويا بقيادة عبد الله بن مروان بن محمد . ثم ان مروان سار اليه وتمكن من الحاق الهزيمة به والقضاء عليه عند ماردين وذلك في سنة ١٢٨ هـ (١) .

وقام ابو حمزة الخارجي (المختار بن عوف الازدي السلمي البصري) في جزيرة العرب . وكان كما تقول الرواية من الدعاة الاباضية ، وكان يفد في كل سنة الى مكة يدعو الناس الى خلاف مروان بن محمد . ثم تحالف مع عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق في أواخر سنة ١٢٨ هـ/ ٧٤٥م وخرج معه الى حضرموت حيث بايعه على الخلافة . وفي السنة التالية (١٢٩ هـ/ ٧٤٦م) خرج ابو حمزة الى مكة والمدينة وتمكن من الحاق الهزيمة بالعصامية الاموية ، ودخل المدينة واقام بها ثلاثة أشهر ثم سار نحو الشام . ولدن مروان المنتخب من عسكره جماعة جدوا المسير اليه وتمكنوا من الحاق الهزيمة به والقضاء عليه في وادي القرى . ثم سار عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي ، قائد مروان ، الى المدينة ومنها الى اليمن حيث قاتل عبد الله بن يحيى طالب الحق وقتله وحمل رأسه الى مروان بالشام (٢) .

وقبل هذا الوقت ثار الشيعة في الكوفة (في سنة ١٢٧ هـ) واقاموا عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر اماما لهم . ولكن والي العراق الأموي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز تمكن من هزيمتهم . وسار المطالب بالخلافة الى فارس وتغلب عليها في سنة ١٢٩ هـ/ ٧٤٦م ، وكثرت جموعه ، واقام باصفهان ثم اصطخر ، ومد نفوذه على ولايات خوزستان وفارس وكرمان ، وهاجم والي العراق عبد الله بن معاوية لايوائه الخوارج الذين هزموه مما اضطر ابن معاوية الى الهرب الى خراسان حيث قتله أبي مسلم لأنه كان يشكل خطرا عليه (٣) .

وهكذا ظهر مروان بن محمد بمظهر الرجل النشيط الكفوء الجديد القادر على تقويم الموقف واقرار الأمور وتمدئتها في الدولة . ولكن الخطر على الدولة كان يكمن في الشرق في بلاد خراسان .

---

(١) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، أحداث سنة ١٢٨ ، ص ٢٩٥ — ٢٩٦ ، (ذكر قتل الضحاك الخارجي) .

(٢) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ ، ٣٠٧ ، ص ٣٠٨ ، ص ٣١٤ — ٣١٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ، ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

الفصل الثاني
الدعـــوة الشيعيـــة العباسيـــة

أحوال خراسان في أواخر العصر الأموي :

بدأت الولايات الايرانية ، في الخروج على سلطان الخلافة ، في بلاد الشام، منذ عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وذلك عندما ظهرت مشكلة الدخول في الاسلام ودفع الجزية . فكما يفهم من الروايات كان من سياسة عمر بن عبد العزيز رفع الجزية عمن أسلم ، ونجح عماله في نشر الاسلام . ولكن نقص الموارد المالية دفع الدولة الى اتخاذ اجراءات شديدة كانت ترمي الى اثبات الدخول في الاسلام ثبوتا قاطعا، كما أنها لم تعف الكثيرين من الداخلين في الاسلام من دفع الجزية وبصفة خاصة على عهد والي خراسان هشام بن عبد الملك أشرس بن عبد الله السلمي (١٠٦ ـ ١١١هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٢٨م) [1] .

---

(١) انظر عن ولاية أشرس ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، ص ٢٠٦ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ، حيث يقول النص (أحداث سنة ١١٠هـ) : "في هذه السنة أرسل أشرس الى أهل سمرقند وماوراء النهر يدعوهم الى الاسلام على أن توضع عنهم الجزية وأرسل في ذلك أبا الصيداء صالح بن طريف مولى بني ضبة ، والربيع بن عمران التميمي ، فقال أبو الصيداء : انما أخرج شريطة أن من أسلم لا تؤخذ منه الجزية وانما خراج خراسان على رؤوس الرجال ، فقال أشرس: نعم .. فشخص الى سمرقند وعليها الحسن بن العمرطه الكندي على حربها وخراجها ، فدعا أبو الصيداء أهل سمرقند ومن حولها الى الاسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس فكتب .. الى أشرس أن الخراج قد انكسر ، فكتب اشرس الى ابن العمرطه أن في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة انما أسلموا تعوذا من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وحسن اسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه، ثم عزل أشرس ابن العمرطه عن الخراج وصيره الى عاني بن عاني ، فمنعهم أبو الصيداء من أخذ الجزية ممن أسلم ، فكتب عاني الى أشرس: ان الناس قد أسلموا وبنوا المساجد فكتب أشرس اليه والى العمال خذوا الخراج ممن كتتم تأخذونه منه فأعادوا الجزية على من أسلم" .

في ظل هذه الظروف كانت الفرصة مواتية لقيام حركة مناهضة للأمويين رغم أن رواية الطبري تذكر أن الدعوة الشيعية العباسية بدأت في خراسان منذ أيام خلافة عمر بن عبد العزيز في سنة مائة للهجرة (١) .

ولكن هناك رواية أخرى للطبري تعرف منها أن أول من "لبس السواد — في خراسان — ودعا الى كتاب الله وسنّة نبيه والبيعة للرضا" في سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤م هو الحارث بن سريج . وقبل الحرث عرض والي خراسان عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي أن يكتبا الى هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم "فان أبى اجتمعا عليه" . وكان رد الخليفة هو خلع عاصم الهلالي وتقليد ولاية خراسان الى أسد بن عبد الله القسري وضمها الى العراق لـ "تكون موادها ومعونتها من قريب لتباعد أمير المؤمنين وتباطئ غياثه" .

وظل أسد في الولاية من سنة ١١٧هـ حتى سنة ١٢١هـ (٧٣٥ — ٧٣٨م) (٢) . وبعودة أسد من جديد عادت سياسة الشدة والقمع ، فقبض أسد على جماعة من دعاة بني العباس فقتل بعضهم ، ومثل ببعضهم ، وحبس بعضهم . وواصل القتال ضد الحارث بن سريج . وبعد موت أسد ولي خراسان نصر بن سيار الكناني الذي كان يعرف "بشيخ مضر في خراسان" وعلى أيامه "عمرت خراسان عمارة لم تعمر قبلها وأحسن الولاية والجباية" (٣) فقد عمل نصر على رفع الجزية التي كان يدفعها المسلمون الى غير المسلمين (٤) .

ولكن نصر لم ينجح في ايقاف العداء التقليدي بين العصبية المضرية والعصبية اليمنية . ولما كان نصر من العصبية المضرية على عكس أسد — الوالي السابق — فانه حابى المضرية في بداية امرته وقلدهم الاعمال ، فالذين يقول:

---

(١) انظر: الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، طبعة دار المعارف ، مصر (مجموعة ذخائر العرب) ج ٧ ، احداث سنة ١٠٠هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٥٩ (ذكر ابتداء الدعوة العباسية) .

(٢) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ .

(٣) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ .

(٤) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ .

"فلم يستعمل أربع سنين الا شهرا"[١] .

ولكنه عاد وحاول نهج سياسة متزنة حتى يتألف اليمنية . ولكن اليمانية ثاروا بزعامة الكرماني (جديع بن علي الأزدي) الذي "أظهر الخلاف لنصر بن سيار" في سنة (١٢٦ هـ / ٧٤٤م) . وكان الكرماني كما تقول الرواية قد "أحسن الى نصر في ولاية أسد بن عبد الله ، ولكن بعد أن تقلد نصر امرة خراسان "عزل الكرماني عن الرياسة وولاها غيره"[٢] . ولذلك فقد حدثت جفوة بينهما . وقد اغتنم الكرماني الموقف الذي حدث بين نصر ابن سيار وبين خلافة دمشق بعد مقتل الوليد الثاني . ونستشف من الرواية أن الكرماني كان لا يتورع عن سلوك أي السبل من أجل تحقيق أطماعه فالنص يقول : "لو لم يقدر على السلطان والملك الا بالنصرانية واليهودية لتنصر وتيسود"[٣] . وقد قام نصر باعتقال الكرماني وحبسه ولكن الكرماني تمكن من الهرب من الحبس بمساعدة أنصاره والتف حوله الأزد .

أما عن العراق فقد عزل الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك واليها منصور بن جمهور — وكان نصر بن سيار قد امتنع من تسليم عمله اليه من قبل — واستعمل عليهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز . وقد أقر ابن عمر نصرا على خراسان . فغضب الكرماني لابن جمهور — وكان نصر قد عرّض به في خطبته — وأعلن خلافه لنصر[٤] .

وفي حاضرة الخلافة مات يزيد بن الوليد بن عبد الملك (يزيد الثالث) وحدثت فتن وقلاقل في البلاد الى أن خلص الأمر لمروان بن محمد (سنة ١٢٧ هـ/ ٧٤٤ م) فاستعمل يزيد بن عمر بن هبيرة واليا على العراق في سنة (١٢٨ هـ/ ٧٤٥م)[٥] . فأقر نصر بن سيار على خراسان ، وبذلك اضفى عليه صفة الشرعية وأعلن نصر بيعته

---

(١) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ .

(٢) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

(٣) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

(٤) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٦ .

(٥) انظر ، خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق سهيل زكار ، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٦٨ ، ج ٢ ، ص ٥٧٨ .

للخليفة مروان [١] . ولكن الحارث بن سريج — الذي كان قد سبق أن حصل له نصر على الأمان من الخليفة يزيد بن الوليد، عاد من بلاد ماوراء النهر — وكان متحالفا مع الترك — الى خراسان حيث استقر مع أتباعه في منطقة مرو — رفض مبايعة مروان وخرج على نصر الذي أرسل اليه " يدعوه الى الجماعة وينهاه عن الفرقة وأطماع العدو "[٢] . وطلب الحارث من نصر أن يعمل بكتاب الله وسنّة نبيه وأن يعزل عماله ويقلد عمالا نزهاء [٣] وتمكن داعيته جهم بن صفوان (رأس الجهمية) من لم الجموع حوله .

وفي نفس الوقت كان الكرماني يدعو الى عزل نصر وتعيين والي آخر عوضه، فالتقت مصالحهما واتفقا أي الحارث والكرماني — على حرب نصر . وقد حاقت الهزيمة بالحارث الا أن نصرا انظر بعد تقدم أنصار الكرماني الى الانسحاب الى نيسابور، ودخل الكرماني والحارث مدينة مرو . ولكن وقع الخلاف بينهما وقتل الكرماني الحارث في سنة ١٢٨ هـ / ٧٤٦ م " وصفت مرو لليمن "[٤] . الا أن الكرماني لم يهنأ طويلا بانتصاره ، فقد بدأ نصر يجمع قواته لاعادة استخلاص مرو من منافسه الكرماني والقضاء عليه .

ولقد كانت كل هذه الظروف في صالح الدعوة الشيعية العباسية .

الدعوة العباسية :

المعروف أن الدعوة العباسية شيعية الأصل ، وأن الدعوة الشيعية التي قامت باسم آل البيت والتي نادت بأن العلويين هم الورثة الطبيعيون لخلافة النبي وجدت في خراسان أرضا صالحة لبذر بذورها [٥] .

والحقيقة أن عرب الفتوح الاولى الذين توغلوا في خراسان ، التي تمثل كل الهضبة

---

(١) انظر، تاريخ خليفة بن خياط ج ٢، ص ٦١٧، ابن الاثير، ج ٤، ص ٢٩٢ .

(٢) ابن الاثير، ج ٤، ص ٢٩٢ .

(٣) ابن الاثير، ج ٤، ص ٢٩٢ .

(٤) انظر، ابن الاثير، ج ٤، ص ٢٩٢ — ٢٩٤ .

(٥) أ.د سعد زغلول، تاريخ الدولة العربية، طبع بيروت سنة ١٩٧٧، ص ١٦ .

الايرانية حتى بلاد ماوراء النهر، كانوا منعزلين في هذا المشرق البعيد ، مما جعلهم يتميزون عن عرب الأمصار الأخرى بصفات خاصة . ولم يكن المتزوجون منهم قد عبروا الجبال التي تحد ايران ، بل كان غير المتزوجين منهم ، هم الذين وصلوا الى هناك في جماعات ، وتزوجوا من نساء أهل البلاد . ويقدر فلهوزن أن الحد الاقصى لعدد هؤلاء كان لا يتجاوز المائتي ألف رجل ابان الثورة العباسية .

وكان الاندماج تاما بين سكان خراسان حتى يصعب التمييز في كتب التاريخ ، الا بصعوبة ، بين العرب الذين انصبغوا بالصبغة الايرانية وبين أهل البلاد الذين دخلوا في الاسلام والذين عرفوا بالموالي وكانوا يحتفظون بذكريات حضارتهم القديمة ، وتراث الأسرة السابقة . وكان هؤلاء الموالي يشعرون بالمساواة مع العرب ، وسنرى أنهم عملوا في القرن التالي على أيام العباسيين على اثبات تفوقهم الفكري في كل العلوم التي عرفها العرب .

وكان الخراسانية ، منذ العصر الأموي ، يحاربون في صفوف الجيش الاسلامي للدفاع عن البلاد ضد الترك ، وكان جميع أهل الاقليم يعيشون في وئام ؛ من العرب الفاتحين الى الموالي الذين دخلوا في الاسلام بل وأهل البلاد الذين بقوا على ديانتهم المزدكية . وعلى أيام زياد بن أبيه بدأ تهجير أعداد كبيرة من شيعة العلويين من مدينتي العراق الكبيرتين ؛ الكوفة والبصرة ، الى منطقة بلخ في أقصى خراسان ، على حدود ماوراء النهر . واستمرت سياسة نفي العناصر العلوية الى المشرق على أيام الحجاج بن يوسف . وفي نفس هذا الوقت أوقفت هجرة أهل الشام الى المشرق حيث لم يكونوا يشعرون بالأمن هناك ؛ ولا شك ان العلويين وشيعتهم وجدوا في الاقاليم الايرانية أرضا صالحة لنشر أفكارهم عن الامام المنتظر ، وهو المهدي ، وذلك أن الموالي من الفرس كانوا لا يزالون يشعرون بالحاجة الى حاكم مطلق يمتلك من الصفات ما هو فوق مستوى البشر بحيث يكون له التحكم في توزيع الأرزاق ، فهو الذي ينشر السعادة بين الناس أو التعاسة ، وعن طريقه يكون انتشار الخصب في الأرض أو القحط .

وكانت العلاقات الوثيقة بين خراسان من جهة وبين البصرة والكوفة ، وهما مركز الاضطراب العلوي من جهة أخرى سببا في أن اعتنق كل أهل ايران الآراء المادية

للدولة العربية التي كان الأمويون يحاولون تنظيمها واقرار تراتيبها ، والتي رغم تحولها الى ملكية وراثية فانها ظلت محافظة على طابعها العربي أو البدوى .

وهكذا شعر أهل ايران بأنهم أكثر تعلقا بالمذهب العلوى الذى يطالب بأن يكون الأمر في الدولة الاسلامية لآل البيت من العلويين ، والذى خلع على أفراد الأسرة العلوية ، شيئا فشيئا صفات فوق مستوى البشر .

كل هذا يفسر النجاح الذى صادفته الدعاية العلوية منذ بدء تنظيمها في العراق ، وارسال دعاتها الى خراسان . ومنذ مطلع القرن الثاني الهجرى كان دعاة الشيعة يظهرون في خراسان ، ملبين الحين والحين ، وبشكل منتظم حسب أوامر الكوفة ، دون أن يعرف الحساب من يعملون (١) .

عهد أبي هاشم الى محمد بن علي :

تكاد تجمع المصادر التاريخية على أن مطالبة العباسيين بالخلافة وادعائهم لها قد انتقل اليهم من أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية (أحد أبناء علي رضي الله عنه (٢) . فرواية صاحب "اخبار الدولة العباسية" تقول : "وكان

---

(١) انظر ، أ.د سعد زغلول ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٢) لقد قالت فرقة الكيسانية من الشيعة بامامة محمد بن الحنفية ، وزعمت أنه لم يبق بعد الحسن والحسين أحد أقرب الى أمير المؤمنين علي عليه السلام من محمد بن الحنفية لأنه كان صاحب راية أبيه يوم البصرة ، فهو أولى الناس بالامامة ، كما كان الحسين أولى بها بعد الحسن من ولد الحسن ، فمحمد هو الامام بعد الحسين ، وقالوا أن محمد بن الحنفية هو الامام المهدى ، ولما مات بالمدينة في المحرم سنة ٨١هـ قالوا أنه لم يمت وأنه مقيم بجبال رضوى — بين مكة والمدينة — ، وأنه الامام المنتظر الذى بشر به النبي صلى الله عليه وسلم وآله الذى سيملأ الارض عدلا وقسطا . هذا ولو أن هناك فرقة أخرى قالت أن محمد بن الحنفية مات وان الامام بعده ابنه عبد الله وكان يكنى أبا هاشم . انظر ، النوبختي ، فرق الشيعة ، طبع المطبعة الحيدرية بالنجف ، سنة ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦م ، ص ٢٣ ، ص ٢٦ — ٣٠ .

تشيع العباسية أصله من قبل محمد بن الحنفية والى ذلك دعا أبو مسلم ..."[١] .وتذكر ايضا ان محمدا بن علي أخذ العلم على يدى أبى هاشم وكان محمد يبجله ويجله فكان "اذا قام أبو هاشم يركب أخذ له الركاب" فلما مرض أبى هاشم مرضه الذى مات فيه وكان بأرض الشراة من بلاد الشام وذلك عند قفوله من لقاء سليمان بدمشق — عدل الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكان بالحميمة ، وعهد له بحقوقه في الامامة في سنة ٩٨ هـ/ ٧١٧ م[٢] . وألقى اليه بأسراره وقال له : "أوصيك بتقوى الله فانها خير ماتواصى بها العباد ، ومن بعد ذلك فان هذا الأمر الذى نطلبه ونسعى فيه وطلبه آخرون وسعوا فيه غيك وفي ولدك"[٣] .

هذا ماتقوله الرواية العباسية ، أما الشيعة فانهم قالوا : ان أبا هاشم أوصى الى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب[٤] . وهو الذى نادى به الشيعة في الكوفة اماما على عهد مروان بن محمد ، وبعد انهزامه أمام العباسيين اتجه الى فارس واصفهان واصطخر ، وانتهى الأمر بمقتله على يدى الداعية العباسي أبى مسلم الخراساني ، كما سبق القول .

تنظيم الدعوة :

يعتبر محمد بن علي العباسي أول منظم للدعوة العباسية السرية . أما ابنه ابراهيم الامام فكان المفجر لهذه الدعوة حيث نقلها من دعوة سرية الى علنية ولكنه

---

(١) انظر ، مؤلف مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، وفيه أخبار العباس وولده ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدورى ، الدكتور عبد الجبار المطلبي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٦٥ (أخبار الامامة) حيث يقول النص: "قالت الكيسانية بامامة محمد بن علي ، وذكروا أن أباه أوصى اليه . والكيسانية منسوبون الى المختار بن أبي عبيد ، وكان يلقب كيسان ، وهو اول من قال بامامة محمد بن علي ، وبها كان يقول علي بن عبد الله وولده الى أيام المهدى ".

(٢) مؤلف مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، ص ١٨٥ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٤) انظر ، النوبختي ، فرق الشيعة ، ص ٣٢ .

لم يجن ثمار عمله حيث قتل قبل أن يحقق العباسيون الانتصار فكان أبو العباس عبد الله بن محمد العباس أول خليفة لبني العباس .

ويمكن تقسيم الأدوار التي مرت بها الدعوة الى :

١ — الدور السري التحضيري ويبدأ من سنة ٩٧ هـ/ أو سنة ٩٨ هـ أو سنة ١٠٠ هـ على اختلاف الروايات التاريخية وكان مقر الدعوة الحميمة ونشاطها في الكوفة ثم مرو . ولم تكن تنظيماتها قد تبلورت في بادئ الأمر وجابهت انتكاسات قوية هزتها مثل حركة خداش والقبض على بعض الدعاة العباسيين .

٢ — الدور العلني الثوري ويبدأ بإرسال الامام ابراهيم أبا مسلم الخراساني الى مرو سنة ١٢٨ هـ/ ٧٤٥ — ٧٤٦ م حيث أعلن الثورة ضد الأمويين سنة ١٢٩ هـ بعد أن اختمرت الحركة السرية العباسية . وينتهي هذا الدور باعلان أبا العباس عبد الله نفسه خليفة في مسجد الكوفة سنة ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م ، وعندئذ أعلنت الحركة السرية عن صبغتها العباسية (١) .

ويفهم من النصوص أنه عندما آلت مقاليد قيادة الحركة الهاشمية (نسبة الى أبي هاشم) الى محمد بن علي العباسي — الامام الجديد — بدأت مرحلة أكثر تنظيما من سابقتها فتعرف على حامة أبي هاشم (٢) . عرّفه عليهم سلمة بن بجير ، وطلب منه أن يثبت أسماءهم ، ليعرفهم ويستظهر بهم على أمره (٣) ، فكتب محمد بن علي العباس فيهم سجلا . ومن هؤلاء كما تنص الرواية : سالم بن بجير — حفص بن سليمان وهو أبو سلمة الخلال — حفص الأسير — ميسرة الرحال — موسى بن سرج السراج ، زياد بن درهم الهمداني ، معن بن يزيد الهمداني ، المنذر بن سعيد الهمداني (٤) .

---

(١) انظر ، د . فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ٩٨هـ/ ٧١٦م — ١٣٢ هـ/ ٧٤٩م ، دراسة تحليلية لواجهات الثورة العباسية وتفسيراتها ، طبع دار الارشاد ، بيروت ، طبعة أولى ، سنة ١٩٧٠ ، ص ١٥٣ .

(٢) انظر ، أخبار الدولة العباسية ، ص ١٨٨ — ١٩٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٤) أخبار الدولة العباسية ، ص ١٩١ — ١٩٢ .

وكما تذكر الرواية فان الأتباع الاوائل كانوا ينتمون الى قبيلة بني مسلية ومواليها ، وكذلك من قبيلة عمدان (أي من اليمنية) . وقال لهم الامام : "أمسكوا عن الجد في أمركم حتى يهلك أشيخ بني أمية (عمر بن عبد العزيز) .. ولا تكثروا من أهل الكوفة ، ولا تقبلوا منهم الا أهل النيات الصحيحة "(١) .

وكان لا يعرف محمد بن علي بنسبه واسمه الا شيعة الكوفة وهم حوالي ثلاثين رجلا ، "فاذا سئلوا عن اسمه قالوا : أمرنا بكتمان اسمه حتى يظهر"(٢) وكانت دعوتهم الى الرضا من آل محمد (٣) .

ثم قرر الامام عملا بنصيحة كبار ثقاته نقل مركز النشاط للدعوة الى خراسان مع الاحتفاظ بالكوفة كنقطة ارتباط بين مرو (خراسان) والحميمة مقر الامام (٤) .

وأرسل الامام أبا عكرمة زياد بن درهم السراج الى خراسان وطلب منه السير على نهج بكير بن ماهان في تألف الاتباع ، وأوصاه بقوله : "وان دعوت أحدا من العامة فلتكن دعوتك الى الرضا من آل محمد ، فاذا وثقت بالرجل في عقله وبصيرته فاشرح له أمركم ، وقل بحجتك التي لا يعقلها الا أولو الألباب ، وليكن اسمي مستورا عن كل أحد الا عن رجل عدلك في نفسك في ثقتك به ، وقد وكدت عليه وتوثقت منه وأخذت بيعته ، وتقدم بمثل ذلك الى من توجه من رسلك ، فان سئلتم عن اسمي فقولوا : نحن في تقية ، وقد أمرنا بكتمان اسم امامنا . واذا قدمت مرو فأحلل في أهل اليمن وتألف ربيعة ، وتوق مضر ، وخذ بنصيبك من ثقاتهم ، واستكثر من الأعاجم ، فانهم أهل دعوتنا ومنهم يؤيدنا الله "(٥) .

هذا ولقد كان اختيار محمد بن علي العباسي لخراسان كمقر للدعوة موفقا ،

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ١٩٣ — ١٩٤ .

(٢) أخبار الدولة العباسية ، ص ١٩٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٤ .

(٤) انظر : د . فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ١١٧ .

(٥) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٠٤ .

لأنها تنفرد بموقف خاص ، دون غيرها من أمصار الدولة العربية الاسلامية . يتضح ذلك من وصيته لأتباعه من رجال الدعوة حين تباينت الآراء حول المكان المناسب للدعوة .

" أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي وولده ، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فليس يعرفون الا آل أبي سفيان وطلحة بني مروان ، وعداوة لنا راسخة .. وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سالمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانة ، ولم يقدح فيها فساد ، وليست لهم اليوم عم العرب ، ولا فيهم كتحارب الأتباع للسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر .. وبعد فكأني أتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح هذا الخلق "[1] .

ونظم بكير بن ماهان — الذي قال عنه الامام : اسمعوا منه وأطيعوا وافهموا ... هو لساني اليكم وأميني فيكم فلا تخالفوه ولا تقضوا الأمور الا برأيه ، وقد آثرتكم به على نفسي لثقتي به في النصيحة لكم واجتهاده في اظهار نور الله فيكم [2] — أتباعه السبعين ، فقسمهم الى اثنا عشر نقيبا يرأسهم سليمان بن كثير الخزاعي وذلك سنة ١١٨ هـ . "وأكد على وجوب مناصحته امامهم في السر والعلانية ، وألا يطلعوا على أمرهم أحدا خافوا ناحيته ولم يثقوا به "[3] .

والنقباء الاثنا عشر هم :

من خزاعة : ١ — أبو محمد سليمان بن كثير الخزاعي ثم الأسلمي .

٢ — أبو نصر مالك بن الهيثم

٣ — أبو منصور طلحة بن زريق مولى طلحة الطلحات

---

(١) انظر ، أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٢) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢١٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٢٣ .

٤ ـ زياد بن صالح (مولى خزاعة)

من تميم : ٥ ـ موسى بن كعب (أبو عيينة)

٦ ـ عيسى بن كعب

٧ ـ لاهز بن قريظة

٨ ـ أبو سهل بن مجاشع

من طيء : ٩ ـ أبو عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائي

ومن شيبان : ١٠ ـ أبو داود خالد بن ابراهيم الذهلي

ومن بجيلة : ١١ ـ أسلم بن سالم

ومولى بني أسد : ١٢ ـ أبو علي شبل بن طهمان .

وفكرة النقباء الاثنى عشر ـ ونلاحظ أن أكثريتهم كانوا عربا ـ والدعاة السبعين فيما اقتداء بنقباء بني اسرائيل وبنقباء الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بيعة العقبة فالنص يقول : "بسم الله الرحمن الرحيم ، ان السنّة في الأولين والمثل في الآخرين ، وان الله يقول "واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا" ، ثم قال في آية أخرى : "وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا" ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم وافاه ليلة العقبة سبعون رجلا من الأوس والخزرج فبايعوه فجعل منهم اثنى عشر نقيبا (١) .

وهناك (نظراء النقباء)(٢) ، وقد روى أن عددهم أحد وعشرون (٣) .

وهناك الدعاة ودعاة الدعاة (٤)

ويفهم من الرواية أن أهل الدعوة وشيعة الامام كانوا يرسلون اليه الأموال والحلى حتى يتقوى بها في "احياء الحق واماتة الباطل" (٥) .

---

(١) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢١٦ ـ ٢٢٠ .

(٣) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٢٠ .

(٤) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

(٥) انظر ، أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ، ص ٢٣٧ .

موت محمد بن علي وولاية ابنه ابراهيم الامامة :

اعلان الثورة :

مات محمد بن علي العباسي في سنة ١٢٥ هـ بالشراة من أرض الشام (١) ، وكان قد أوصى لابنه ابراهيم بالامامة من بعده اذ قال لخاصته : "فلكم فيه خلف صدق مني" كما اوصى بكير بن ماهان بأن يعهد برياسة الدعوة في الكوفة الى أبي سلمة حفص بن سليمان الخلال .

وتنسب الرواية الى ابراهيم أنه قام باتخاذ السواد شعارا للعباسيين وذلك لأن راية الرسول صلى الله عليه وسلم كانت سوداء ، وكانت راية علي بن أبي طالب سوداء . وهو اختيار يتفق مع ماتورده الملاحم والنبوءات على أن لون الرايات المقبلة من المشرق للقضاء على ظلم الأمويين وانهاء دولتهم (٢) .

ومن هنا سميت الدولة العباسية بدولة المسودة .

وأمر ابراهيم بكير بن ماهان بالمضي الى خراسان وأن يأمر الشيعة بتسويد الثياب والرايات ، وكتب معه كتابا الى الشيعة . نعى اليهم فيه أباه ، ووعظهم ... فبايع الجميع الامام الجديد (٤) . ثم قفل بكير وبرفقته بعض الشيعة العباسية الذين التقوا بالامام ابراهيم وتعرفوا عليه وطلبوا منه التعجيل بالثورة وقالوا له : "حتى متى تأكل الطير لحم أهل بيتك وتسفك دماءهم! تركنا زيدا مصلوبا بالكناسة وابنه مطردا في البلاد ، وقد شملكم الخوف وطالت عليكم مدة أهل بيت السوء (٥) .

ظهور أبو مسلم في خراسان :

قرر الامام ابراهيم في سنة ١٢٨هـ (٦) اختيار مولاه أبا مسلم الخراساني -

---

(١) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٣٩ .
(٢) أخبار الدولة العباسية ، ص ١٩٩ .
(٣) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٤٠ ، ص ٢٤٥ .
(٤) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٤٠ .
(٥) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٤١ .
(٦) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٧٠ .

وذلك بعد أن عرض الأمر على سليمان بن كثير وعلى قحطبة فرفضا [١] ليمثله في خراسان . وكتب معه الى شيعته كتابا قال فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم صدق وعد الله لأوليائه ، وحقت كلمة الله على أعدائه، ولا تبديل لكلمات الله ، ولن يخلف الله الميعاد . أن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ... أما بعد فقد وجهت اليكم مجد الدهر عبد الرحمن بن مسلم مولاى ، فالقوا اليه أزمة أموركم ، وحمّلوه أعباء الوزر لها والصدر في محاربة عدوكم ، وعاهدوا الله على الطاعة وكونوا بحبله معتصمين . وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون "[٢] .

وكان تعرّف أبى مسلم للمرة الاولى على الدعوة العباسية حينما التقى ببعض النقباء العباسيين الذين زاروا بعض العجليين في سجن الكوفة وهم في طريقهم الى اداء فريضة الحج ، وكان أبو مسلم يخدم هؤلاء العجليين (من بني معقل) في السجن ، فتوسموا فيه نجابة وعقل وأدب فدعوه الى دعوتهم واصطحبوه معهم الى ابراهيم الامام بعد أن استأذن مولاه عيسى بن ابراهيم السراج [٣] وأعجب الامام أخلاقه ومنطقة ورأيه وعقله [٤] وغيّر اسمه الى عبد الرحمن وكناه بأبى مسلم وظل في خدمته يستعمله في حمل رسائله الى الكوفة وخراسان حتى سنة ١٢٨ حين اشخصه الى خراسان .

وكان أبو مسلم على معرفة بأحوال خراسان — التي كانت الفتنة قد طالت فيها بين نصر بن سيار وعلي بن الكرماني ومن كان بهما من العرب حتى أضجر ذلك كثيرا من أصحابهما وجعلت نفوسهم تتطلع الى غير ما هم فيه والى أمر يجمعهم فتحركت

---

(١) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٥٦ .

(٢) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

(٣) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٤) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٥٦ .

الدعوة يدعو اليماني من الشيعة اليماني والربعي الربعي ، والمضرى المضرى حتى كثر من استجار . وكفوا بذلك عن القتال في العصبية[١] — حيث اختلف اليها قبل ذلك بأمر من الامام ابراهيم ، وكانت احداها مع أبي سلمة الخلال الذى التقى بالشيعة وقال لهم : " قد حضر أمركم فأعدوا واستعدوا ... "[٢] . كما تقول رواية صاحب أخبار الدولة العباسية على لسان أبي مسلم : " أمرني الامام أن أنزل في أهل اليمن وأتألف ربيعة ، ولا أدع نصيبي من صالحي مضر وأحذر أكثرهم من أتباع بني أمية وأجمع إلى العجم واختصم "[٣] .

ووصية ابراهيم الامام لابي مسلم تتلخص في الاعتماد على قبائل العرب من اليمنية في خراسان ، وكان هؤلاء يمثلون على أواخر أيام الأمويين حزب المعارضة لعرب الدولة ، وأن يتألف ربيعة ، ويحذر ويشك في العرب من المضرية ، وهم عصبية والي خراسان ، نصر بن سيار — الا ماصلح منهم .

والحقيقة ان انقسام العرب على أنفسهم في خراسان كان السبب في نجاح أبي مسلم ، فأثناء الصراع بين نصر بن سيار المضرى والكرماني اليمني ، انضم أبو مسلم الى الكرماني ، وعندما حذر نصر زعيم اليمنية الكرماني من خطورة الداعية العباسي وطلب اليه الاتفاق ووافق الكرماني كان جزاؤه أن قتله نصر[٤] .

اعلان الثورة :

لما فشا خبر أبي مسلم أقبلت الشيعة من كل فج ، وقدم الدعاة بمن وافقهم من اخوانهم ، وتكاثر عددهم يوما بعد يوم[٥] . وكان أبو مسلم قد نزل في منطقة مرو

---

(١) انظر ، أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٤٨ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٦٧ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨٥ .
(٤) انظر ، تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ، ص ٥٩٠ (أحداث سنة ١٣٠ هـ) ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .
(٥) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٧٧ .

(لأنها أصلح مكان لاعلان الثورة) ومن هناك أخذ يرسل النقباء الى مختلف الاقاليم في طخارستان ومرو الروذ والطالقان وخوارزم ، وحدد أبو مسلم شهر رمضان لاظهار الدعوة ، ولكنه ترك للنقباء حرية التصرف . " فمن أعجله العدو منهم دون الوقت به الأذى والمكروه ، فقد حل لهم أن يدفعوا عن أنفسهم ويجردوا السيوف " ، وكذلك من شغله منهم عدوهم عن الوقت فلا حرج عليهم أن يظهروا بعد الوقت " (١) .

وترك أبو مسلم مكانه في فرغانة ونزل في قرية سفيذنج " وبث دعاية في الناس وأظهر أمره " (٢) ، فسارعت الأعاجم ، وكثير من أهل اليمن وربيعة الى الدعوة من بين متدين بذلك أو طالب بدخل (ثار) أو مرتور يرجو أن يدرك بها ثأره ، وأتاه عدة من ذوى البصائر من مضر (٣) .

وتقول الرواية أن أبامسلم بعث الى نصر وفدا ... وكتب معهم الى نصر كتابا يدعوه فيه الى الطاعة والدخول فيما دخل فيه أهل الدعوة ، ويعلمه أن هذه الرايات السود التي أظهرها هي التي لم يزل يسمع بها ، ويحذره من أن يكون من صرعاها (٤) .

واستعمل نصر ضد شيعة العباسيين دعاية دينية قوية حيث قال : هذه المسودة وهي عم تدعو الى غير ملتنا ، وقد أظهروا غير سنتنا ، وليسوا من أهل قبلتنا ، يعبدون السنانير ، ويعبدون الرؤوس ، على وأغنام وعبيد وسقاط العرب والموالي (٥) .

وأجابه الناس وظاهروه على حرب أبى مسلم . وكتب نصر الى أبن هبيرة والي العراق يستمده ، فلما استبدت به الأمور ، كتب الى مروان الحمار يشكو له ابن هبيرة ويخبره بعظم الأمر من قبل أبى مسلم ، وكتب اليه :

---

(١) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٠٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٠٠ .

(٣) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٨٥ .

(٤) انظر ، أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٨٦ .

(٥) أخبار الدولة العباسية ، ص ٢٩٠ .

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكى ... وان الحرب يبدؤها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام (١)
فان يك قومنا أضحوا نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام
فصبرى عن رحالك ثم قولي ... على الاسلام والعرب السلام (٢)

وكتب يصف له أمر أبي مسلم ، وكثرة الدعوة ، وميل اليمانية وربيعة اليه ، ثم بعث للخليفة رسولا . وظل نصر ينتظر المدد أن يأتيه ، " وقد فسد عليه أهل خراسان الا من كان معه من مضر خاصة" وكتب نصر الى ابن هبيرة يستمده فلم يمده (٣) فكتب الى الخليفة مروان ثانية يستنجد به بقوله : " كتبت الى أمير المؤمنين ولم يبق مني شيء أستعين به على عدو أمير المؤمنين لا في رجالي ولا في مالي ولا في مكيدتي ، ولو كنت أمددتني بألف فارس من أهل الشام لاكتفيت بهم ، ولقطعت دابر القوم الظالمين . اني حين كتبت الى أمير المؤمنين قد أخرجت من جميع سلطاني ، فأنا واقف على باب داري ، وان لم تأتني مواد أمير المؤمنين ووكلنا الى ابن هبيرة طردت عن باب داري ، ثم لا رجوع اليها الى ملتقى الحشر . . ." (٤) .

ثم ان نصرا كما يقول صاحب " أخبار الدولة العباسية" جمع وجوه أصحابه وأهل الرأى والمشورة منهم ولم يجتمعوا على شيء . وهنا اضطر نصر الى الاستنجاد بالخليفة مروان ثانية يستحثه على امداده ويستنفره بقوله : أما بعد فاني ومن معي من عشيرة أمير المؤمنين في موضع من مرو على مجمع الطريق ، ومحجة الناس العظمى من مختلف القوافل والرسل والجنود من العراق ، في حائط قد خندقت فيه على نفسي ومن معي ، وعن يميني وشمالي قرى بني تميم وسائر أحياء مضر ليس يشوبهم غيرهم الا قرى على حدهم خاملة الذكر فيها خزاعة وفيها حي طلفيتهم أبو مسلم ، فنحن

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .
(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٧٩ .
(٣) أخبار الدولة العباسية ، ص ٣١٠ .
(٤) نفس المصدر السابق ، ص ٣١٩ ـ ٣١١ .

حين كتبت الى أمير المؤمنين في أمر هائل يتكفأ بنا تكفؤ السفينة عند هبوب العواصف ، ونحن من اخواننا اليمنية وأغنامهم ورعاعهم ، فيما نتوقع من سفههم ، ولما قد شملهم من ورائهم الخبيث ... وأنا معتصم بطاعة أمير المؤمنين . وقد أملنا غياث أمير المؤمنين وموادّه وورود خليله وفرسانه ليقمع الله بهم كل مصر على غشه وساع في خلافه ، فلا يكونن مثلنا ياأمير المؤمنين قول الأول :

لا أعرفنك بعد اليوم تندبني ... وفي حياتي مازودتني زادى (١) .

ثم قال نصر شعرا يحرض فيه العرب على الهاشمية :

أبلغ ربيعة في مرو واخوتهم ... ليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
مابالكم تنصبون الحرب بينكم ... كأن أهل الحجى عن رأيكم غيب
وتتركون عدوا قد أطاف بكم ... فأين غاب الحجى والرأى والأدب
ذروا التفرق والأحقاد واجتمعوا ... ليوصل الحبل والأصهار والنسب
أن تبعدوا الأزد منا لا نقرّبها ... أو تدنوا نحمدهم يوما اذا اقتربوا
اتخذلون اذا احتجنا وننصرهم ... لبئس والله ماظنوا وماحسبوا (٢)

وظهر أبو مسلم وأعلن اسم الامام من أعلى المنبر في صلاة الجمعة . وأسفل المنبر علق علمان أسودان كان قد بعث بهما الامام من الكوفة أحدهما سمي الظل والآخر السحاب . وكان أبو مسلم وهو يعقد اللواءين يتلو : " اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير " . وتأول الظل والسحاب فقال : ان السحاب يطبق الأرض وان الأرض كما لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباس الى آخر

---

(١) أخبار الدولة العباسية ، ص ٣١١ ـ ٣١٢ .

(٢) انظر ، أخبار الدولة العباسية ، ص ٣١١ ـ ٣١٢ .

الدهـر (١) .

وكذلك ليس أبو مسلم السواد هو وأتباعه ، كما أنه غير في بعض الشعائـر. لما حضر عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي بالشيعة وأمره أن يبـدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير آذان وألا أقامه ، وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبـل الصلاة وبالآذان والاقامة .

وهكذا بدأ أبو مسلم نشاطه في منطقة قبائل خزاعة — كما تقول النصوص — ولكنه عندما اصطدم باتحاد قبائل العرب ضده خرج الى قرية الماخوان وخندق بهـا . ثم عاد الى نشاطه . ورغم أنه أصبح من المشكوك في أمرهم من جانب العرب ، الا أن هؤلاء كانوا مشغولين بنزاعاتهم ، فلم يستمر اتحادهم طويلا بل ان عرب اليمنية تحالفوا معه عندما أرسل الى ابن الكرماني واستماله الى جانبه . أما عن أنصار أبى مسلم فكانـوا خاضعين له تماما ، كما كان جنده مطيعين لقوادهم أحسن الطاعة .

سقـوط مـرو :

وبفضل انقسام العرب على أنفسهم وتماسك حزب أبى مسلم ، نجح هذا الأخير في الاستيلاء على مدينة مرو عاصمة الاقليم الواقعة علـى نهر المرغـاب ، وكان دخولهـا بفضل ممالأة اليمنية وعلى رأسهم ابن الكرماني (٢) .

ودخل أبو مسلم مرو من باب قنوشير فتلا هذه الآية : " ودخل المدينة علـى حين غفلـة من أهلها " الى آخر الآية ، ثم سـار الى دار الامارة فنزلهـا ، وعلـي

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٠٠ ، وقارن مؤلف مجهول ، العيون والحدائـق في أخبار الحقائق ، النسخة المصورة بالأوفست ، المثنى بغداد ، عن طبعة بريل ١٨٦٩ ، ص ١٨٦ حيث يقول النص : " وكانت الراية التي نفذها ابراهيـم تدعى السحاب ونفذ لواء يدعى الظل وتأويل هذين الاسمين الظل والسحـاب أن السحاب يطبـق الأرض وكذلـك دعـوة بنـي العباس وتأويـل الظـل أن الأرض لا تخلـو مـن الظـل أبـدا فكـذلك لا تخلـو الأرض من خليفـة هاشمي أبد الدهـر " .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٠١ .

بن الكرماني معه ، ثم دعوا الناس للبيعة فلم يتخلف عنها أحد من أهل مرو . ثم خرج علي بن الكرماني وأبو مسلم الى المسجد فصعد على المنبر وجعل أبو مسلم يبايع الناس، وأقام أبو مسلم ثلاثة أيام يأخذ البيعة على أهل مرو .. وهرب نصر من المدينة يوم الجمعة ١٠ جمادى الاولى سنة ١٣٠ هـ[١] ، وصحبته امرأته المرزبانة ، التي اضطر الى تركها في الطريق ، واتجه الى مدينة سرخس ، ومنها الى طوس ثم الى نيسابور.

فتح طوس:

مقتل تميم بن نصر:

ومن مرو أخذ أبو مسلم يدير الحرب ضد نصر . وكان يدير العمليات العسكرية في جانب المسودة عدد من كبار القادة العرب فأول من قام بمهاجمة القوات الأموية في خراسان كان قحطبة بن صالح ، وهو من قبيلة طيء العربية . فلقد بدأ قحطبة بهزيمة تميم بن نصر بن سيار في طوس ، وكان أتباع الضحاك الشيباني ، من الخوان ، قد لحقوا بابن نصر هناك . وانتهت المعركة بمقتل تميم بن نصر واستباحة عسكره[٢] .

ويذكر صاحب " أخبار الدولة العباسية " أن نصر بن سيار قال يرثي ابنه تميما لما بلغه نبأ مصرعه :

نفى عني العزاء وكنت جلدا ... نكوب فجائع الحدث العظيم
وهم أورث الأحشاء وجدا ... لاجلاء الفوارس عن تميم
ومصرعه على قضب الأعادى ... يذّب عن الجماعة والحريم
وفاء للخليفة وابتذالا ... لنفس من أخى ثقة كريم
فإن يك دهرنا أودى مداه ... بفارسنا المقاتل في الصميم
وان يشمت بنكبتنا عدو ... فما أنا بالضعيف ولا السئوم[٣]

---

(١) انظر ، أخبار الدولة العباسية ، ص ٣١٦ - ٣١٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٣٢٣ - ٣٢٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢٦ .

فتح نيسابور :

أما عن نصر فانه عرج من نيسابور الى جرجان ، وتمكن بذلك أبو مسلم من دخول مدينة نيسابور في شوال سنة ١٣٠هـ / يونيه ٧٤٨م . وبعد أن تحقق لأبي مسلم هذا النجاح الكبير تخلص من زعيمي اليمنيه من العرب وهما : علي بن الكرماني وأخوه عثمان اذ قتلهما غدرا (١) .

فتح جرجان (وأخذ الري) :

وعندما استغاث نصر بن سيار بوالي العراق ، ابن هبيرة ، أرسل اليه هذا جيشا بجرجان ، ولكن قحطبة خرج اليه وهزمه في ذى الحجة من نفس السنة ، بعد أن فتح جرجان وأوقع الهزيمة بأهلها الذين حاولوا الثورة حتى قيل أنه قتل منهم مايزيد على ثلاثين ألفا . وبسبب تردد والي العراق ابن هبيرة سلم موقف نصر الذى مات وهو يفر أمام قحطبة بالقرب من الري ، " وكان مريضا يحمل حملا " . وبعد وفاة نصر أخذت مدينة الري ، وصادر أبو مسلم أملاكهم لأنهم كانوا سفيانية كما تقول النصوص . وأحاط الحسن بن قحطبة ببقية جيوش أهل الشام في نهاوند . وعندما خرج جيش شامي كبير لفك حصارهم بقيادة عامر المري والي كرمان وداود بن يزيد بن هبيرة ، في أواخر سنة ١٣١ هـ/ ٧٤٩ م ، عزمه قحطبة وهو يتقدم تجاه أصفهان . وتقول النصوص : " أمر قحطبة بمصحف فنصب على رمح ونادى ياأهل الشام إنا ندعوكم الى مافي هذا المصحف ، فشتموه وأفحشوه في القول " وأنه هزم داود بن هبيرة " وأصابوا عسكره ، وأخذوا منه مالا يعلم قدره من السلاح والمتاع والرقيق والخيل ، ومارؤى عسكر قط كان فيه من أصناف الأشياء مافي هذا العسكر كأنه مدينة ، وكان فيه من البرابط ، والطنابير ، والمزامير والخمر مالا يحصى " (٢) .

حصار نهاوند :

واستراح قحطبة بعض الوقت بأصفهان ثم قدم على ابنه الحسن بنهاوند . وبعد

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣١٢ .

(٢) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣١٦ - ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ .

عدة أشهر من القتال استسلم الشاميون بنهاوند ، دون أن يفكروا في مصير اخوانهم بخراسان ، وهؤلاء قضي عليهم دون شفقة أو رحمة وبذلك انفتح طريق العراق أمام الخراسانية .

مسير قحطبة الى ابن هبيرة بالعراق :

وخرج قحطبة من نهاوند وتوجه الى العراق ، واضطر في أول الأمر الى الانسحاب أمام يزيد بن هبيرة ، والي الاقليم ، الذى خرج للقائه وراء دجلة ولكنه عاد واتجه نحو الكوفة . وتبعه ابن هبيرة وتمكن من مفاجأته في ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ / أغسطس ٧٤٩ م ، في معسكره قرب الأنبار ، مما اضطر قحطبة الى الانسحاب الى واسط . وأثناء القتال الذى كان يدور ليلا سقط قحطبة في النهر (الفرات) ومات غرقا [١] ، في ليلة الاربعاء ٨ من محرم سنة ١٣٢ هـ [٢] . ولكن القوم اجتمعوا وأجمعوا على الرضا بحميد (الحسن) بن قحطبة ، في رواية ابن الأثير " فبايعوه وسلموا له الأمر " [٣] .

فتح الكوفة :

تقدم الحسن بن قحطبة الى الكوفة في الجنود ، واستولى جيشه عليها بعد أن هزم ابن هبيرة . ويفهم من النصوص أن الكوفة أخذت بسهولة ، اذ كان محمد بن خالد القسرى قد خرج فيها على الأمويين الذين انسحبوا منها و" سود " أى أعلن دخوله في دعوة العباسيين وكتب بذلك الى قحطبة [٤] .

ظهور أبي سلمة بالكوفة :

وأرسل أبو سلمة الى حميد بن قحطبة أن يدخل الكوفة بأحسن هيأة ، وأن يظهروا زينتهم ، ويشهروا سلاحهم وأعلامهم وقوتهم ، ففعل ... وظهر أبو سلمة وأعلن أمره ،

---

(١) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

(٢) أخبار الدولة العباسية ، ص ٣٧١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٧١ . تاريخ خليفة ، ج ٢ ، ص ٥٨٢ ، أحداث سنة ١٢٩ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٢١ .

وكان لظهور أبي سلمة وتوليه للأمور يوم الجمعة ١٠ من المحرم سنة ١٣٢هـ وتولى ادارة مقاليد الأمور(١) .

موت ابراهيم الامام:

وتقول النصوص أن الخليفة مروان بن محمد كان قبل ذلك بقليل قد أمر بالقبض على الامام ابراهيم الذى أخذ وأنفذ الى حران وحبس . والظاهر أنه قتل هناك . وتختلف الروايات فيما يتعلق بنهايته ، اذ يقال أن مروان وجه قوما فدخلوا السجن ليلا فغموا ابراهيم ، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، فلما أصبحوا وجدوهما ميتين(٢) .

وفي رواية أخرى " عدم مروان على ابراهيم بيتا فقتله(٣) وخرج أبو العباس الذى كان ابراهيم قد أوصى له وعهد اليه بالامامة الى الكوفة ، هو وأخوه أبو جعفر فوصلوها في ربيع الأول من سنة ١٣٢هـ / أكتوبر ٧٤٩ م ، حيث أعلنت امامة أبي العباس(٤) .

---

(١) أخبار الدولة العباسية ، ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

(٢) أخبار الدولة العباسية ، ص ٣٩٢ — ٣٩٣ ، ص ٣٩٦ حيث يقول النص: " وذكروا أن ابراهيم قدم به على مروان ، فدفعه الى ابنه عبد الله بن مروان وهو عامله على الجزيرة فحبسه ، فلما أراد مروان المسير الى الزاب أمر بابراهيم فجعل رأسه في جراب نورة ، وغمه عبد الله بن عمر بمرفقة جعلت على وجهه» فماتا ، تاريخ خليفة ، ج ٢ ، ص ٥٨٢ ، أحداث سنة ١٢٩ ، وقارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٨٤ — ٨٥ .

(٣) أنظر ، نفس المصدر ، ص ٣٩٧ .

(٤) انظر ، أخبار الدولة العباسية ، ص ٤٠٢ ونص الوصية يقول: " احفظك الله يا أخي بحفظ الايمان ... كتابي اليك من حران ، وأنا على شرف الأمر الذى لا بد منه ، فاذا كان ذلك فأنت الامام الذى تقيم أودنا وترعى حرمة أوليائنا ودعاتنا .

وقعة الزاب ونهاية مروان بن محمد :

كان مروان بن محمد حتى ذلك الوقت يدافع عن خلافته ، كما أن يزيد بن هبيرة لم يكن قد استسلم بعد وكان لا بد للمسودة من القضاء عليهما .

وكانت الجيوش العباسية التي تعمل في أعالي دجلة تحت قيادة أبي عون عبد الملك بن يزيد الأزدي الذى عينه قحطبة ، ولكنه بعد سقوط الكوفة أعفي من القيادة ، التي أعطيت الى عم الخليفة ، أبي العباس، عبد الله بن علي بن عباس . وتقدم مروان بن محمد على رأس جيش قوى للقاء الخراسانية الذين وصلتهم الامدادات من أبي سلمة الخلال ، ومن أبي العباس، والتقى بهم على الضفة اليسرى لنهر الزاب ، ودام القتال بين الطرفين تسعة أيام أحرز مروان خلالها بعض الانتصارات ، ولكن الأمر انتهى بوقوع الاضطراب في جيشه اذ كانت كل عصبية تريد أن تتقدم العصبية الأخرى، وأعقب ذلك هزيمة مروان نتيجة لخطأ استراتيجي ، اذ عقد جسرا على النهر وعبره رغم معارضة وزرائه في ذلك وترتب على هذا الخطأ أن انقطع الجسر عند الانهزام وكان من غرق يومئذ أكثر ممن قتل ، وذلك في ١١ جمادى الثاني من سنة ١٣٢هـ ٢٦ يناير ٧٥٠ م .

وفر مروان الى الموصل بعد هزيمة الزاب ، ولكنه استقبل استقبالا سيئا ، فسار الى حران ، وأقام بها أكثر من عشرين يوما . وعندما تبعه عبد الله بن علي الى هناك مضى الى حمص . ولكن مدن الشام كانت قد بدأت تخلع طاعتها بالنسبة للأمويين وتسقط بين أيدى العباسيين ، مدينة بعد أخرى ، مثل : قنسرين وحمص وبعلبك، ولم تدافع الا دمشق بعض الوقت ، فدخلت عنوة في ٥ رمضان سنة ١٣٢ هـ/ ١٧ نوفمبر سنة ٧٥٠ م ، بعد أن حوصرت وضيق عليها الخناق .

وتابع العباسيون مطاردة مروان ، اذ سار في اثره صالح بن علي من أبي فطرس الى العريش الى النيل ثم واصل سيره الى صعيد مصر . وفي بلدة بوصير من قرى الفيوم ، حاول مروان الاختفاء في احدى الكنائس (١) ، ولكنهم ، بايتوه وعجموا على

(١) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

عسكره وضربوا بالطبول وكبروا ونادوا " يالثارات ابراهيم " ، فظن من بعكسر مروان أن قد أحاط بهم سائر المسودة [١] ، فقتل مروان في ١٧ من ذى الحجة سنة ١٣٢هـ/ ١٧ أغسطس سنة ٧٥٠ م . واحتز رأس آخر خلفاء الأمويين ، وأرسل الى صالح بن علي الذى مثل به فقطع لسانه ، وسيّره الى أبى العباس الذى كان بالكوفة[٢] .

استسلام ابن هبيرة في واسط ومقتله :

بالقضاء على مروان بن محمد لم يبق للأمويين من قوة ولا حول الا قوات ابن هبيرة التي لجأت بعد انهزامها أمام ابن قحطبة الى واسط ، المدينة الاستراتيجية التي بناها الحجاج في مستنقعات دجلة ، ودافعت عن نفسها ما يقرب من العام . بدأ بمناوشات خارج المدينة بين أهل الشام وجيوش الحسن بن قحطبة ، وانتهت بانهزام أهل الشام والتجائهم الى المدينة وتحصنهم بها وأصبح القتال رميا وتراشقا من بعيد .

ورغم الانقسامات بين اليمنية والقيسية ، في صفوف ابن هبيرة ، بعد أن كاتب أبو العباس السفاح اليمانية من أصحاب ابن هبيرة ، فان هذا الأخير لم يدخل في مفاوضات مع العباسيين الا عندما علم بموت مروان . وفي هذه الاثناء تكاثفت قيادة القوات العباسية المحاصرة بواسطة قد انتقلت من يدى الحسن بن قحطبة الى أبى جعفر أخي الخليفة . وهذا يبيّن أن الخليفة بدأ ينهج سياسة جديدة تهدف الى وضع مقاليد الأمور وخاصة القيادات العسكرية بين يدى أفراد أسرته . وكتب السفاح الى الحسن بن قحطبة " ان العسكر عسكرك والقواد قوادك ولكن أحببت أن يكون أخي حاضرا فاسمع له وأطع وأحسن مؤازرته " [٣] .

وبعد أن علم المحاصرون بمقتل مروان طلبوا الصلح ، وجرت السفراء بين أبى جعفر وابن هبيرة وطالت المفاوضات بين الطرفين ، وكتب أبو جعفر كتاب أمان لابن

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٨٧ .

(٢) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٣١ .

(٣) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

هبيرة ، لبث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوما حتى ارتضاه وأرسله الى أبي جعفر الذى أنفذه الى أخيه السفاح فأمره بامضائه ، وأمضى السفاح المعاهدة ولكنه لم يحترمها ، بعد أن اعترض أبو مسلم على نصوصها وكتب الى السفاح " ان الطريق السهل اذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة" (١) .

وانتهى الأمر بقتل أفراد الحامية المستسلمة ، واغتيال ابن هبيرة وباستسلام واسط تم القضاء على القوات الأموية النظامية ، ونهج العباسيون سياسة ترمي الى استئصال شأفة الأمويين ، واستخدام العنت والقسوة ضد أفراد الأسرة التعسة ، ولم يتورعوا في ذلك عن استعمال الغدر والخيانة (٢) .

مذبحة أبي فطرس:

من أهم المذابح التي غدر فيها عبد الله بن علي عم الخليفة وقائد القوات العباسية في الشام ، بعدد كبير من أفراد الأسرة الأموية ، والتي تسمى بمذبحة أبي فطرس ، وذلك بعد أن أمنهم ودعاهم الى الطعام . ويقال أنه بعد قتلهم غيلة أمر بالبسط ففرشت على جثثهم فأكل عليها ، وهو يسمع أنين بعضهم (٣) .

وطارد العباسيون الأمويين في الشام وفي فلسطين والعراق . وبعد مطاردة الأحياء انتهكوا حرمة الاموات ، فنبشت قبور الخلفاء في دمشق بأمر عبد الله بن علي ، ونثر تراب جثثهم في الهواء ، ولم يستثن الا قبر عمر بن عبد العزيز . ولم ينج من الأمويين الا حفيد الخليفة هشام ، وهو عبد الرحمن بن معاوية الذى هرب الى الاندلس ، حيث أنشأ دولة أموية جديدة (٤) كما سنرى فيما بعد — واستصفيت أموال الأمويين وهدمت قصورهم ، وخربت مصانع المياه التي كانوا قد أقاموها حتى لا يبقى لذكرهم أثر .

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٣٣٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٣٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٣٣ .

(٤) انظر ، أخبار مجموعة في فتح الاندلس .

الفصل الثالث

ابتداء الدولة العباسية وبيعة أبي العباس

١٣٢ - ١٣٦هـ / ٧٥٠ - ٧٥٤م

بويع أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالخلافة، في ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ [١]، في الكوفة.

وكان ابراهيم الامام لما حبس بحران، وتوقع نهايته، قد عهد لأخيه أبي العباس، وأوصاه بالقيام بالدولة والجد والحركة، وألا يكون له بعده بالحميمة لبث ولا عرجة حتى يتوجه الى الكوفة ...» [٢].

وخرج أبو العباس ومعه أقاربه من العباسيين فيهم أخوه أبو جعفر (المنصور) وعبد الوهاب ومحمد ابن أخيه وأعمامه: داود وعيسى وصالح واسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علي بن عبد الله بن عباس، وابن عمه داود، وابن أخيه عيسى بن موسى حتى قدموا الكوفة في صفر [٣].

ونستشف من الروايات أن «وزير آل محمد»، وهو أبو سلمة الخلال كانت له نوايا خاصة وأنه كان يميل الى العلويين، فأظهر أنه لم يبايع شخصيا الا ابراهيم الامام، وهذا يفسر كيف أنه أخفى وصول العباسيين الى الكوفة لمدة تزيد على أربعين يوما.

---

(١) انظر، مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ص ١٩٩، وقارن خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ج ٢، ص ٦٠٨ حيث يقول: «وبويع ليلة الجمعة بالكوفة لثلاث عشرة بقيت من ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة. بينما تقول رواية المسعودي في مروج الذهب، ج ٤، ص ٩٤ انه «بويع يوم الاربعاء لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وقيل في النصف من جمادى الآخرة.. أما رواية ابن الاثير، ج ٤، ص ٣٢٢ فتقول أنه بويع بالخلافة في شهر ربيع الأول لثلاث عشرة مضت منه، وقيل في جمادى الأولى

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٩٥.

(٣) انظر، ابن الاثير، ج ٤، ص ٣٢٣، العيون والحدائق، ص ١٩٦.

وحاول في هذه الفترة أن يتصل بالعلويين ، فأرسل رسالتين من نسخة واحدة الى الامام أبي عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب يدعو كل واحد منهما الى القدوم اليه ، ليصرف الدعوة اليه ويأخذ بيعة أهل خراسان له ، ولقد كان جواب جعفر بن محمد احراق الرسالة وأنكر معرفته بأبي سلمة . أما عبد الله فقد شاور جعفر الصادق فحذره الصادق من نتيجة الانقياد وراء الخلال قائلا له : « ومتى كان أهل خراسان شيعة لك ؟ ، أأنت بعثت أبا مسلم الى خراسان ، أأنت أمرته بلبس السواد ؟ » ولكن عبد الله استاء من كلام جعفر واعتبره حسدا منه (١) .

أما الدوافع التي دفعت الخلال للقيام بهذا العمل فمن ذلك خوفه بعد مقتل ابراهيم الامام من انتقاص الأمر وفساده .

ولقد فشلت محاولة الخلال . وأخيرا عرف أحد كبار أتباع أبي مسلم بوجود الخليفة الجديد فذهب اليه ومعه عدد من زعماء الخراسانية والقواد وبايعوا أبا العباس ، وسلموا عليه بالخلافة ، وعزوه في ابراهيم الامام . واضطر أبو سلمة الى الذهاب ومبايعة أبي العباس (٢) .

وفي يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول ، خرج أبو العباس الى دار الامارة ، ومنها ذهب الى المسجد الجامع بالكوفة حيث أخذ البيعة له ، وبعد الخطبة والصلاة صعد المنبر وخطب قائلا : « الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه وكرّمه وشرّفه وعظّمه واختاره لنا فأيده بنا وجعلنا أهله ، وكهفه وحصنه ، والقوّام به ، والذابين عنه ، والناصرين له ، فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته ... جعله من أنفسنا عزيزا عليه ماعنتنا حريصا علينا بالمؤمنين رؤفا رحيما ، ووضعنا من الاسلام وأهله بالموضع الرفيع وأنزل بذلك على

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٢) انظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٧ ، ص ٤٢٣ — ٤٢٤ ، ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه ، " انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " وقال تعالى ، " قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى ... فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا وفضلا علينا والله ذو الفضل العظيم ... وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم بم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ورخص الباطل . أصلح بنا منهم ماكان فاسدا ... فتح الله ذلك منه وبهجة لمحمد صلى الله عليه وسلم . فلما قبضه الله اليه وقام بالأمر بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم حووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها ... ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فأنبذوها وتداولوها فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها بما ملأ الله لهم حينا حتى أسفوه فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض ، ونختم بنا كما افتتح بنا .

ياأهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا فانتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير " (١) .

وأثناء الخطبة تملكته الحمى ، فاضطر أن يقطع أول خطبة له فوق المنبر . ولكن عمه داود بن علي تكلم نيابة عنه ، ومن بين ماقاله في خطبته ، " لقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا وتشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم واستنزالهم بكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم . وذمة العباس رحمه الله علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل

---

(١) انظر ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، طبع دار المعارف ، مصر ١٩٦٦ ، ج ٧ ، ص ٤٢٥ — ٤٢٦ .

فيكم بكتاب الله ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تبا تبا لبني حرب بن أمية ، وبني مروان آثروا في مدتهم العاجلة على الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام وظلموا الأنام ...[1] ثم قال: ياأهل الكوفة انا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أباح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا ... وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ماكنتم تنتظرون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وأداكم على أهل الشام ، ونقل اليكم السلطان وأعز الاسلام ... وان لكل أهل بيت مصرا وأنتم مصرنا ، ألا وأنه ماصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد وأشار بيده الى أبي العباس السفاح ثم قال: " واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس يخرج منها حتى تسلمه الى عيسى بن مريم عليه السلام "[2] .

يتضح من الخطبتان السمات المميزة للعصر الجديد ومنها :

- أن الدعوة العباسية قامت من أجل احلال الاسلام الذى فشل بنو مروان في تطبيق مبادئه .
- وان لبني العباس الحق في الخلافة لأنهم أقرباء الرسول صلى الله عليه وسلم من جهة عم العباس بن عبد المطلب الذى مات بعد موت الرسول .
- تحقيق العدالة للمظلومين والمستضعفين من الناس .
- التأكيد على نقل مركز الثقل السياسي من الشام الى العراق .
- زيادة الأعطيات (أعطيات الجند) الى مائة درهم .
- ولكن الخليفة حذرهم من أية حركة قائلا بأنه الثائر المبير .
- أكد على وضع آل العباس من الاسلام وأهله وأنهم بنو هاشم وأهل البيت .

---

(١) نفس المصدر السابق ، ح ٧ ، ص ٤٢٧ ، ابن الاثير، الكامل، ح ٤، ص ٣٢٥ـ٣٢٦ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ح ٧ ، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨ ، ابن الاثير، الكامل ، ح ٤ ، ص ٣٢٦ .

فند الخليفة رأى السبئية في قولهم بأن الخلافة من حق آل علي وبيّن أنـــر العباسيين في احقاق الحق وازهاق الباطل .

ندد أبو العباس بسياسة الأمويين وظلمهم الناس وكيف أن العباسيين هـــم الذين أدالوا دولتهم وأعلن حلول عهد العدل والاصلاح .

وهكذا قامت الأسرة الخلافية الجديدة وهي أسرة العباسيين بالكوفـــة وأول خلفائها هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

والظاهر أن الخليفة كان يشك في موقف وزيره أبي سلمة الخلال ولذلك نجـد أنه لا يقيم في الكوفة ، ولكن انتقل الى حيث يوجد العسكر العباسي الخراساني الـى حمام أعين ثم بعد ذلك ينتقل الى الحيرة وينزل في الهاشمية العاصمة الجديدة، ثم أنه بعد ذلك تخلص من أبي سلمة الخلال على يدى بعض أتباع أبي مسلم (١) .

وعلى أيام السفاح تم القضاء على مروان بن محمد — كما سبق القول — حدث كل هذا ، وأهل الشام — الذين كانوا يكنون العداء لمروان — يقفون موقف المتفرج علـى نهاية الدولة التي كانوا يدينون لها بكل شيء . هذا ولو أنهم بعد ذلك حاولـــوا القيام برد فعل فنقضوا وخلعوا في بعض المدن مثل : حران وقنسرين ودمشق .

وأهم تلك الثورات ثورة قنسرين ، اذ قامت القيسية بها ، ونادت بأبي محمـد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ودعوا اليه وقالوا : هذا السفياني المنتظر . ولكـــن عبد الله بن علي تمكن من تشتيت شمل الثوار في أواخر سنة ١٣٣ هـ . ووقع أبو محمـد بين أيدى العباسيين وهو يفر الى الحجاز ، وذلك على أيام المنصور (٢)

وعصر أبو العباس لم يبلغ خمس سنوات . وعمل السفاح بمعاونة أخيه أبي جعفر على أن يتقلد الهاشميون مقاليد الأمور في الدولة ، فعهد الى اخوته ، وأبنائه وأبنـاء عمومته ، بالقيادات العسكرية وولايات الأقاليم . كما بدأ سياسة غريبة تهدف الـى

---

(١) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ح ٤ ، ص ٣٣٦ .

(٢) ابن الاثير ، ح ٤ ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

التخلص من كبار الاتباع والعمال الذين يحس بخطورتهم .

الثورات على عهد أبي العباس :

وعلى عهد أبي العباس قامت بعض الثورات في خراسان ، وفي اقليم ماوراء النهر ، ولكن الجيوش العباسية الخراسانية استطاعت أن تقضي عليها بسهولة . وكذلك استطاعت جيوش الدولة ان تحرز انتصارات في المشرق وأن تدفع بحدود الدولة نحو أواسط آسية .

ثورة بخارى :

قام العرب بثورة في مدينة بخارى سنة ١٣٣ هـ وكانت ثورة بخارى هذه خطيرة اذ تزعمها رجل اسمه شريك المهرى من قبيلة مهرة . هذا الرجل كان يؤيد آل البيت في أول الأمر ، ولكنه نقم على السياسة التي انتهجها أبو مسلم عندما توسع في استحلال سفك الدماء ، والعمل بغير الحق ، ورفع شريك راية العصيان ودعا للعلويين ، والتف حوله أكثر من ٣٠ ألف رجل من منطقة بخارى ومنطقة خوارزم ، وأرسل أبو مسلم جيشا لقتال هذا الثائر على رأسه زياد بن صالح الخزاعي ، وعاون ابن صالح ملك بخارى وأخمدت الثورة بكثير من العنف والقسوة ويقال أن المدينة تركت طعمة للنيران لمدة ثلاثة أيام ، كما صلب الأسرى على أبوابها [١] .

وظهر على أطراف الدولة خطر جديد ، ذلك أن الصين بدأت تتدخل في شئون ماوراء النهر . ولكن زياد بن صالح بعد أن قضى على ثورة بخارى استطاع أن يحرز نصرا عظيما على القوات الصينية في وقعة تسمى طراز . وتبالغ الروايات العربية في ذلك النصر فتقول أن المسلمين قتلوا حوالي خمسين ألفا وأسروا نحو عشرين ألفا ، وهرب باقي الجيش الى الصين [٢] .

---

(١) انظر ، النرشخى ، تاريخ بخارى ، ترجمة الدكتور أمين عبد المجيد بدوى ، نصر الله مبشر الطرازى ، طبعة دار المعارف ، مصر ، ص ٩١ — ٩٣ ، ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

(٢) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٤٢ .

واستمرت الصين في سياستها التي تهدف الى مساعدة الحكام الوطنيين ، على الخروج على الحكم العربي . ولكن عامل بلخ الذى عينه أبو مسلم وهو أبا داود خالد بن ابراهيم نجح في قمع ثورة الختل التي فر أميرها الى بلاد الصين ، وكذلك قتل دهقان كش ونسف .

وهكذا استطاع أبو مسلم أن يحرز نجاحا كبيرا في سياسته الخارجية بتأمينه لحدود الدولة الخارجية ، كما نجح في سياسته الداخلية . وهذا النجاح الكبير زاد بطبيعة الحال من هيبة الداعي الهاشمي ، وأثار الخوف في نفوس العباسيين .

خروج زياد بن صالح :

ففي سنة ١٣٥ هـ قامت ثورة في أرض ماوراء النهر ، بقيادة زياد بن صالح ، ومعه سباع بن النعمان الأزدى — وهوالذى كان قدأرسله السفاح الى زياد بن صالح وأمره ان رأى فرصة أن يثب على أبى مسلم فيقتله — وكان أبو مسلم قد عينهما واليين لما وراء النهر . والظاهر أنهما رفعا راية العصيان بتحريض من السفاح ، ولكنهما لم ينجحا في ثورتهما تلك فقتل سباع بمدينة آمل . أما عن زياد بن صالح فقد انفض عنه جنده وهرب الى دهقان قرية باركث فقتله فبعث رأسه الى أبى مسلم (١) .

ولم يكن هذا يعني انتهاء محاولات الخليفة ضد عامله الكبير وذلك أنه ربما فر أبو العباس السفاح بالاتفاق مع أخيه أبى جعفر التخلص من ذلك المنافس الخطير . ولكن المنية وافت أبا العباس فتوفي في ١٣ من ذى الحجة سنة ١٣٦هـ/ يونيه ٧٥٤م وهو في ريعان شبابه في الأنبار وقد راع ضحية الحمى التي ألمت به ، أو في وباء الجدرى (٢) .

---

(١) انظر، الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٧ ، ص ٤٦٦ — ٤٦٧ ، ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٤٤ .

(٢) خليفة، تاريخ خليفة ، ج ٢، ص ٦٢٩ ، أحداث سنة ١٣٦هـ ، وقارن المسعودى، مروج الذهب ، ج ٤، ص ٩٤ حيث يقول: "ومات بالأنبار في مدينته التي ابتناها، وذلك يوم الاحد لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ، ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٤٦ .

القضاء على أبي سلمة الخلال :

كان أبو مسلم شديد الحسد لتزايد نفوذ أبي سلمة في العراق . وتذكر الروايات أنه اقترح على الخليفة التخلص منه . وأنه كتب اليه يقول له : "قد أحل الله لك ياأمير المؤمنين دمه لأنه قد نكث وغيّر وبدل ولكن السفاح رد على ذلك بأنه لا يريد أن يبدأ عهده بقتل رجل من شيعته مثل أبي سلمة لجهوده في نشر الدعوة [1] . كما كلمه أيضا أبو جعفر (المنصور) أخوه وداود بن علي عمه في ذلك . وكان أبو مسلم قد راسلهما وطلب منهما أن يشيرا على السفاح بقتله .

ولكن أبو مسلم كما نستشف من الروايات أرسل جماعة من ثقاته لقتل أبي سلمة ، وانتهز فرصة انصرافه من عند السفاح من الأنبار وليس معه أحد "فوثب عليه أصحاب أبي مسلم فقتلوه وأشيع أن أبا سلمة قتله الخوارج ، وكان مقتله في رجب سنة ١٣٢ هـ [2] .

---

(١) انظر ، المسعودي ، ج ٤ ، ص ١١٥ — ١١٦ .

(٢) انظر ، الجهشياري ، كتاب الوزراء والكتاب ، ص ٩٠ .

الفصل الرابع

خلافة المنصور

١٢٦ - ١٥٨هـ/ ٧٥٤ - ٧٧٥م

بعد أبي العباس تهوأ عرش الخلافة أخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالمنصور بالله .

ويعتبر أبو جعفر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية .

وأول المشاكل التي واجهها المنصور هي أحقية ولايته لعهد أبي العباس اذ تذكر الرواية أنه في سنة ١٣٦ هـ أخذ أبو العباس البيعة بولاية عهد المسلمين وبالخلافة من بعده لأخيه أبي جعفر عبد الله بن محمد ، ومن بعد أبي جعفر ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي ، وأنه جعل العهد في ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته .

رغم كل هذا فان اعتلاءه العرش لم يتم دون نزاع فعندما توفي أبو العباس السفاح ، كان أخوه أبو جعفر أميرا للحج ، وبصحبته أبو مسلم ، وقام بأخذ البيعة لأبي جعفر ، عيسى بن موسى ولي العهد الثاني ، الذي كان واليا للكوفة . وكتب عيسى الى أبي جعفر يعلمه بموت السفاح ، والبيعة له ، كما كتب الى الامصار يطلب البيعة للخليفة الجديد (١) .

ثورة عبد الله بن علي العباس:

وفي ذلك الوقت كان عم الخليفة عبد الله بن علي ، بطل وقعة الزاب ، والذي كان واليا على بلاد الشام ، وكان قد سار على رأس قواته من الشاميين والخرسانية على الصائفة وهو يقصد بيزنطة . وعندما وصله خبر وفاة أبو العباس وولاية المنصور توقف عن

---

(١) انظر ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٧ ، ص ٤٧١ ، انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٤٧ ، وقارن خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ج ٢ ، ص ٢١ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٢٨ .

الفصل الرابع

خلافة المنصور

١٣٦ - ١٥٨هـ/ ٧٥٤ - ٧٧٥م

بعد أبي العباس تهوأ عرش الخلافة أخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالمنصور بالله .

ويعتبر أبو جعفر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية .

وأول المشاكل التي واجهها المنصور هي أحقية ولايته لعهد أبي العباس اذ تذكر الرواية أنه في سنة ١٣٦ هـ أخذ أبو العباس البيعة بولاية عهد المسلمين وبالخلافة من بعده لأخيه أبي جعفر عبد الله بن محمد ، ومن بعد أبي جعفر ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي ، وأنه جعل العهد في ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته .

رغم كل هذا فان اعتلاءه العرش لم يتم دون نزاع فعندما توفي أبو العباس السفاح ، كان أخوه أبو جعفر أميرا للحج ، وبصحبته أبو مسلم ، وقام بأخذ البيعة لأبي جعفر ، عيسى بن موسى ولي العهد الثاني ، الذي كان واليا للكوفة . وكتب عيسى الى أبي جعفر يعلمه بموت السفاح ، والبيعة له ، كما كتب الى الامصار يطلب البيعة للخليفة الجديد (١) .

ثورة عبد الله بن علي العباس:

وفي ذلك الوقت كان عم الخليفة عبد الله بن علي ، بطل وقعة الزاب ، والذي كان واليا على بلاد الشام ، وكان قد سار على رأس قواته من الشاميين والخرسانية على الصائفة وهو يقصد بيزنطة . وعندما وصله خبر وفاة أبو العباس وولاية المنصور توقف عن

---

(١) انظر ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٧ ، ص ٤٧١ ، انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٤٧ ، وقارن خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ج ٢ ، ص ٢٩ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٢٨ .

المسير ودعا قواده ورجاله الى مبايعته ، وكان لا بد أن يبرر موقفه هذا ويظهر أحقيته في المطالبة بالخلافة فقال : "ان السفاح حين أراد أن يوجه الجنود الى مروان بن محمد لم ينتدب غيري وعلى هذا خرجت من عنده" . وهذا يعني أنه كان يرى أن قتال الخليفة الأموي حقا للخليفة الذي سيحل مكانه وان انتداب الخليفة له للقيام بهذا الأمر معناه نيابته عنه وأنه لا يتنازل عن هذه النيابة ولا يعترف بما حدث بعد ذلك من التغيير والتبديل والعهد لغيره . ووقف الى جانب عبد الله عدد من القواد وبايعوه بالفعل . والذي لا شك فيه أن تشجيع أهل الشام ـ عصبية الدولة الأموية ـ كان من الأسباب التي قوت عبد الله وجرأته على الثورة .

سار عبد الله بن علي ونزل حران . وقفل أبو جعفر من الحج ليجد نفسه امام ثورة عمه ولم يجد مفرا من الاستنجاد بأبي مسلم رغم ماكان يكنه له من الحقد ، ورغم ماكان يظهره الخراساني من تعال ، وماكان يشعر به في قرارة نفسه من الأفضال والخدمات الكبيرة التي أداها للدولة حتى أنه غلب على أبي جعفر ، الذي كان أميرا للحج ، "فكان أبو مسلم يكسو الاعراب ، ويصلح الآبار ، والطريق ، وكان الذكر له" (١) .

أمر المنصور أبا مسلم بالمسير لحرب عبد الله بن علي . والظاهر أن عبد الله خشي غدر جنده من الخرسانية ، الذين كانوا يدينون بالطاعة والولاء لأبي مسلم فتخلص منهم وقتل منهم الكثيرين ولم يبق له الا أهل الشام .

سار أبو مسلم الى حران ، وانسحب عبد الله بن علي من حران الى نصيبين وتحصن هناك ، ولم يرد المنصور أن ينفرد أبو مسلم بالقيادة فاستدعى القائد المشهور الحسن بن قحطبة من أرمينية ، وكان واليا عليها وأمره أن يوافي أبو مسلم فلحق به في الموصل . وتقدم أبو مسلم حتى نزل قريبا من عبد الله من ناحية نصيبين . والظاهر أن مراكز أهل الشام كانت حصينة منيعة ، فلجأ أبو مسلم الى خطة سليمة لزحزحتهم عن مراكزهم الاستراتيجية فكتب الى عبد الله بأنه لم يأت لقتاله ، وانما ولي الشام بأمر

---

(١) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٥٠ .

من الخليفة وانه متوجه لتقلد ولايته . وعندئذ حشي أهل الشام من الخرسانيـــة أصحاب أبي مسلم ، على ديارهم وطلبوا أن يسيروا الى بلادهم لحمايتها . وكـــان عبد الله يعلم أن ماأعلنه أبو مسلم لم يكن الا خدعة ، وأنه لا بد أن يناصبه القتال . ولكن أهل الشام لم يقتنعوا بذلك فقرر عبد الله الرحيل معهم نحو الشام . وعندئـــذ تحول أبو مسلم فنزل في معسكر عبد الله بن علي في الموضع الحصين . "وغور ماحولـه من المياه وألقى فيها الجيف " ، واضطر عبد الله والشاميون الى النزول في موضـــع عسكر أبي مسلم . واستمر الصراع بين الفريقين مدة طويلة زادت الى أكثر من خمسة أشهر . وكان أهل الشام أكثر فرسانا ، ورغم حصانة المواقع التي احتلها أبو مسلم ، فان الشاميين ، استطاعوا بعد شهر من المناوشات من توجيه هجمة قوية نحو المعسكر العباسي وتمكنوا من زحزحته عن مواضعه .

وتشير النصوص الى مهارة أبي مسلم في تسيير دفة القتال فقد أقام عريـــش ، كان يجلس عليه فينظر الى رجاله فاذا رأى خللا في بعض صفوفه أرسل الرسل الـــى مختلف القواد لاتخاذ الموقف المناسب .

ولم يستطع أهل الشام أن يستفيدوا من ذلك النجاح المحقق الذى أحـــرزوه . وفي شهر جمادى الثاني سنة ١٣٧ هـ ، دارت المعركة الحاسمة ويتلخص تكتيك هذه الموقعة في أن أبا مسلم أمر الحسن بن قحطبة أن يعبيء الميمنة أكثرها الى الميسرة وأن يترك في الميمنة جماعة أصحابه وأشداءهم ، ولما رأى ذلك أهل الشام كشفـوا ميسرتهم وانضموا الى ميمنتهم بازاء ميسرة أبي مسلم ، وهنا أمر أبو مسلم أهل القلـب والميمنة أن يهجموا على ميسرة أهل الشام . ونجحت هذه الخطة وانهزم أصحـــاب عبد الله وتركوا عسكرهم .

اكتفى أبو مسلم بالانتصار فأعلن الأمان في الناس وأمر بعدم الانتقام من المنهزمين ولما كتب الى المنصور يعلمه بالنصر وبالاستيلاء على معسكر عبد الله أرسل المنصـــور مولاه ليحصي الغنائم . وكان ذلك من الأسباب التي أثارت غضب أبو مسلم ، وعملـت على زيادة الجفوة بينه وبين الخليفة . تقول الرواية ان أبا مسلم قال: "أنـا أميـــن

في الدماء خائن في الأموال "(١)

أما عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد بن علي الذى كان معه ، فلجأ عبد الله الى أخيه سليمان الذى كان واليا على البصرة وتوارى عنده حتى سنة ١٣٩ هـ وعندما عزل سليمان وطلب اليه المنصور أن يبعث بعبد الله بعد أن أمنه ولكنه سجن وانتهى الأمر بقتله فيما بعد (٢) .

ولجأ عبد الصمد الى موسى بن عيسى ولي العهد في الكوفة وطلب اليه الأمان وانتهى هو الآخر نهاية شبيهة بعبد الله (٣) .

وهكذا تغلب المنصور على أولى الصعاب التي اعترضته بعد خلافته وهي ثورة أهل الشام بزعامة عمه عبد الله بن علي وذلك بفضل رجل الدولة أبى مسلم الخراساني الذى لم يلبث أن يلاقي مصرعه بدوره على يدى الخليفة .

مقتل أبى مسلم الخراساني :

مما سبق يتضح لنا أن سلطان أبى مسلم في خراسان كان قد توطد بعد تخلصه من منافسيه من العرب الذين كانوا يتوقون الى تقلد الأمور في ولاية خراسان ، وازدادت سلطة أبو مسلم .

والحقيقة أن النزاع بين أبى جعفر وأبو مسلم يرجع الى سنة ١٣٢ هـ أى الى أوائل أيام السفاح وذلك بعد مقتل أبى سلمة الخلال وعندما أرسل السفاح أخاه أبا جعفر الى أبى مسلم بخراسان ومعه العهد لأبى مسلم بولاية خراسان وبالبيعة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ح ٤ ، ص ٣٥٠ ، وقارن المسعودى ، مروج الذهب ، ح ٤ ، ص ١٣٩ ، حيث يقول : " فبعث اليه المنصور بيقطين بن موسى لقبض الخزائن ، فلما دخل يقطين على أبى مسلم قال : " السلام عليك أيها الأمير ، قال : " لا سلم عليك يا ابن اللخناء ! أوتمن على الدماء ولا أوتمن على الأموال " .

(٢) انظر : ابن الاثير ، ح ٤ ، ص ٣٥٠ ، ح ٥ ، ص ٢٤ ، احداث سنة ١٤٧ هـ ، المسعودى ، مروج الذهب ، ح ٤ ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ح ٤ ، ص ٣٥٠ .

للسفاح ولأبي جعفر من بعده فلم يهتم الزعيم الخراساني بولي العهد أي بأبي جعفر الذي كان يقول لأخيه : "أطعني واقتل أبا مسلم فوالله ان في رأسه لغدرة"(١) .

وحاول أبو العباس التقليل من نفوذ أبي مسلم واغتياله عدة مرات من ذلك ماتقول الرواية من أنه أمره باسقاط من لم يكن من أهل خراسان من جنده ليقلل من نفوذه ، ولكن أبا مسلم أدرك الحيلة (٢) . وتجلت قوة أبي مسلم في نفس الوقت عندما أرسل السفاح عمه عيسى بن علي واليا بفارس ، وتقول الرواية أن عمال أبي مسلم هناك تصدوا له بل وبلغ الأمر أن بعضهم أراد قتل عيسى بن علي ، وعلى ذلك كان من الطبيعي أن يفكر السفاح وأبو جعفر في التخلص من "أمين آل محمد" بعد أن تخلصوا من "وزير آل محمد" وذلك حسب السياسة التي رسمها والتي كانت ترمي الى تأكيد سلطان الهاشميين . ويظن أن السفاح وافق على التخلص من أبي مسلم ، ولكنه عاد وأجل ذلك لفرصة أخرى . وأخيرا في نهاية سنة ١٣٦ هـ طلب أبو مسلم من السفاح أن يوليه امرة الحج وأن يكون نائبه يوم عرفه ولكن السفاح جعله تحت امرة أخيه أبي جعفر الذي أخذ امرة الحج لنفسه ، وحضر من ولايته أرمينية من أجل ذلك . وتأثر أبو مسلم ، وأسرها لأبي جعفر ، وعمد الى الظهور بجانبه . ثم انه عندما وصله نبأ موت السفاح وهم في طريق العودة لم يسارع أبا مسلم ببيعة المنصور الا بعد أن لفت الأخير نظره الى ذلك في كتاب أرسله اليه . وأثناء قتال عبد الله بن علي لاحظ الحسن بن قحطبة أن أبا مسلم كان يهزأ ويستخف بالكتب التي كانت تصله من أمير المؤمنين فكتب بذلك الى الوزير أبو أيوب (٣) . وأخيرا راد التوتر عندما أرسل المنصور مولاه ليحصي الغنائم التي استولى عليها في معسكر أهل الشام .

وأحس المنصور ، بخطورة الرجل وحاول ابعاده عن خراسان معقله وموطن

---

(١) انظر ، العيون والحدائق ، ص ٢١٣ — ٢١٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، ح ٤ ، ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .

(٢) انظر ، الجهشياري ، كتاب الوزراء والكتاب ، ص ٩٤ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ح ٤ ، ص ٣٥٠ .

سلطانه ، فعرض عليه ان يوليه بلاد الشام ومصر ، وطلب اليه ان يسير الى ولايته الجديدة . وشعر ابو مسلم بما يضمره له الخليفة فلم يقبل ماعرض عليه ، وقرر العودة الى ولايته خراسان . ولكن المنصور رغبه ورهبه واتصل بنائب أبي مسلم في خراسان الذى هدد أبا مسلم وجعله يخضع لأوامر الخليفة . وبفضل اغراء بعض أصحابه سار أبو مسلم الى المنصور ليعتذر له عما بدر منه ، وكان المنصور في ذلك الوقت قد سار من الأنبار الى المدائن (ليتنظر مكان العاصمة الجديدة) [١] . وقابل رجال المنصور ، أبا مسلم قبولا حسنا ، وأظهروا له آيات الاجلال والطمأنينة . ثم دخل أبو مسلم على المنصور ، فأقبل عليه الخليفة يعاتبه ، ويعدد له هفواته وسقطاته . واعتذر أبو مسلم عن ذلك ببلا ئه وماكان منه ، وماقام به فكان رد المنصور : "يا ابن الخبيثة والله لو كانت أمة مكانك لاجزأت انما عملت في دولتنا وبريحنا فلو كان ذلك اليك ماقطعت فتيلا" [٢] . وأمر به فقتل تحت ناظريه في ٢٥ شعبان سنة ١٣٧هـ [٣] .

وتقول النصوص أن جعفر بن حنظلة لما نظر الى أبي مسلم مقتولا قال للمنصور : "يا أمير المؤمنين عد من هذا اليوم خلا فتك" [٤] .

وبعد مقتل المنصور لأبي مسلم خطب الناس وحذرهم من الخروج من أنس الطاعة الى وحشة المعصية ويبرر موقفه من الرجل الذى أبلى في سبيلهم أحسن البلاء بقوله : "ولم يمنعنا الحق له من امضاء الحق فيه" [٥] .

الموقف في خراسان عقب مقتل أبي مسلم :

ثورة سنباذ :

لم يمر موت أبي مسلم بسلام وذلك أنه قامت بخراسان ثورة تطالب "بدم أبي

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٥٢ — ٣٥٤ .

(٣) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٥٤ ، وقارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٤٢ اذ يقول : "وكان قتله في شعبان من سنة ست وثلا ثين ومائة ، وفيها كانت بيعة المنصور وهزيمة عبد الله بن علي" .

(٤) نفس المصدر السابق ، ص ٣٥٥ . (٥) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٥٦ .

مسلم " . هذه الحركة تزعمها رجل من احدى قرى مدينة نيسابور ، اسمه " سنبساز " واستجاب لدعوة هذا الرجل التي قالت بعودة أبي مسلم "وأنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملأ الأرض عدلا "(١) كثير من الناس .

واستطاع سنباذ أن يستولي على نيسابور وقومس والري . وأتى بالكثير من أعمال العنف والتخريب والنهب . ولكن جيوش الخليفة تمكنت من هزيمته بين همذان والري وانتهى الأمر بمقتله(٢) .

ولكن هذا لا يعني خضوع خراسان اذ ستظل البلاد أرضا خصبة صالحة لقيام الحركات المعادية للدولة . اذ تقول الرواية أنه في سنة ١٤١ هـ قام الراوندية من أهل خراسان ممن يدينون بأفكار أبي مسلم ويعتقدون بتناسخ الأرواح ، ونادوا بألوهية المنصور . وساروا من خراسان الى الهاشمية . وحاول الخليفة أن يستعمل معهم اللين والسياسة ولكنه لم يوفق في ذلك مما اضطره الى التشدد معهم واستعمال العنف والقوة . فحبس زعماءهم ولكن الأمر تطور الى أن قاموا بثورة هددت المنصور نفسه اذ كسروا السجن وأخرجوا أصحابهم واتجهوا نحو الخليفة الذي أظهر شجاعة نادرة في قتلهم والتنكيل بهم .

وسيظل حزب أبي مسلم هذا قائما وسينضم اليه كثير من أهل البلاد . واتخذ هذا الحزب المناوئ للدولة شعارا مضادا لشعار الدولة الا وهو اللون الأبيض وعلى ذلك أصبحوا يسمون بالمبيضة(٣) .

هذا عن ثورات المشرق ذات الأفكار الخارجة .

كذلك عرفت الدولة بعض الثورات مثل ، ثورة الخوارج في الجزيرة تلك الثورة التي أخمدتها الدولة (٤) .

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٤٤ .

(٢) انظر ، ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٥٧ .

(٣) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٦٥ — ٣٦٦ .

(٤) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٥٨ — ٣٥٩ .

والثورة التي قام بها القائد الذى هزم سنباذ في سنة ١٣٨ هـ وهو جمهور بن مرار العجلي ، هذا الرجل بعد أن هزم سنباذ واستولى على خزائنه ، رفع راية العصيان . ولكن انتهى الأمر بهزيمة جمهور ، ومقتل الكثير من أصحابه . وهرب جمهور الى آذربيجان ولكن أصحابه قتلوه ، وحملوا رأسه الى المنصور (١) .

ثورة عبد الجبار بخراسان :

في سنة ١٤١ هـ قام والي خراسان عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى بثورة ، وسيّر اليه الخليفة ابنه ولي عهده المهدى ، الذى تمكن من القضاء على الثورة بسهولة . ولكن المنصور حرص على ألا يضيع نفقات الحملة التي كان قد جهد في تجهيزها فوجهها الى بلاد طبرستان .

وفي سنة ١٤٢ هـ قام والي السند ، عيينة بن موسى بن كعب ، الذى كان بعيدا في أقصى المشرق بالثورة ، ولكن الدولة استطاعت أن تقضي عليه ، كما أنها أقرت الأمور وقضت على الثورة التي قامت في بلاد الديلم . وهذه الحملات حمت حدود الدولة وصانتها (٢) .

موقف العلويين :

ان العباسيين كما نعرف ـ عندما قاموا بثورتهم انما قاموا بها باسم آل البيت ، وانتقاما وثأرا لمقتل العلويين واستغلوا عطف الناس على العلويين خاصة في بلاد الحجاز . وحين بدأ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس دعوته السرية كان حذرا واستند في ادعائه بالخلافة الى وصية أبى هاشم عبد الله ، كما كان شعار الدعوة الى " الرضا من آل محمد " واستطاع ابنه ابراهيم الامام الذى خلفه في زعامة الدعوة أن يوجه جهوده الى خراسان حيث توجد القبائل العربية المتذمرة من الادارة الأموية . وكللت جهوده بالنجاح الا أنه قتل قبل وصول الشيعة العباسية الى العراق واحتلالها الكوفة .

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

(٢) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٦٨ .

وقد بايع زعماء الدعوة أبا العباس عبد الله بن محمد خليفة للدولة العباسية. وما أن تسلم العباسيون مقاليد السلطة حتى نظروا الى العلويين نظرة ريبة باعتبارهم المنافسين لهم على الخلافة ، ويشكلون مصدر خطر على الدولة الجديدة . أما الشيعة العلويون فقد نظروا الى العباسيين كمغتصبين للسلطة من أصحابها الشرعيين ... وهكذا دخل النزاع حول الخلافة مرحلة جديدة حيث أصبح نزاعا بين الهاشميين أنفسهم . بين العباسيين والعلويين (١) .

على أن العلويين لم يكونوا متحدين أو متفقين على زعامة واحدة تنظم كفاحهم المسلح وغير المسلح تجاه العباسيين . ثم ان كثرة القيادات العلوية يعني بالتالي أن ولاء الشيعة العلوية في تلك الفترة لم يكن باتجاه واحد واضح نحو فرع علوي معين (٢) .

قامت حركة العلويين ضد أسرة بني العباس في المدينة ، وكانت المدينة مركز الأسرة العلوية الكبيرة . وكان المنصور ، يعتقد أن للعلويين سلطانا كبيرا هناك ، ولذلك فهو شديد الحرص على قمع حركتهم وعلى بسط سلطانه على الحرمين بصفته الامام . واجتهد المنصور في طلب مدبري الثورة وهما : محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن الذى يلقب " بالنفس الزكية " (وكان يدعى بالنفس الزكية لزهده ونسكه) كما يقول المسعودى (٣) ، وأخوه ابراهيم . وكانت الدعوة للنفس الزكية . والسبب في مطالبة محمد بن عبد الله بن الحسن بالخلافة أنه كان يرى أحقيته في الملك وذلك من قبل أن يلي المنصور وربما قبل أخيه أبى العباس . وتقول الروايات

---

(١) انظر ، د . فاروق عمر ، بحوث في التاريخ العباسي ، الطبعة الاولى ، بيروت ، لبنان ١٩٧٧ ، ص ٩٣ (موقف العلويين السياسي من العباسيين أولا : الموقف كما تعكسه الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية) .

(٢) نفس المرجع ، ص ٩٣ .

(٣) انظر ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٤٥ .

أن أباسلمة كان قد راسل عبد الله بن الحسن أبو محمد هذا وأنه عرض عليه الخلافة، وأن عبد الله قبلها . وكان يراسل جعفر الصادق ولم يقبلها ولولا تأخر الرسول في العودة لربما انتقلت الامامة فعلا الى الفرع العلوى .

وتقول الرواية أن عبد الله عندما عرض عليه هذا الأمر قال : انما يريد القوم ابني محمد لأنه مهدى هذه الأمة [١] .

وكان محمد النفس الزكية وأخوه ابراهيم قد تخلفا عن الحضور عند المنصور مع من حضر عنده من بني هاشم مع من حج على أيام السفاح . والظاهر أن محمدا ادعى أن المنصور كان قد بايعه في مكة في أواخر أيام مروان بن محمد . وعلى هذا الأساس قام هو بالدعوة لنفسه . وهناك تفصيلات عن مطالبة المنصور لمحمد ولأخيه ابراهيم منذ سنة ١٣٦ هـ الى سنة ١٤٠ هـ حينما أعلن الثورة .

في هذه الفترة تجشم العلويان الكثير من المشاق واضطرا الى التنقل بين البصرة والمدينة والسند والكوفة ، كما أرسل محمد اخوته وأبناءه في سائر الأمصار والبلدان للدعوة له ، فأرسل ابنه عليا الى مصر يدعو اليه ولكنه قتل بها [٢] .

وحاول العلويون أن يدبروا مؤامرة لقتل المنصور في موسم الحج في سنة ١٤٠ هـ ولكن هذه المؤامرة فشلت وراح ضحيتها بعض أصحاب محمد الذى كان قد عاد الى المدينة وتمكن بفضل تساهل واليها من الخروج عنها . وعزل المنصور هذا الوالي وعيّن مكانه محمد بن خالد بن عبد الله القسرى [٣] ، وأمده بالأموال ، وفوض اليه سلطات واسعة في كشف (تفتيش) المدينة ، ولكنه لم ينجح في مهمته . فعيّن المنصور عاملا آخر مكانه اسمه رياح بن عثمان بن حيان المرى [٤] وذلك في سنة ١٤٤ هـ. وجد الوالي الجديد في طلب محمد ولكنه لم ينجح فلجأ الى سجن كل العلويين من

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٤٥ .

(٢) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٧٤ .

(٣) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٧٢ .

(٤) نفس المصدر السابق ، ص ٣٧٣ .

أبناء الحسن من الفرع الحسني وليس من الفرع الحسيني فقيدوا بالحديد والسلاسل وعذب بعضهم بقسوة في حضرة المنصور ، بل وقتل البعض . ويسير بعدد منهم الى الكوفة حيث حبسوا . وازاء هذه الاجراءات التعسفية اضطر محمد أن يضع حدا لهذه المأساة وذلك بأن أعلن الثورة في سنة ١٤٥ هـ . وعلم الوالي بما يدبره محمد فحاول تلافي الثورة ، وحمّل أهل المدينة المسئولية الجماعية . وكان يساند الحركة العلوية من الناحية الشرعية القانونية الفقيه مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي . من ذلك أن مالك بن أنس حلل الناس من البيعة ومن يمين الولاء للمنصور فقال لهم : " انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين " (١) . ولذلك لم يفلح التهديد وتثاور العلويون وكسروا السجن وحرروا أقاربهم ممن كانوا قد سجنوا وتوجهوا الى دار الامارة واستولوا عليها وأسروا الوالي .

وبعد أن استولى محمد على المدينة بدأ في تنظيمها الاداري ، فاستعمل واليا وقاضيا وصاحب بيت السلاح وصاحب الشرط ، وكذلك أنشأ ديوانا للعطاء وسجل في الديوان أسماء أعوانه وأتباعه (٢) .

وبدأ محمد يرسل الولاة الى الأقاليم المختلفة ، لدولته الناشئة ، فأرسل واليا الى مكة هزم واليها العباسي وبعث بآخر الى اليمن ، وثالث الى بلاد الشام . ولكن هذا الأخير لم يستطع أن ينجح في مهمته .

ويمكننا أن ننظر الى اختيار محمد للمدينة كمركز لثورته على أنه عمل لا يدل على بعد النظر السياسي ، والظاهر أن محمد نفسه كان يعرف ذلك اذ تقول الرواية أنه قال في خطبته في المسجد : " ان أحق الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين والأنصار " وقال : " اني والله بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة ولكني اخترتكم لنفسي " (٣) . هذا يعني أن المسألة في نظره كانت مسألة تقليد وسنة لا تقوم

---

(١) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٣ .
(٢) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣ .
(٣) نفس المصدر السابق ، ص ٣ .

على اعتبارات اقتصادية أو بشرية . وهذا لا يكفي بطبيعة الحال لأن الظروف كانت قد تغيرت عما كانت عليه في الفترة الأولى في بداية الاسلام .

وعندما بلغ المنصور خبر الثورة جزع وطلب النصح من كل من يمكنه نصحه رغم علمه بعدم خطورة ثورة محمد في المدينة ، فانه لجأ الى استعمال السياسة والمداراة وكتب الى محمد يطلب اليه العودة الى الطاعة ويعطيه الأمان المطلق له ولأهله ولكل من بايعه مع الوعد بالرزق والعطاء الجزيل ، كما أنه سوغه ماأصاب من دم أو مال . ورد محمد بالرفض بطبيعة الحال .

وهذه المراسلات التي دارت بين المنصور وبين محمد النفس الزكية تبيّن الأساليب الشرعية والجدل الفقهي الذى كان يستند اليه كل من الفريقين . فمحمد يقول : "فان الحق حقنا وانما ادعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم له بشيعتنا ، كما يقول : "ان أبانا عليا كان الوصي وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟" ثم يقول : "وانا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة في الاسلام .

ثم هو بعد ذلك يؤمن المنصور ان دخل في طاعته وأجاب دعوته على نفسه وماله وعلى كل أمر أحدثت الا حدا من حدود الله أو حقا لمسلم أو معاهد فقد علمت مايلزمني من ذلك "(١) .

وهذا الشرط الأخير يدل على صلابة في الرأى فيما يتعلق بالأمور الدينية وهو يدل في نفس الوقت على عدم بعد النظر السياسي . كما أنه يلاحظ أن أمان المنصور لا يعتد به ويذكر بالأمان الذى أعطاه لابن هبيرة ولعمه عبد الله بن علي والأمان الذى أعطي لأبي مسلم .

ولم يكن من العسير على الخليفة العباسي أن يفند ادعاءات العلوى فهو يلفت نظره الى أنه يفخر بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة لأن الله جعل لهم أبا . يحتج أن العباس من أعمام النبي

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٥ .

صلى الله عليه وسلم اسلم تبعا لما تقوله الآية : "وانذر عشيرتك الأقربين ، بينما لم يسلم أبو طالب . ثم هو يفند حقوق علي بن أبي طالب في الخلافة ويدفع بعدم كفاءته فانه رغم سابقته في الاسلام دعا النبي عندما مرض غيره للصلاة بالناس ثم أنه لم ينتخب يوم السقيفة . ولما كان في الستة الذين عينهم عمر تركوه كلهم دفعا له عنها ولم يروا حقا له فيها (١) .

وبعد أن يروى له قصة جهاد العلويين وفشلهم على أيام علي الذى اجتمع الحكمان على خلعه ، وحسن الذى باعها من معاوية وحسين الذى قتل ثم تقتيل الأمويين لهم . ويقول أن العباسيين هم الذين طلبوا ثأرهم وأدركوا بدمائهم وأنه لا يجوز له أن يأخذ ذلك حجة عليهم (٢) .

هذا عن دفع العلويين وتفنيد حججهم ثم هو بعد ذلك يبيّن ادعاءات العباسيين في مطالبتهم بوراثة خلافة النبي فيقول أن العباس كانت له سقاية الحج وولاية زمزم في الجاهلية والاسلام ثم يذكر حقوق العباس التي لا تنازع في هذا الميراث وهو أنه لم يبق من بني عبد المطلب بعد النبي غيره بمعنى أنه يريد أن يجعل الخلافة تركة يرثها أقرب الناس الى النبي وهذه هي وجهة نظر أقارب النبي والشيعة . وهي في الحقيقة بعيدة عن السنّة بعن روح الاسلام .

تلك كانت حجج كل من الفريقين . وكان على القوة أن تقرر لمن تكون الخلافة . وندب المنصور عيسى بن موسى ولي العهد لمحاربة العلوى وأرسل معه ابنه محمدا . واقترب عيسى من المدينة ، واستشار محمد النفس الزكية أتباعه فأشار عليه البعض بالخروج من المدينة ولكنه أخذ برأى القائلين بالمقام ثم أنهم بتفكيرهم المثالي التقليدى الساذج فكروا كما فعل النبي في حفر خندق يحميهم من المهاجمين . هذا مع أن بعضهم لم يغب عنه ضعف هذا الموقف من الناحية العسكرية الاستراتيجية .

---

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٦ .

(٢) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٦ — ٧ .

ولم يكن تأييد أهل المدينة لمحمد قويا ، كما خرج أناس من أهل المدينة بذراريهم وأهليهم الى الاعراض والجبال وبقي محمد في شرذمة يسيرة . وأمر المنصور نائبه ألا يقاتل أهل المدينة الا فيما ندر وأن يتسامح معهم ، ولكنه ألح عليه في القبض على محمد وعدم تمكينه من الهرب وأن يعلن مسئولية جميع القبائل اذا تمكن النفس الزكية من الفرار . وعرف محمد خنوع المدنيين واتخذ معهم بعض الاجراءات العنيفة ولكنه سمح في آخر الأمر لمن يريد الخروج منهم أن يخرج . وحاصر عيسى المدينة وسد منافذها وتمكن جنده من الوصول الى الخندق فردموه وتفرق معظم أتباع محمد النفس الزكية الذى سقط قتيلا بعد قتال شديد وذلك في منتصف رمضان سنة ١٤٥ هـ / كانون أول (ديسمبر) ٧٦٢ م (١) .

ولم يكن للثورة العلوية من رد فعل في المدينة الا اضطراب السودان في البلد الذين استولوا على بعض أمتعة الوالي الجديد ولكن أمرهم انتهى الى الهدوء (٢) .

وهكذا قضى المنصور على محمد النفس الزكية ولكن بقي أخوه ابراهيم الذى خرج في البصرة والتي كانت ثورته أشد خطرا على المنصور .

ثورة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن أخى محمد بالبصرة :

كان ابراهيم يدعو — كما سبق القول — لأخيه محمد ، وأغلب الظن أن الأخوين كانا قد اتفقا على أن يعملا منفصلين ، وذلك حتى تتم المباغتة للدولة وحتى اذا ما انهزم أحدهما نجا الآخر ولو عرف ابراهيم كيف يستغل الظروف ويسير بجيوشه ضد المنصور وقت أن كان المنصور في ضعف نتيجة لانتشار قواته في أطراف الدولة لربما انتهت ثورته في البصرة بالنجاح .

وكما تقول الروايات اتخذ ابراهيم المشرق مجالا لنشاطه وذلك في فارس وكرمان

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٨ — ١١ .

(٢) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ١٣ — ١٤ .

والاهواز وذلك قبل قدومه البصرة واستقراره بها ·

وبدأ ابراهيم حركته في البصرة في شهر رمضان سنة ١٤٥هـ[١] بداية طيبة وكانت الظروف مواتية له اذ تقول رواية خليفة بن خياط ، التي ترجع الى شهود عيان للأحداث أن الوالي سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب سلم دار الامارة الى ابراهيم من غير قتال[٢] · ثم قوى أمره بما استولى عليه من دواب الجند وماأخذه من الأموال بعد الاستيلاء على دار الامارة · واستطاعت طلائع قواته أن تحرز بعض النصر على القوات العباسية فاستولت على الأهواز بعد أن ألحقت الهزيمة بواليها ، كما نجحت في دخول فارس وتمكنت من تملك مدينة واسط ، وهي المركز الاستراتيجي الممتاز في ذلك الوقت·

ولم يكن لدى المنصور ، الا قلة من العسكر ، اذ كانت جيوش الدولة موزعة في الحجاز وفي خراسان وفي افريقية التي كانت مضطربة أيضا · وأحس المنصور بحرج موقفه فأظهر الزهد والتنسك والتقشف · ولكن سرعان ماستعاد رباطة جأشه ، فاستدعى عيسى بن موسى من المدينة وطلب بعض جيوشه التي كانت بالري ، وكتب الى المهدى ابنه يأمره بارسال القوات لاستعادة الأهواز ووجه عيسى بن موسى الى قتال ابراهيم · وطلب أهل الكوفة ، من ابراهيم المسير اليهم ليستعين بهم ، ولكن النصور تقول أنه كان مثاليا فخشي ان خرج أهل الكوفة اليه أن تفتك خيل المنصور بنسائهم وأطفالهم[٣] .

وأخيرا خرج ابراهيم من البصرة للقاء عيسى ونزل في مرضع يعرف باسم" باخمرا" على بعد ١٦ فرسخ من الكوفة · وحسب تقاليد هؤلاء الثوار المثاليين ، وكما حدث في المدينة رفضوا أن يقاتلوا فرقا حتى اذا ماانهزمت فرقة خرجت فرقة غيرها للقتال، وأصروا على أن يقاتلوا صفا مثل أهل الاسلام رغم ماقيل لهم من أن الصف اذا

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ح ٥ ، ص ١٦ ·

(٢) انظر ، تاريخ خليفة بن خياط ، ح ٢ ، ص ٦٤٩ ·

(٣) ابن الاثير ، ح ٥ ، ص ١٥ — ١٨ ·

انهزم تداعى سائره واقتتل الناس قتالا شديدا ، وانتصر أصحاب ابراهيم في البداية ، ولكن الأمر انتهى بهزيمتهم وبمقتل ابراهيم في ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٤٥ هـ[١] . وبذلك اندحرت الثورة العلوية وخلص الأمر للعباسيين .

بنـاء مدينـة بغـداد :

انصرف اهتمام المنصور ، الى تشييد حاضرة جديدة للدولة . وكان قد شرع في ذلك ، عقب توليه الخلافة مباشرة . فتقول النصوص أنه كان يبحث عن موضع مناسب لتلك العاصمة . وكان السفاح قد استقر في الأنبار في الهاشمية وهي التي استقر فيها المنصور في أول عهده . ولما كانت الهاشمية على الضفة اليسرى للفرات فانها كانت قريبة من الكوفة . والكوفة كانت مركز العلويين وهي التي سببت الكثير من القلاقل للدولة الأموية ، ربما كان هذا هو السبب في عدم اختيار ذلك الموضع لبناء العاصمة الكبرى .

وتجمع الروايات على أن المنصور لم يبن مدينته الجديدة في مكان قفر خال من السكان بل ان الكتّاب يذكرون عدد امن الأماكن العامرة بالقرب منها ، ويذكرون من بين هذه الأماكن قرية بغداد على الضفة الغربية لنهر دجلة . وربما كانت

---

(١) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ١٩ ، وقارن خليفة بن خياط ، ج ٢ ، ص ٦٥٠ حيث يذكر أن ابراهيم خرج من البصرة بعد أن استخلف عليها ابنه الحسن بن ابراهيم ونزل باجميرا من سواد الكوفة . هذا بينما يكتبها المسعودى في مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٤٨ ، في شكل " باخمرى " وهو يقول وهو الموضع الذى ذكرته الشعراء ممن رثى ابراهيم فمن ذكر ذلك دعبل بن علي الخزاعي فقال في قصيدة له :

قبور بكوفان وأخرى بطيبة ... وأخرى بفخ نالها سلواتي

وأخرى بأرض الجوزجان محلها ... وقبر بباخمرى لدى العرمات .

هذه القرية نواة عاصمة المنصور المستديرة .

واسم بغداد يعني عطية الله . وتقول النصوص أيضا أن المنصور عندما بناها سماها " مدينة السلام " ، وكان يطلق على المدينة أيضا اسم المنصورية وذلك نسبة الى بانيها وكذلك عرفت باسم الزوراء .

وكان اختيار المنصور لذلك الموضع موفقا وذلك أن ازدهار المنطقة يرجع الى مركزها الممتاز من نواح كثيرة ، فالارض في هذا المكان خصبة جيدة بسبب وقوعها بين دجلة والفرات في ذلك الموضع الذى تضيق فيه المسافة بين النهرين ، فكان يمكن تهيئة وسائل الري فيها بسهولة عن طريق القنوات التي تصل بين النهرين والتي كانت صالحة للملاحة . ووجود هذه القنوات كان يجعل المدينة في موضع استراتيجي حصين فتقول الرواية أنه قيل للمنصور عندما اختار هذا الموضع : " أنت بين أنهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر أو قنطرة فاذا قطعت الجسر وأخربت القنطرة لم يصل اليك ، ودجلة والفرات والصراة خنادق هذه المدينة ، وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل[1] .

ووضع المنصور بيده أول لبنة في بناء المدينة في سنة ١٤٥ هـ وقال : " بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا على بركة الله "[2] .

وبعد تخطيط المدينة ، وبلوغ السور مقدارا تاما ، قام الثورة العلوية في المدينة والبصرة فصرف المنصور كل همه اليها وترك البناء حتى تم له القضاء على النفس الزكية وأخيه ابراهيم .

واستلزم البناء جمع عدد كبير من الصناع والفعلة من مختلف الجهات . وهناك تفصيلات عن العمال ومراتبهم من الأستاذ الى الروزكاري . وأشرف على البناء

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ١٤ (ذكر بناء مدينة بغداد) .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٥ .

وحساب النفقات " قوم من ذوى الفضل والعدالة والفقه وذوى الأمانة والمعرفة بالهندسة " . من هؤلاء الفقيه الشهير أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي "(١).

وقسمت المدينة الى أربعة مناطق تسمى أرباع وذلك تحت اشراف أربعة من القواد يسهرون على العمل الذى استمر طوال أربع سنوات . وخططت المدينة ورسمت حسب خطة جعلتها تتسع في شكل دائرى ، فالنص يقول: " وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس أقرب الى السلطان من بعض "(٢) . وبدئ ببناء قصر الخليفة في وسطها ، والى جانب القصر بني المسجد الجامع . ويفهم من النصوص أن مدينة المدائن القديمة أمدت بغداد بكثير من مواد البناء الكبيرة التي قامت عليها . وحول نواة المدينة أى حول القصر والجامع تجمعت بغداد في شكل دائرى وقسمت الى أحياء منفصلة تخترق هذه الأحياء طرق عريضة مستقيمة ، كان يبلغ عرض الطريق منها ٤٠ ذراعا . واتسعت المدينة وعملت فيها مجارى المياه ، وأقيمت فرقها القناطر وانشئت الصهاريج ، وحصنت المدينة تحصينا قويا حتى تكون الاقامة فيها مأمونة . ثم أحيطت بسورين أحدهما من الداخل والآخر خارجي ، وكان السور الداخلي أعلى من السور الخارجي ، وكانت المنطقة بين السورين تسمى الفصيل . وجعل للمدينة أربعة أبواب المسافة بين كل باب من أبوابها والباب الذى يليه تقدر بميل . من هذه الأبواب باب خراسان ، " وكان يسمى باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان "(٣) ، وهو في الشرق ، وباب الكوفة الذى يسمى أيضا باب الكرخ ، في اتجاه الكوفة وفي اتجاه الحجاز ، وفي الغرب باب الشام ، وفي اتجاه الجنوب باب البصرة ، وهو يوصل الى منطقة الأهواز وفارس وخوزستان . ويقال أن المنصور لم يضع للمدينة أبوابا جديدة ولكنه استجلب لها الأبواب من مدينة واسط ، باستثناء باب الشام الذى صنعه المنصور . وشعر المنصور بضيق قصره وسط المدينة التي تموج

---

(١) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ١٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ح ٤ ، ص ١٣٥ .

بالسكان ، وبنى بعد الانتهاء من المدينة المدورة وخارج أسوارها الشرقية قصرا ثانيا هو قصر الخلد . وحدث شغب بين أهل السوق فاضطر الخليفة أن يخرج أهل الأسواق من المدينة وأن يسكنهم في منطقة الكرخ في الجنوب . وبنى ايضا المنصور الجزء الشرقي من بغداد وأنشأ في هذا المكان الجديد وشمال القصر الذى خصص ليكون معسكرا لولي العهد المهدى قصر " الرصافة " (١) ووزعت الأراضي المحيطة بالمدينة كاقطاعات لأقارب المنصور ولمواليه ولكبار رجال الحاشية .

ومن هذا الوصف يمكن أن نرجع أن المنصور عندما بنى مدينته كان يهدف الى بناء معسكر لجنده الخراسانية بعيدا عن مدينة الكوفة . بمعنى أن نشأة بغداد كانت أشبه ماتكون بنشأة المدن التي بنيت في صدر الاسلام مثل : الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان ، التي أسست لتكون قواعد عسكرية للجند العربي في تلك الأقاليم .

بعض مظاهر نظم الدولة :

وظهرت المدينة الجديدة بمظهر يختلف عن مدينة دمشق حاضرة الأمويين، فالخليفة العباسي ظهر بمظهر الامام أولا وقبل كل شيء . وكلمة الامام عنا لها معنى دينيا أكثر من كلمة الخليفة أو كلمة أمير المؤمنين ، فالامام عنا مشتقة من امامة الصلاة .

وعمل العباسيون على تأكيد صفتهم الدينية عنده فكانوا يرتدون البردة التي كان يلبسها الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذا في الوقت الذى عهدوا فيه بجزء كبير من سلطانهم الزمني الى الوزير . ووظيفة الوزير تعتبر تجديدا عباسيا فيما يتعلق بادارة الدولة ، وذلك أن اللقب لم يعرف عند الأمويين قبل ذلك ، كان اللقب عند الأمويين هو لقب الكاتب (٢) .

وأحاط الخليفة العباسي نفسه بمظاهر الأبهة والعظمة .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢) انظر : الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتّاب ، ص ٢٤ ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

أما عن البلاط العباسي ، فكان يظهر فيه الى جانب أفراد الأسرة وآل النبي صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء كانوا يكوّنون طبقة الأعيان ، الى جانبهم كان يظهر كبار رجال الدولة والموالي ، كما كان هناك القراء والفقهاء والأطباء وعلماء الفلك والشعراء والموسيقيون والمضحكون والخصيان . كل هذا يعني أن خليفة بغداد لم يعد شيخ قبيلة بل أصبح وريث ملوك فارس .

ولم تعد الوظائف الكبيرة في الدولة وقفا على النبلاء بل أصبحت تمنح . وكذلك أصبحت الملابس الرسمية التي تعرف بالخلع هي السمة المميزة لأصحاب الرتب الكبيرة ، وكذلك القفاطين الطويلة التي أمر المنصور كبار موظفيه بلبسها .

واذا كان الأمويون قد عرفوا وظيفة الحاجب وهو الرجل الذى ينظم مقابلات الخليفة ، فان الخليفة العباسي أصبح بعيدا كل البعد عن العامة بفضل عدد كبير من الحجاب والموظفين ورجال الدولة الذين كانوا يزدادون عددا مع مرور الوقت .

والى المنصور يرجع الفضل في وضع نظم الدولة العباسية فقد حافظ على النظام الساساني البيزنطي الذى كان معمولا به على أيام الأمويين . كما أنه جدد بناء هذا التنظيم فأصبح على كل ولاية عامل أو وال ، وكان لأفراد الأسرة نصيب كبير في هذه الولايات .

البريد :

وبفضل نظام البريد الذى عرفه الأمويون والذى توسع فيه المنصور ، استطاع الخليفة أن يفرض رقابة شديدة على ادارة الولايات المختلفة .

وكان على أصحاب البريد أن يقوموا بكل الاستعلامات رغم أن عملهم كان يتركز في امداد الخليفة بالمعلومات المتعلقة بقيام الولاة باداء مهام وظائفهم في أعمالهم . وكانت تقارير أصحاب البريد لها أهمية خاصة نعن طريق هذه التقارير كانت تعرف حالة المحاصيل فتتخذ الاجراءات المناسبة في الوقت المناسب عندما يكون الوقت وقت جدب . وكانت احصاءات أصحاب البريد هذه المصدر الذى استقى منه الجيل التالي علم الجغرافية الذى ازدهر عند العرب .

وتقول النصوص أن المنصور قال : " ماأحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم هم أركان الدولة ، ولا يصح الملك الا بهم . أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فاني عن ظلمها غني ثم عض على اصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة : آه آه قيل : ماهو ياأمير المؤمنين؟ قال : صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة " (١) .

الفقـــــه :

وضم المنصور الى بلاطه كبار الفقهاء وأصحاب المعرفة بعلم الحديث والفقه . وكان تقريب الفقهاء يعني أن الدولة المثالية التي تعتني بنشر العدل والشرع أصبحت حقيقة واقعة .

وفي ذلك الوقت كان مؤسسا المذهبين الكبيرين ألا وهما : المذهب الحنفي والمذهب المالكي على قيد الحياة ، وكانا يميلان الى العلويين . يقال أن أبا حنيفة كان يميل الى ابراهيم بن عبد الله عندما قام بثورته في البصرة .

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت كان من الموالي هذا ولو أن أصحابه وتلاميذه سيضعون له نسبا يرجع الى ملوك آل ساسان .

وعاش أبو حنيفة في الكوفة وكان يشتغل بتجارة الحرير ، وتوفي أبو حنيفة في سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م في بغداد . وكان قد قام بالقاء الدروس في الكوفة وكانت له آراؤه الفقهية وفتاويه . وتتميز مدرسة أبو حنيفة في التوسع في استعمال

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٤٦ .

الـرأى" وكذلك القياس (١) .

أما عن مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي بالمدينة فقد عرف بميلـــه للعلويين أيضا ، والظاهر أنه عوتب وضرب بالسياط لهذا السبب وذلك بعـــد أن فشلت ثورة النفس الزكية . ولكن الخلفاء سيتدرون مالك فيما بعد وسيزوره هارون الرشيد عند ادائه فريضة الحج وذلك قبل موته بقليل . وبينما كان أتباع مالك ينشرون مذهبهم في بلاد المغرب خاصة وفي الأندلس ، دخل الحنفيون في خدمة الدولة وعملوا علـى نشر مذهبهم وخاصة بعد أن شغل أبو يوسف (أحد تلاميذ أبو حنيفة) منصب قاضي القضاة ، فأصبح المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي .

ومدرسة مالك بن أنس مبنية على الأحاديث وذلك بسبب وجوده في مدينـــة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو يهتم بالمتن أكثر من اهتمامه بالاسناد وهو عـلاوة على اتخاذه القرآن والسنّة كأصلين للتشريع يضيف اليهما ماتعارف عليه أهل المدينة أى أنه يرى أن الاجماع هو اجماع أهل المدينة .

فتنـة الموصل سنة ١٥٨ هـ

وبتأسيس العاصمة الجديدة بغداد أصبحت سياسة الدولة شرقية ورغـــم أن

---

(١) " أصل القياس أن يعلم حكم في الشريعة لشيء فيقاس عليه أمر آخر لاتحاد العلة فيهما ، ولكنهم توسعوا في معناه أحيانا فأطلقوه على النظر والبحث عن الدليل في حكم مسألة عرضت لم يرد فيها نص ، وأحيانا يطلقونه على الاجتهاد فيما لا نص فيه ، وبعبارة أخرى جعلوه مرادفا للرأى ، يعنون بالرأى وبالقياس بهذا المعنى أن الفقيه من طول ممارسته للأحكام الشرعية تنطبع في نفسه وجهة الشريعة في النظر الى الأشياء ، وتمرن ملكاته على تعرف العلل ، فيستطيع اذا عرض عليه أمر لم يرد فيه نص أن يرى فيه رأيا قانونيا متأثرا بجو الشريعة التي ينتمي اليها وبأصولها وقواعدها التي انطبعت فيه من طول مزاولتها ، ومن أجل هذا ذموا الرأى الذى يصدر ممن ليس أهلا للاجتهاد ، والرأى الذى لا تسنده أصول الدين" . انظر ، احمد أمين ، ضحى الاسلام ، طبع دار الكتاب العربي ، بيـــروت ، الطبعة العاشرة ، ج ٢ ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

المنصور اهتم اهتماما كبيرا بتأمين وصيانة حدود دولته فعمل على تعقب الخارجين والقضاء عليهم فان هذه السياسة الحازمة لم تمنع قيام الثورات في كثير من الجهات . من ذلك ثورة الخوارج بالموصل سنة ١٥٨ هـ والقلاقل التي أثارها الأكراد بهذه الجهات مما جعل المنصور يستعمل خالد بن برمك على الموصل فقهر خالد المفسدين وكانت له هيبة في نفوس الناس (١) .

ثورة أستاذ سيس :

قامت بخراسان ثورة بقيادة رجل يعرف باسم أستاذ سيس وذلك في سنة ١٥٠ هـ ، وكانت هذه الثورة خطيرة مثلها في ذلك مثل الثورات المذهبية التي قامت بايران . فيقال أن هذا الرجل ادعى النبوة وأن أصحابه أظهروا الفسق وقطع السبيل ، وانضم الى جانب هذا الرجل كثير من الأتباع ، وغلب على عامة خراسان ، واستطاع أن يوقع الهزيمة بعدد من الجيوش العباسية ، ولكن أمره انتهى بالهزيمة بعد أن سبب للدولة متاعب شديدة (٢) .

السياسة الخارجية :

الحرب ضد بيزنطة :

أما عن السياسة الخارجية فانها كانت تتلخص في الصراع الذى أصبح تقليديا بين الاسلام وبين الدولة البيزنطية ، ولقد طال الصراع ضد بيزنطة لمدة زادت على أربع قرون هي التي بدأت بالتوسع الاسلامي وانتهت سنة ١١٩٥ م بالحروب الصليبية . ورغم طول هذه الفترة كانت هذه الحرب سقيمة لم يستطع أحد طرفيها أن يحرز أثناءها انتصارا حاسما . وخلال هذه الفترة عرفت بيزنطة عصرا من القوة على أيام الأباطرة الايسوريين وكان هذا من أسباب رجحان كفة بيزنطة ولكن أتت مسألة النزاع الداخلي في بيزنطة من أجل عبادة الصور ، ثم الاضطرابات التي تلتها

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٤١ — ٤٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٨ — ٢٩ .

فأضعفت من قوة بيزنطة . وهكذا كانت الفرصة مواتية للمنصور في سنة ١٤٩ هـ لكي يوجه هجوما ضد البيزنطيين .

والحقيقة أن الامبراطورية البيزنطية لم تكن مهددة تماما من جانب الخلافة كما أن الخلافة كانت أقل عرضة للخطر من جانب البيزنطيين ولهذا السبب يطلق بعض كتّاب الافرنج على هذه الحرب اسم " حرب العظمة " فهو يرى أن هذه الحرب لم تكن ضرورية ولكن الاسلام كان عليه أن يشعر دولة الكفار بسطوته وهيبته ولهذا كانت تقوم القوات الاسلامية بتلك الحملات التي تعرف باسم " الصوائف والشواتي " وهو يرى أن المصالح الاقتصادية بين بيزنطة وبين الاسلام كانت توجب قيام اتفاق ودي بين الطرفين .

وعلى أية حال كان مجال العمليات العسكرية ضد بيزنطة هي المنطقة المحاذية لجبال طوروس في الشرق وهي المنطقة التي عرفت عند الكتّاب باسم " العواصم " أو " الثغور " ومعناها الحد الذي يفصل بين دولة الاسلام وبين دولة الكفر . خلف هذه المنطقة كانت توجد الممرات والمنافذ في الجبال وكانت هذه الممرات محمية بالقواعد والقلاع ، وهذه القواعد كانت مدنا اغريقية قديمة جددها العرب وأعادوا بناءها وحوّلوها الى حصون . وأهم هذه الحصون ، أدنه وطرطوس والمصيصة وسميساط وملطية ، ومرعش دابق . وخلف هذه القلاع كانت تمتد أقاليم آسية الصغرى وهي أرض الروم . وهذه الأرض كانت هدف القوات الاسلامية خلال الصوائف والشواتي ترهب بها الأعداء وترجع بالسبي والمغانم . أما عن الهدف الحقيقي للجيوش الاسلامية فكان هو عاصمة الدولة البيزنطية . ولكن قوات الاسلام لم تستطع تحقيق الاستيلاء على القسطنطينية .

والذي يلاحظ هو أن الصوائف لم تكن تذهب على أيام المنصور الى بيزنطة الا اذا كان العسكر غير منشغلين في اخماد ثورة ... تقول الرواية في سنة ١٣٧ هـ : لم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباذ " (١) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٥٨ .

ولهذا السبب نجد أنه في السنة التالية يتمكن الامبراطور قسطنطين من أخذ ملطية ويهدم أسوارها ولكن المسلمين استطاعوا أن يستعيدوها وأعادوا بناءها وعمّروها .

وبعد ذلك عقدت معاهدة في سنة ١٣٩ هـ بين المنصور وبين الامبراطور قسطنطين وعلى ذلك فلم تعد الغارات الا في سنة ١٤٦ هـ بعد أن انتهى المنصور من حرب العلويين (١) .

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للمهدى :

اضطر عيسى في سنة ١٤٧ هـ ، أن يحل الناس من البيعة له ، وذلك بعد ضغط شديد من المنصور ، استعمل فيه الكثير من الأساليب العنيفة . وأخذ المنصور البيعة لابنه المهدى بولاية العهد بدلا من عيسى — الذى أصبح يلي المهدى في ولاية العهد — وتقول الرواية أن عيسى قال : " أنا ذا أشهدك أن نسائي طوالق وعبيدي أحرار ومالك في سبيل الله تصرف ذلك فيمن رأيت ياأمير المؤمنين " .

ويقال أن الناس تندروا بعد ذلك بقولهم : " هذا الذى كان غدا فصار بعد غد " (٢) .

وفاة المنصور :

وفي شهر ذى الحجة من سنة ١٥٨ هـ توفي المنصور وكان في طريقه الى الحج بالقرب من مكة .

وكان المنصور كما تصفه الروايات من الحزم وصواب التدبير وحسن السياسة على ماتجاوز كل وصف (٣) . فقد كان يشغل صدر نهاره بالأمر

---

(١) نفس المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٥٩ — ٣٦٠ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٢٢ — ٢٣ .
(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٦٣ .

والنهي ، والولايات والعزل ، وشحن الثغور والأطراف ، وأمن السبل ، والنظر في الخراج والنفقات ، ومصلحة معاش الرعية ... فاذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فاذا صلى العشاء الآخرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف .. وشاور سماره ، فاذا مضى ثلث الليل قام الى فراشه وانصرف سماره ، واذا مضى الثلث الثاني قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في ايوانه[1] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٤٧ .

الفصل الخامس

خلافة المهدى

١٥٨ — ١٦٩هـ/ ٧٧٥ — ٧٨٥م

مات المنصور — كما سبق القول — بالقرب من مكة وهو في طريقه لاداء فريضة الحج ، واحتفل بتأبينه وأخذ البيعة لابنه المهدى .

ويفهم من النصوص أن الذى أخذ البيعة للمهدى هو ابنه موسى (الهادى) وكان من بين الحاضرين عدد من كبار رجال الدولة ، وبعض عمومة الهادى ، بل وتذكر الرواية أن عيسى بن موسى ، ولي العهد الثاني ، كان حاضرا بدوره وكان مترددا ، والنص يقول: " أبى من البيعة " ، ولكنه بايع(١) .

ووصل نبأ وفاة المنصور الى المهدى ، الذى كان ببغداد في منتصف شهر ذى الحجة وأرسلت اليه شارات الملك وهي: بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، والقضيب وخاتم الخلافة .

وفي بغداد تمت البيعة الثانية للخليفة الجديد وهي " بيعة الخاصة " . وأولى المشاكل التي اعترضت المهدى هي ولاية العهد ، فقد كان عيسى بن موسى ، عم ولي العهد الثاني ومر عيسى بن موسى بنفس المحنة التي عرفها في عهد المنصور ، فقد تعرض للاضطهاد والتهديد والترغيب ، ومحاولة اقناعه عن طريق الفقهاء والقضاة خلع نفسه في أوائل سنة ١٦٠ هـ ، وبايع للمهدى ، كما بايع ابنه موسى الهادى بولاية العهد . ثم جلس المهدى في الغد ، وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم ، وخرج الى الجامع ومعه عيسى بن موسى فخطب الناس وأخبرهم بخلع عيسى والبيعة للهادى فأسرع الناس لمبايعته (٢) .

أما عن العلويين فلا تذكر الروايات أنه قام بأعمال عنيفة ضدهم . وكان المهدى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ٥٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ٥٤ — ٥٥ (ذكر خلع عيسى بن موسى وبيعة موسى الهادى) ، أحداث سنة ١٦٠ هـ .

كما تقول الرواية محببا الى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره برد المظالم وكف عن القتل وأمن الخائف وأنصف المظلوم (١) . الا أن المهدى كما يفهم من النصوص استثنى بعض العلويين من التمتع بالعفو ، وهو الحسن بن ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، مما اضطره الى الهرب من سجنه ، وأقلق ذلك الخليفة، ولكن الأمر انتهى بطلب العلوى الأمان من الخليفة فأمنه المهدى ووصله (٢) .

وأطلق المهدى كما تقول الرواية ابني داود بن طهمان ، الذى كان يناصر ابراهيم في البصرة ، وقرّب ابنه يعقوب - بن داود - تقريبا شديدا ، واستوزره وقرّب ابن داود بدوره الزيدية من العلويين ، فجمعهم وولاهم أمور الخلافة في المشرق والمغرب (٣) . وكان ذلك من الأسباب التي دفعت الشاعر بشار بن برد الى أن يقول بيتيه المشهورين :

بني أمية هبوا طال نومكم ... ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الناى والعود (٤)

والظاهر أن الخليفة أدرك خطورة أمر ترك مقاليد أمور الدولة الى وزيره، فتخلص منه ، وسجنه ، وذهب بصره في السجن ، وبقي محبوسا حتى عهد هارون الرشيد ، اذ شفع اليه فيه يحيى بن خالد بن برمك ، فأمر الرشيد باخراجه من سجنه ، وأحسن اليه ورد اليه ماله ، واختار يعقوب الاقامة في مكة فأقام بها حتى مات في سنة ١٨٧ هـ (٥) .

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٦٩ .

(٢) ابن الاثير ، ص ٥١ - ٥٢ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٦٦ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٦٦ ، وقارن الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتّاب ، ص ١٥٩ حيث يورد البيت الثاني على الوجه التالي :

" ضاعت خلافتكم ياقوم فاطلبوا ... خليفة الله بين الزّق والعود " .

(٥) الجهشيارى ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

موقف الخوارج :

كان الخوارج يلجأون كعادتهم الى القيام بأعمال العنف والشدة من ذلك ماتذكره النصوص من قيام ثورة خارجية بخراسان في سنة ١٦٠ هـ تزعمها رجل يعرف باسم يوسف بن ابراهيم ويلقب " بالبرم " وقد قيل أنه كان حروريا ، واستطاع التغلب على بوشنج ومرو الروذ والجوزجان ، ولكن جيوش الخليفة استطاعت القضاء على الثوار والقبض على يوسف هذا الذى سيق الى الرصافة حيث جرّس ثم قطعت يداه ورجلاه وقتل هو وأصحابه وصلبوا على الجسر(١) .

وفي أواخر هذه السنة قامت ثورة خارجية أخرى بنواحي الموصل ، ينفرد بذكر تفصيلات دقيقة عنها خليفة بن خياط في تاريخه ، كما ينفرد بايراد نص الرسائل المتبادلة بين الثائر الخارجي عبد السلام اليشكري والخليفة المهدى(٢) . وقد سببت حركة اليشكري - الذى استولى على معظم ديار ربيعة - الكثير من المتاعب للدولة ، وذلك قبل أن يقضى عليها ويقتل زعيمها .

الحركات المذهبية :

حركة المقنع :

أما عن الحركات المذهبية التي اشتهرت بها خراسان منذ مقتل أبى مسلم فانها انتجت على أيام المهدى ثورة كبيرة قام بها رجل يعرفه الكتّاب بلقب " المقنع " وهذا الرجل كان يؤمن بالتناسخ ، واسم هذا الرجل هاشم ، وهو من مرو الروذ واعتنق هاشم فكرة التناسخ والحلول فقال : " ان الله خلق آدم فتحول في صورته ، ثم في صورة نوح وهلم جرا الى أبى مسلم الخراساني ثم تحول الى هاشم .. وكان هذا يعني أن روح الله قد تقمصته وعلى ذلك يقول بعض الكتّاب أنه ادعى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ٥٤ .

(٢) انظر ، خليفة ، تاريخ خليفة ، ح ٢ ، ص ٧٠٠ - ٧٠٤ .

الالوهية . وبدأت الدعوة التي قام بها المقنع في منطقة كش ونسف — من أرض ماوراء النهر — والتف حوله جمع كثير ، وأيده أعداء الدولة من أتباع مذهب أبي مسلم الذين عرفوا بالمبيضة ببخارى والصغد ، وساعد على نجاح هذه الثورة قيام الثورة الخارجية في خراسان (ثورة البرم) ، وكذلك اعانة الترك الذين استنجد بهم ، فتمكن المقنع من السيطرة على الاقليم في وقت قليل ، كما استطاع أن يحقق عددا من الانتصارات على قوات الخلافة التي سارت ضده . وكان الرجل يظهر أمام الناس مرتديا قناعا ، هذا القناع منسوج بخيوط الذهب حتى يبهر الأبصار عن طريق اشراق الأنوار الالهية كما كان يدعي . وتقول النصوص أن أتباعه كانوا يسجدون له ، ولهذا السبب عرف بالمقنع . وربما كان السبب في ارتدائه ذلك القناع ، هو محاولته اخفاء تشويه وجهه . اذ تقول الرواية : " انه كان أعور " (١) .

وبعد عدة حملات كللت بالظفر ، استطاعت الجيوش العباسية هزيمة الثوار في منطقة بخارى بعد أن ضيقوا عليهم الخناق وحاصروهم حوالي أربعة أشهر ، ولكن المنهزمين لم يستسلموا اذ لحقوا بالقوات الرئيسية للمقنع (٢) ، وطالت المناوشات طوال سنة ١٦٠ هـ دون جدوى ، وفي السنة التالية وهي سنة ١٦١ هـ تجمعت قوات الخلافة وتقدمت نحو الثائر ، وشددت عليه الحصار حتى اضطر كثير من أتباعه الى الاستسلام وذلك بعد أخذ الأمان سرا منه ، وبقي المقنع في قلة من أصحابه زهاء ألفين ، وعندما أيقن بالهلاك اضطر الى القاء نفسه هو وأهله ونسائه وخواصه في النار وذلك بعد أن أحرق كل مافي قلعته " من دابة وثوب وغير ذلك " ، وتقول الرواية أنه قال : " من أحب أن يرتفع معي الى السماء فليلق نفسه معي في هذه النار " (٣) .

ورغم القضاء على الفتنة ، وقتل أمير بخارى ، فان ذلك المذهب ظل باقيا

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٥٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٨ .

في كش وبعض قرى بخارى . ونهاية هاشم الغريبة هذه كانت سببا في افتتان من بقي من أصحابه كما تقول النصوص (١) .

وتقول النصوص أن المهدى "جد في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم" (٢) كما تقول الرواية أنه قال لولي عهده الهادى وقد قدم اليه زنديقا فقتله وأمر بصلبه : "يابني اذا صار الامر اليك فتجرد لهذه العصابة — يعني أصحاب مانى — فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش ، والزهد في الدنيا ، والعمل للآخرة ، ثم تخرجهما من هذا الى تحريم اللحوم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا ، ثم تخرجها الى عبادة اثنين ، أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاغتسال بالبول ، وسرقة الاطفال من المهد لينقذوهم من ظلال الظلمة الى هداية النور . فارفع فيها الخشب وجرد السيف فيها وتقرب بأمرها الى الله" (٣) .

وفي سنة ١٦٦ هـ قتل الشاعر الأعمى بشار بن برد بتهمة الزندقة ، الى جانب أنه كان هجاء ولم يسلم من هجائه الخليفة نفسه (٤) .

وحوالي ذلك الوقت عهد المهدى بالتفتيش على الزنادقة الى موظف خاص يعرف باسم "المتولي لأمر الزنادقة" أو صاحب الزنادقة . وتذكر الرواية أن أول من تقلد هذا المنصب الجديد هو عمر الكلواذاني (٥) ، الذى توفي سنة ١٦٨ هـ فولى مكانه محمد بن عيسى بن حمدويه ، الذى كان عنيفا "فقتل من الزنادقة خلقا كثيرا" (٦) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٥٨ .

(٢) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٦٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٨١ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٦٨ ، انظر ، الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب ، ص ١٥٨ .

(٥) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٦٩ .

(٦) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

ولا شك في أن تهمة الزندقة هذه كانت تحقق للخليفة ولعماله هدفين في وقت واحد ، أول هذين الهدفين هو التخلص من الاعداء السياسيين . والثاني كسب حب الشعب . وهناك نصوص نستشف منها ذلك فعندما يود الخليفة التخلص من وزيره يرميه بالزندقة ، وتذكر الرواية أن المهدى عندما تجهز لغزو الروم في سنة ١٦٣ هـ ، أرسل وهو بحلب — فجمع من بتلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين (١) .

ونهج خلفاء المهدى نفس السياسة ، فوجهوا تهمة الزندقة الى كل من أرادوا التخلص منه بل والى كل أصحاب الآراء التي لا ترضي الخليفة .

أما عهد المهدى فهو عهد ازدهار ورخاء . وقد قصد بابه الشعراء فأكرمهم وأغدق عليهم . ويرجع الفضل الى المهدى في انشاء شبكة من الطرق ، وكذلك تحسين نظام البريد . وعلى أيام المهدى غدت مدينة بغداد المحطة الرئيسية لتجارة الهند ، وبفضل اهتمام الخليفة ازدهرت الصناعة . واهتم المهدى اهتماما خاصا كما تقول النصوص بالحرمين ، فأمر ببناء المحطات للقوافل على طول الطريق الى مكة ، وأمر ببناء المصانع (الصهاريج) لخزن المياه ، وحفر الآبار ، وقلد هذا العمل لموظف خاص أطلق عليه "صاحب المصانع" (٢) . كما أمر المهدى كما تقول الرواية في سنة ١٦٧ هـ باقامة البريد بين مكة والمدينة وكذلك بينهما وبين اليمن "ولم يكن هنالك بريد قبل ذلك" (٣) . وعلى أيامه جددت كسوة الكعبة ، كما أمر بالزيادة في المسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم (سنة ١٦٧ هـ) فدخلت فيه دور كثيرة (٤) .

---

(١) ابن الاثير ، ح ٥ ، ص ٦٣ .

(٢) انظر ، ابن الاثير ، ح ٥ ، ص ٦٠ ، ص ٦٤ حيث تقول الرواية أن المهدى سار للحج ، فلما بلغ العقبة ورأى قلة الماء خاف ... ولحق الناس عطش شديد حتى كادوا يهلكون ، وغضب المهدى على يقطين لانه صاحب المصانع" .

(٣) انظر ، ابن الاثير ، ص ٦٨ .

(٤) ابن الاثير ، ح ٥ ، ص ٥٧ ، ص ٦٩ .

وعلى عهده أيضا تم بناء مسجد الرصافة وسورها وخندقها ، كما زاد في مسجدى البصرة والموصل (١) .

وتنسب اليه النصوص أنه وضع في سنة ١٦٢ هـ ديوان الأزمة كما "أجرى على المجذمين وأهل السجون الأرزاق في جميع الآفاق" (٢) .

السياسة نحو بيزنطة :

وكانت سياسة المهدى ازاء بيزنطة ، نفس السياسة التقليدية للدولة العربية الاسلامية . وينسب للمهدى تجهيز حملات قوية ضد بيزنطة ولكنها لم تحرز انتصارات حاسمة .

ففي سنة ١٦٣ هـ تذكر الرواية أن المهدى تجهز بنفسه وأعد عدة عظيمة ، وجمع الاجناد من خراسان وغيرها ، وخرج على رأس قوات كبيرة ، وكان بصحبته ابنه هرون (الرشيد) ، بينما استخلف على بغداد ابنه موسى (الهادى) ، وسار الى الموصل والجزيرة ، ومن هناك عبر الفرات الى حلب ، ثم رافق ابنه هرون حتى جار الدرب (أى الممر) المؤدى الى أرض الروم ، وهناك ودعه وعاد أدراجه ليزور بيت المقدس (٣) .

وسار الرشيد بأرض العدو وكان بصحبته عدد من كبار القواد منهم ، عيسى بن موسى والحسن بن قحطبة ، كما كانت أمانة الحملة من أمور العساكر والنفقات والكتابة موكولة الى يحيى بن خالد الذى كان كاتب الرشيد . وأغلب الظن أن هذه الحملة لم تأت بنتائج كبيرة وذلك أنها تمكنت من فتح أحد الحصون فقط بعد حصار استمر أكثر من شهر ، وفي سنة ١٦٤ هـ أى السنة التالية ردت بيزنطة بأن تقدم

---

(١) ابن الاثير ، ح ٥ ، ص ٦٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٣ .

البطريق ميخائيل وتحدى الصائفة الاسلامية التي اضطرت الى الانسحاب وسادت مما أثار سخط المهدى على قائد الصائفة حتى أنه رغب في قتله [١] .

وترتب على ذلك أنه في سنة ١٦٥ هـ سيّر المهدى ابنه هرون (الرشيد) على راس حملة عظيمة بلغت حوالي ٩٥ ألف رجل كما تقول الرواية [٢] . والظاهر أنها لاقت نجاحا اذ أن القائد البيزنطي اضطر الى الانسحاب أمام هرون الذى توغل هو والخرسانية في أرض الروم الى أن وصلوا الى خليج البوسفور . وخافت ايرين (امرأة اليون كما يقول ابن الاثير) الوسية على ابنها قسطنطين السادس واضطرت الى عقد الصلح أو الهدنة لمدة ثلاث سنوات على أن تدفع الجزية السنوية . وسينقض البيزنطيون هذه الهدنة قبل حلول أجلها وذلك في أواخر سنة ١٦٨ هـ أى قبل وفاة المهدى [٣] .

أما عن موقف المهدى ازاء المغرب والأندلس فسنراه بتفصيل فيما بعد .

أما من جهة المشرق فتقول النصوص أن المهدى اهتم بالمشرق حتى بلاد الهند ، وذلك أنه أرسل حملة بحرية الى هذه البلاد في سنة ١٦٩ هـ وكانت هذه الحملة تحوى كثيرا من الجند النظامي والمتطوعة ، وهاجمت هذه الحملة احدى المدن الساحلية الهندية ، وخربت معبد المدينة البوذى "البد" ، وأخذت المدينة ، وعاد المسلمون محملين بالأسرى والمغانم ولكن الحملة انتهت نهاية أليمة قرب ساحل فارس اذ عصفت بها الرياح فتكسرت معظم المراكب [٤] .

موت المهدى :

وفي سنة ١٦٩ هـ مات المهدى ، بعد خلافة دامت عشر سنين ، وترك الخلافة لابنه موسى الذى تلقب بالهادى [٥] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ٦٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(٣) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ٦٥ .

(٤) نفس المصدر السابق ، ص ٥٥ .

(٥) نفس المصدر السابق ، ص ٧١ .

الفصل السادس

خلافة الهادى

١٦٩ — ١٧٠هـ/ ٧٨٥ — ٧٨٦م

بويع لموسى (الهادى) بالخلافة ، في بغداد في نفس اليوم الذى مات فيه المهدى ، وكان مقيما بجرجان ، يحارب أهل طبرستان ، "وكتب الرشيد الى الآفاق بوفاة المهدى وأخذ البيعة للهادى [١] . ونستشف من الروايات قيام نزاع خفي بين ابني المهدى وهما ، موسى (الهادى) الذى تنازل له عيسى بن موسى (الذى مات سنة ١٦٧ هـ) [٢] عن ولاية العهد ، وهارون الرشيد ، الذى أخذت له البيعة كولي ثان للعهد في سنة ١٦٦ هـ [٣] . والذى كانت أمه الخيزران تهتم بشئون الحكم منذ عهد زوجها المهدى . وأغلب الظن أنه مما ساعد على دقة الموقف أن المهدى أشرك الأخوين في الحكم على أيامه فعهد بمشرق الدولة الى ولي العهد موسى كما عهد بمغربها الى ولي العهد الثاني هارون وكان لكل منهما ديوانه الخاص . ففي سنة ١٦٣ هـ ولى المهدى هرون الرشيد المغرب كله من الأنبار حتى افريقية ، وأضاف الى ذلك اذربيجان وأرمينية ، وجعل لهارون كاتب على الخراج هو ثابت بن موسى ، وعلى ديوان رسائله يحيى بن خالد بن برمك [٤] . وزاد في حزن الموقف أن المهدى كما تقول الروايات مال في آخر أيامه الى عزل ابنه موسى الهادى والبيعة للرشيد بولاية العهد وتقديمه عليه ، ويقال أن المهدى مات وهو خارج للهادى وهو بمنطقة جرجان ليخلعه بعد أن بعث اليه في القدوم عليه لهذا الغرض وامتنع الهادى . ولهذا تحاول بعض الروايات أن تفسر موت المهدى فتقول أنه لم يمت ميتة طبيعية وأنه مات في حالة صيد ،

---

(١) ابن الاثير ، ح ٥ ، ص ٧٣ — ٧٤

(٢) ابن الاثير ، ح ٥ ، ص ٦٩ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٤) نفس المصدر السابق ، ص ٦٣ .

أو مات مسموما[١] .

ولن تطول خلافة الهادى اكثر من سنة وثلاثة أشهر ، أرقته (شغلته) فيها مسألة ولاية العهد ، وذلك أن الهادى شعر بخطر أخيه هارون الذى كانت تؤيده أمه الخيزران ، وكانت تتدخل في شئون الحكم ، فعمل على الحد من سلطانها ، كما حاول أن يحمل الرشيد على التنازل عن ولاية العهد وبدأ يتخذ اجراءات مشددة ضد أخيه ، وسلبه امتيازاته كولي للعهد فالنص يقول : "وأمر — الهادى — أن لايسار بين يدى هرون بالحربة فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه"[٢] .

ونستبين من النصوص أن الرشيد كان مستعدا للتنازل عن ولاية العهد لابن أخيه جعفر وربما تم ذلك لولا صغر سن ابن الهادى ونصح يحيى بن خالد بن برمك للرشيد بعدم الاستجابة لطلب أخيه الخليفة ، وعرف الهادى تأثير يحيى على الرشيد "فبعث اليه وتهدده ورماه بالكفر" ولكن ابن برمك تمكن من اقناع الخليفة بترك هذه المسألة بعض الوقت ، ونصحه بألا يحمل الناس على نكث الايمان — أى حنث الايمان أى تحللهم من البيعة — وبيّن له ان ابنه جعفر لم يزل صغيرا وسأله "أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر — وهو لم يبلغ الحنث — أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ثم رغبه في أن يكون ابنه ولي العهد الثاني[٣] .

ثورة الحسين بن علي بالمدينة :

أما عن العلويين ، فانهم قاموا بالثورة في المدينة ومكة — وستغشل هذه الثورة في الحجاز ، كما فشلت سابقتها من قبل ، ولكنها ستنجح في بلاد المغرب الاقصى . وتزعم هذه الثورة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى

(١) ابن الاثير ، ح ٥ ، ص ٧١ .

(٢) انظر، ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ٧٩ (عن الحد من نفوذ أمه) ، ص ٧٧ .

(٣) ابن الاثير ، ح ٥ ، ص ٧٧ — ٧٨ .

طالب المعروف بقتيل فخ عند مكة .

أما عن سبب اشتعال الثورة فهو ان والي المدينة وهو حفيد عمر بن الخطاب ـ اسمه عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ أقام الحد على أحد العلويين الذي يعرف باسم الزفت وذلك لشربه النبيذ . واحتج العلوي وهو الحسين بن علي على عقاب المتهمين ، وقال للوالي ان أهل العراق لا يرون به بأسا ، وكفل الحسين بن علي الثائر أبا الزفت (أي ضمنه) ، ولكن أبا الزفت تغيب عن العرض الذي كان يجب عليه أن يحضره ، وكان في هذا حرج للضامن ، الذي لم يجد سوى الثورة ردا على اهانات الوالي ، وجاء العلويون صباحا الى المسجد ، فبايعوا الحسين على كتاب الله وسنّة نبيه للمرتضى من آل محمد" . وتمكن الثوار من هزيمة الوالي ونهبوا بيت المال ، الا أن أهل المدينة لم يجيبوهم فخرجوا بعد أحد عشر يوما . وذهب الحسين الى مكة ، وتمكن من ضم كثير من العبيد حوله وذلك بعد أن أعلن تحريرهم . وكان في مكة كثير من العباسيين ، وكان معهم الوالي والسلاح ، فاجتمع العباسيون بذي طوى" ، وقادهم محمد بن سليمان بن علي والي البصرة وقاتلوا العلويين وتمكنوا من الحاق الهزيمة بهم ، وقتل المطالب بالخلافة ، وتمكن كثير من الثوار من النجاة باختلاطهم بالحجاج . وتمكن أحد العلويين وهو ادريس بن عبد الله من الهرب الى مصر وهناك حمله صاحب البريد الذي كان يتتبع الى بلاد المغرب ، حيث وصل الى مدينة "وليلى" في منطقة طنجة وهناك استجاب له بربر أوربة وكوّن دولة الأدارسة وبنى مدينة فاس التي ستصبح عاصمة المغرب الاقصى [1] .

الخوارج :

أما عن الخوارج فانهم ثاروا بالجزيرة ، وهزموا الوالي قرب الموصل ، ولم يقض عليهم الا بعد أن قتل زعيمهم غيلة [2]

(١) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٧٤ ـ ٧٦ .

(٢) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٧٧ .

الزنادقـــــة :

أمـا عن الزنادقـة فتقول الروايـة أن المهدى أوصى الهـادى بمحاربتهم دون شفقـة وأنـه كان قـد أمـر باعداد ألف جـذع لصلبهـم ، ولكـن المـوت لم يمهله [١] اذ خرج الى الموصل وعاد منهـا شديد المـرض ، والظاهـر أنـه لم يمت ميتـة طبيعيـة بسبـب معاودتـه التفكير في خلع أخيـه هـــــرون من ولايـة العهـد . وهنـاك روايـات يستشف منها أن الخيـزران هي التـــي دبـرت موتـه [٢] .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ٨١ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٧٨ ــ ٧٩ .

الفصل السابع

خلافة الرشيد

١٧٠-١٩٣هـ/ ٨٧٦-٨٠٩م

بويع لهرون الرشيد بالخلافة في الليلة التي مات فيها الهادى . واستمر حكم هرون الرشيد حوالي ٢٣ عاما شهدت الدولة العباسية خلالها أوج مجدها وعظمتها .

وفي السنوات الاولى من حكم هارون تركت أمور الدولة لوزير الخليفة يحيى بن خالد . ويحيى هذا كان واقعا تحت تأثير الخيزران أم الخليفة التي ماتت في أواخر سنة ١٧٣ هـ .

وعلى أيام المهدى قام يحيى بن خالد بن برمك بولاية آذربيجان ثم أنه استدعي الى بغداد ، وعندما عيّن الرشيد واليا للولايات الغربية من الدولة بالاضافة الى أرمينية واذربيجان كان يحيى بن خالد على ديوانه . وظل يحيى مخلصا للرشيد فنصحه بعدم التنازل عن ولاية العهد عندما حاول الهادى أن يرغمه على ذلك، وربما لقي يحيى بعض العنت في هذا السبيل فتقول بعض الروايات أنه سجن بعض الوقت وأن الهادى كان يفكر في قتله [1] . وقد اعترف له الرشيد بوفائه فأخرجه من الحبس واستوزره ، وأدار يحيى مقاليد الأمور في الدولة بالاشتراك مع ابنيه الفضل وجعفر من ١٧٠ - ١٨٧ هـ .

وبينما كان الفضل يلي الولايات الشرقية تمكن من تحقيق أعمال عسكرية كبيرة فأخضع الديلم ، وغزا ماوراء النهر وبلغ نفوذه هناك حتى منطقة أشروسنة . وكذلك حقق الفضل أعمالا سلمية هامة فاليه ينسب بناء المساجد والرباطات الكثيرة في اقليم خراسان [2] .

وفي نفس الوقت كان أخوه جعفر ببغداد مقربا الى الخليفة تاركا الولايات التي

---

(١) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٢ ، ص ٩٩ .

كانت تابعة له لنوابه وكان يستفيد من غلاتها فقط . ولكن صداقته للخليفة انتهت . وهناك عدة روايات تبيّن الاسباب التي أدت الى حنق الخليفة عليه آخرها قصة حريم فتقول النصوص أنه لم يحترم الزواج الصوري الذي كان عقده الخليفة له على أخته العباسة وذلك لكي يتمتع الرشيد بحضورهما (١) .

ومنذ سنة ١٧٣ هـ وعند وفاة أم الخليفة أعفي جعفر من حمل الخاتم الذي كان يحمله حتى ذلك الوقت ، وعهد به وكذلك ببعض شئون الدولة الى الفضل بن الربيع (٢) .

وفي سنة ١٨٧ هـ عندما قفل الرشيد من اداء فريضة الحج وكان حريصا على القيام بها باستمرار قتل جعفر في أول صفر ، وكان جعفر يبلغ من العمر حوالي ٣٧ عاما ، وعرض رأسه على الجسر الأوسط ببغداد ، كما عرض نصفي جسده على الجسرين الآخرين حتى أمر باحراقهما فيما بعد سنة ١٨٩ هـ (٣) .

أما عن والده واخوته فانه قبض عليهم وصودرت أملاكهم وأموالهم وسينتهي الأمر بيحيى في أن يموت محبوسا سنة ١٩٠ هـ وله من العمر ٧٠ عاما وسيتوفى الفضل في سنة ١٩٣ هـ وله من العمر ٤٥ عاما (٤) .

الاحوال الداخلية في الدولة :

لم تنقطع الاضطرابات الداخلية في الدولة على أيام هارون الرشيد كما نستبين من الروايات ، فقد سرت هذه الاضطرابات في دمشق والموصل والجزيرة وحتى مصر أيضا . واشترك فيها العلويون والخوارج جميعا .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ١١٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٨٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٥ — ١١٦ ، ص ١٢١ .

(٤) انظره ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ١٢٤ ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .

الفتنة بدمشق :

ففي سنة ١٧٦ هـ قامت الفتنة في دمشق بين العصبيتين المضرية واليمنية وساد البلاد الفوضى نحو سنتين . ووقع بين العصبيتين معارك سقط فيها كثير من الناس . ورغم عزل والي دمشق عبد الصمد بن علي واستعمال عامل جديد هو ابراهيم بن صالح بن علي فان الفتنة لم تخمد بل زادها الوالي الجديد تأججا اذ أنه وقف الى جانب اليمنية ضد أعدائهم وانتصر القيسية على اليمنية ونهبوا مواضعهم قرب دمشق بل واستولوا على دمشق . وعندئذ اضطرت اليمنية الى طلب الأمان ، وأراد ابن الوالي أن ينتقم من الثوار فكان ذلك نذيرا بتجدد المعارك ، ولم يقف القتال الا عند وصول قائد الرشيد الذى قبلت القيسية طاعته .

ولم يستمر الهدوء طويلا اذ يوجد في حوليات سنة ١٨٠ هـ ذكر لمسير جعفر بن يحيى بن خالد الى الشام بنفسه . ومعه القواد والعساكر والسلاح والأموال وذلك " للعصبية التي بها " فتمكن من تسكين الفتنة " وأطفأ الثائرة وعاد الناس الى الأمن والسكون " (١) .

الفتنة بالموصل :

وشهدت الموصل الكثير من الثورات منها ثورة سنة ١٧٧ هـ ، التي تزعمها رجل من الأزد تمكن من السيطرة على الناحية وجبي خراجها مدة سنتين حتى خرج اليه الرشيد بنفسه ، وهدم سور المدينة وأقسم ليقتلن من لقي من أهلها لولا أن أفتاه القاضي أبو يوسف ومنعه من ذلك ، ولم يتمكن الرشيد من القبض على الثائر ، الذى فر الى أرمينية . واستعمل الرشيد على المدينة وال أساء فهم السيرة وظلمهم وطالبهم بخراج سنين مضت فهاجر أكثر أهل البلد عنها (٢) .

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٩١ — ٩٣ ، ص ١٠٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٩٦ ، ص ١٠٣ .

خراســـان :

أما عن بلاد خراسان فانه الى جانب الثورات الخارجية التي عرفتها شهـدت أيضا حدوث اضطرابات وفتن منها ثورة قام بها رجل يعرف بابن الخصيب وذلـــك بمدينة نسا في سنة ١٨٣ هـ وأتعب هذا الرجل والي خراسان وهو علي بن عيسى بن ماهان تعبا شديدا وذلك أنه بعد أن طلب الأمان عاد ونقض وغدر بابن الوالي وتغلب على ابيورد وطوس ونيسابور ، وحاصر مدينة مرو ولكنه عجز عن أخذها . واضطر عيسى بن ماهان الى المسير اليه في سنة ١٨٦ هـ الى نسا " فقتله وسبى نساءه وذراريه واستقامت خراسان" (١) .

والظاهر أن الخليفة — كما نستبين من النصوص — كان مسئولا الى حد كبير عن اضطراب بلاد خراسان وذلك أن الوالي علي بن عيسى استغل البلاد استغلالا سيئا وكتب كبراء أهل البلاد وأشرافها الى الرشيد في سنة ١٨٩ هـ يشكون سوء سيرة ابن ماهان " وظلمه واستخفافه بهم وأخذ أموالهم" سار الرشيد الى الري لينظر في أمر خلع الوالي ولكن الأخير أتاه من خراسان " وأهدى له الهدايا الكثيرة والأموال العظيمة وأهدى لجميع من معه من أهل بيته وولده وكتّابه وقواده من الطرف والجواهر وغير ذلك " وانتهى الأمر بطبيعة الحال بأن رده الخليفة الى ولايته من جديد (٢) .

ولكنه في سنة ١٩٠ هـ اضطرب مشرق الدولة من جديد وذلك عندما ظهر (ثار) رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند من أرض ماوراء النهر ، وذلك لأسباب تتعلق بالاخلاق . وجلد رافع وقيد وطيف به على حمار " ليكون عظة لغيره " فثار واستطاع أن يستولي على المدينة وقتل عاملها وهزم جيشا أرسله اليه عيسى بن علي بن ماهان وغلب رافع على بقية ماوراء النهر ثم أنه بعد ذلك استمال الترك المقيمين

---

(١) انظر ، ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٨ ، ص ١١٠ ، ص ١١٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٠ — ١٢١ .

في هذه النواحي وتمكن هؤلاء من قتل عيسى بن علي . وعندما سار علي بن عيسى الى مرو ليحميها من رافع عزله الرشيد كما نستبين من النصوص طمعا في أمواله ، واستعمل بدلا منه هرثمة بن أعين ، وقبض ابن أعين على الوالي المعزول وأخذ أمواله بأمر من الرشيد . وجد هرثمة في حرب رافع فحاصره بسمرقند ، واستعان بطاهر بن الحسين القائد المشهور في قتاله . واهتم الخليفة بأمر رافع وأشفق من تزايد خطره حتى أنه عزم على الخروج اليه بنفسه . ولكن الرشيد سيموت في الطريق وذلك قبل القضاء على ثورة رافع بن الليث التي ستستمر حتى سنة ١٩٥ هـ (١) .

أما عن الخوارج فان ثوراتهم لم تنقطع خاصة في اقليم الجزيرة ، وكذلك في خراسان .

ففي أول عهد الرشيد قام أحدهم بالجزيرة وهزم الوالي وتقدم نحو الموصل وهزم حامية المدينة ولم تتمكن جيوش الخليفة من النيل منه الا بعد عناء شديد .

وفي سنة ١٧٥ هـ خرج أحد الموالي من القيسية وهو حصين الخارجي بخراسان وهزم والي سجستان ، واستولى على عدد من المدن . واستطاع كما تقول الروايات وهو في قلة من قواته لم تتجاوز الستمائة رجل أن يهزم الجيش الذى سيّره اليه والي خراسان وكان يبلغ اثنى عشر ألفا .

وظل الثائر يعيث في البلاد فسادا حتى قتل سنة ١٧٧ هـ (٢) .

وأثناء ثورة الحصين ، قام خارجي آخر بالجزيرة وقدم الموصل وتمكن من هزيمة عسكرها وذلك قبل أن يقتل (٣) .

أما الثورة الخارجية التي أزعجت الخليفة فهي ثورة الوليد بن طريف التغلبي الذى خرج بالجزيرة سنة ١٧٨ هـ ، وفتك بالمسلحة العباسية في نصيبين ، وقوى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ١٢٢ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ٨٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ٩٤ .

أمره فدخل أرمينية واذربيجان وأرض الجزيرة وعاث فيهم وأتعب قائد الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني . وبعد مقتل هذا الثائر قام الرشيد باداء العمرة شكرا لله (١) .

وفي سنة ١٧٩ هـ خرج بخراسان ، ثائر خارجي آخر ، هو حمزة بن أترك السجستاني ، الذى دوخ جيوش علي بن عيسى بن ماهان ، حتى أن الوالي " قصد القرى التي كان أهلها يعينون حمزة فأحرقها وقتل من فيها" . وتورد النصوص أن هذا الثائر قام بأعمال فظيعة منها أنه كان يقتل الغلمان بالمكاتب كما كان يقتل معلمهم . واضطر طاهر بن الحسين عامل ابن ماهان على بوشيخ انى القيام بأعمال رهيبة ضد الخوارج المحاربين منهم والقاعدين (غير المحاربين) ومن لهم ديوان ومن لا ديوان لهم . تقول الروايات انه كان " يشد الرجل منهم في شجرتين يجمعهما ثم يرسلهما فتأخذ كل شجرة نصفه " . وذلك حتى طلبوا الأمان في سنة ١٨٥ هـ .

الفتنة بمصر :

هذه الاضطرابات التي سرت في أرجاء الدولة بلغت أرض مصر الآمنة المطمئنة بدورها فقام في سنة ١٧٨ هـ أهل الحوف وهم من قيس وقضاعة بالثورة وقاتلوا عاملهم الذى استنجد بعامل فلسطين . وبعد أن أخمدت الثورة أمر الخليفة بعزل والي مصر وعيّن آخر مكانه .

الشيعة :

أما عن العلويين (الشيعة) فكان لهم نشاطهم المعادى أيضا ولو أن نشاطهم لم يصل الى درجة خطيرة كما هو الحال بالنسبة للخوارج . ففي أول عهد الرشيد اطمأن العلويون وظهر من كان مختفيا منهم مثل ابراهيم بن اسماعيل المعروف بطباطبا ،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ٩٧ ، ص ١٠١ .

وعلي بن الحسين بن ابراهيم بن عبد الله بن الحسين . وفي سنة ١٧١ هـ تذكر النصوص أن الرشيد أمر باخراج الطالبيين من بغداد الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ماعدا العباس بن الحسن بن عبد الله بن عباس(١) .

ظهور يحيى بن عبد الله بالديلم :

قام يحيى بن عبد الله بن الحسن بالثورة على الرشيد في بلاد الديلم ، في سنة ١٧٦ هـ ، وأزعج هارون ، فندب لقتاله الفضل بن يحيى ، ومعه صناديد القواد ، وولاه جرجان وطبرستان والرى وغيرها . ولجأ الفضل الى السياسة فكاتب يحيى ولاطفه ، كما اتصل بصاحب الديلم وبذل له الأموال ، وأخيرا استجاب يحيى للصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه وأن يشهد على هذا الأمان " القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم ومشايخهم " فأجابه الرشيد الى ذلك ، وعظمت منزلة الفضل عنده . وقدم الفضل ومعه يحيى بن عبد الله بغداد فاستقبله الرشيد استقبالا حسنا ، الا أن أمانه ووعده لم يكونا بأهم من أمان أسلافه وذلك أنه لم يحترم ذلك الأمان وأمر بحبس العلوى . وتمكن الرشيد من اعطاء نقضه العهد صفة الشرعية فأفتاه بعض القضاة بأن هذا الأمان منتقض من وجوه كثيرة وظل يحيى في سجن الرشيد حتى وافاه الأجل (٢) .

السياسة الخارجية :

الصراع ضد بيزنطة :

فيما يتعلق بالسياسة الخارجية في الدولة فقد استمر الصراع ضد بيزنطة طوال عهد الرشيد وزادت حدته بسبب اهتمام الرشيد اهتماما خاصا بالجهاد وذلك منذ أيام والده المهدى الذى كان يعهد اليه بقيادة الحملات في بلاد الروم .

---

(١) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ٨٣ ، ص ٨٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٩٠ .

وبدأ الرشيد خلافته في سنة ١٧٠ هـ باجراء اصلاح رئيسي على الحدود البيزنطية وذلك أنه أصلح الثغور جميعها وشحنها بالحاميات من الخرسانية • وجعل من هذه المنطقة ولاية مستقلة وأسماها " العواصم " ، وكانت الصوائف وفي بعض الأحيان الشواتي تسير الى أرض الروم بانتظام ، وكان الأسطول يساعدها في البحر في كثير من الأحيان • وفي سنة ١٨١ هـ سار الرشيد بنفسه على رأس الجيوش وافتتح عددا من الحصون • وتم الاتفاق بين البيزنطيين والمسلمين على فداء الأسرى ، وتولى ذلك من قبل المسلمين القاسم بن الرشيد ومعه الأعيان من أهل الثغور والعلماء وتم التبادل قرب طرسوس وكان عدد الأسرى المتبادلين ثلاثة آلاف وسبعمائة[١] •

وفي سنة ١٨٧ هـ توغل القاسم بن الرشيد في أرض الروم وحاصر عددا من الحصون حتى اضطر البيزنطيون الى شراء انسحاب المسلمين عن طريق دفع الجزية وتحرير أكثر من ثلاثمائة وعشرين أسير مسلم • وفي هذه الأثناء قامت ثورة في بلاط بيزنطة كان من نتائجها خلع ايرين (رينى) واعتلاء وزير ماليتها نقفور العرش • وعمل الامبراطور الجديد على نهج سياسة مناهضة الخلافة ورفض الجزية واستلزم الأمر قيام حملة قادها الرشيد بنفسه فحاصر مدينة هرقلة ونشر الخراب حتى اضطر نقفور الى دفع الجزية الا أنه نقض الاتفاق بعد رجوع للرشيد مباشرة فاضطر الخليفة الى الرجوع الى أرض الروم أثناء الشتاء رغم قسوة البرد [٢] •

واشتدت الحرب بعد ذلك وتذكر النصوص أنه قتل في الحرب من الروم في سنة ١٨٨ هـ أربعون ألفا وسبعمائة • ولكن هذه الصائفة لم تكن لها نتيجة ملموسة[٣] •

وفي سنة ١٩٠ هـ استطاع الرشيد الانتقام لغدر نقفور ، فسار على رأس جيش كبير تبالغ النصوص في عدده فتقول أنه زاد على مائة ألف وخمسة وثلاثين ألفا " سوى الأتباع والمتطوعة ومن لا ديوان له " وحاصر هرقلة حصارا شديدا طوال شهر حتى

---

(١) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ح ٥ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ •

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٨ •

(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٠ •

سقطت وسارت طوابير المسلمين في مختلف أنحاء آسية الصغرى تخرب وتنهب وتنشر الذعر في كل مكان . وانتهى الامر بخضوع نقفور واضطر الى دفع الجزية ولكن هذه النتيجة كانت مؤقتة . ولم تكن الحملات الاسلامية التي تلت ذلك ناجحة تماما . اذ تذكر النصوص أن الروم استطاعوا أن يقفوا أمام المسلمين وأن يرغموهم في بعض الأحيان الى الانسحاب ، وعلى ذلك لم تستطع الدولة أن تحقق انتصارات حاسمة . وطال الصراع لمدة طويلة دون أن يؤتي بثمرة بالنسبة لأى من الطرفين المتنازعين (١) .

ومات الرشيد في مدينة طوس سنة ١٩٣ هـ وهو متوجه لاخماد الثورة التي قام بها حفيد نصر بن سيار في المشرق . وترك الخلافة محل نزاع بين ابنيه الأمين والمأمون، وقد أشرك الرشيد ابنيه معه في الحكم . وقد بدأ الرشيد بأن عهد الى ابنه محمد بن زبيدة ولقبه بالأمين وكان طفلا صغيرا بلغ من العمر حوالي خمس سنوات . ثم شعر بالغبن بالنسبة لابنه عبد الله وكان من أم ولد خرسانية ، فعهد له في سنة ١٨٢ هـ بولاية العهد بعد الأمين وأشركه في الحكم فولاه مشرق الدولة — أى خراسان وما يتصل بها الى همدان ولقبه بالمأمون وعهد بتدبير شئونه الى جعفر بن يحيى (٢) . وعهد بالنصف الغربي من الدولة أى بلاد العراق والشام الى آخر بلاد المغرب الى الأمين ولي العهد الأول . وعهد بادارة شئونه الى يحيى بن خالد ولم يكتف الرشيد بهذا بل بايع لابنه الثالث وهو القاسم بولاية العهد بعد المأمون ولقبه بالمؤتمن ولكنه جعل للمأمون حرية التصرف في تثبيته أو خلعه . وكان للابن الثالث ولايته هو الآخر في الجزيرة والثغور والعواصم (٣) .

وفي سنة ١٨٦ هـ عندما سار الرشيد الى مكة لاداء فريضة الحج اصطحب معه أبناءه ، وفي مكة دعا الفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة وكتب كتابا أشهد فيه على الأمين بالوفاء للمأمون كما كتب كتابا آخر أشهد فيه على المأمون الوفاء للأمين وعلق الكتابين في الكعبة (٤) . ولكن عندما توفي الرشيد في سنة ١٩٣ هـ قرب طوس آل عسكره جميعا الى المأمون الذى كان مصاحبا له .

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ح ٥، ص ١٢٢ .
(٢) انظر، ابن الاثير، ح ٥، ص ١٠٧ .
(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١١٢ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١١٣ .

الفصل الثامن

الصراع بين الأمين والمأمون

خلافة الأمين

١٩٣ـ ١٩٨هـ/ ٨٠٨ـ٨١٣م

المقدمات :

بموت الرشيد أوشكت الدولة العباسية أن تنقسم الى قسمين ينازع كل منهما الآخر : الجزء الغربي حيث مدينة الخلفاء ، بغداد ، وعلى رأسه الأمين ، والجزء الشرقي أى خراسان والولايات الشرقية حيث يقيم المأمون بمدينة مرو . ويعود الفضل في هذا التقسيم الى الرشيد ، كما رأينا ، بل ولربما تحقق الانفصال فعلا بين مشرق الدولة ومغربها عقب وفاته مباشرة لو أن كلا من الابنين احترم وصية أبيه . والظاهر أن هذا الانفصال كان لا بد منه اذ أن المشرق الايراني كانت له أمانيه وآماله السياسية التي يعمل على تحقيقها ، والتي ظهرت جليا بقيام الدولة العباسية نفسها . وسنرى فعلا أن المشرق الايراني سيحقق استقلاله فعلا ـ ان لم يكن شكلا ـ على عهد الطاهريين وعلى أيام المأمون .

ويفهم من ذلك أن مسألة الصراع بين أبناء الرشيد لن تأخذ شكل نزاع عائلي من أجل وراثة العرش بل سيكون لها شكل النزاع الشعوبي أو العصبي بين العرب والفرس . وعلى ذلك فلن يكون للمطالبين بالخلافة رأى كبير في سير الحوادث هذا على أن ظفر المأمون ، وغلبته على الأمين ، ان هو الا انتصار للمشرق الايراني على المغرب العربي ، يعيد الى الأذهان قيام أمر العباسيين على أكتاف الخراسانية وزحف هؤلاء نحو الغرب وتغلبهم على العالم العربي الشآمي . أحس بذلك وزير المأمون الفضل بن سهل الايراني الأصل ، الحديث الاسلام (منذ خمس سنوات) فكان يشبه أصحابه بنقباء الحركة العباسية الأولى(١) ، كان يقول للتميمي نقيمك مقام موسى بن كعب ، وللربعي نقيمك مقام أبي داود ، وخالد بن ابراهيم نقيمك مقام قحطبة ». (٢)

بدأ الاختلاف بين الأمين الذى بويع له بالخلافة وبين المأمون عندما رفض الأمين ـ بصفته صاحب السلطان ـ الاعتراف بما أوصى به الرشيد ، من:

---

(١) انظر، أ.د سعد زغلول ، التاريخ العباسي والأندلسي ، ص ١١٤ .
(٢) ابن الاثير، الكامل ، ح ٥ ، ص ١٣٧ (ذكر ابتداء الخلاف بين الأمين والمأمون) .

أن يؤول عسكره وكل مافيه من الأموال والأمتعة والعدد الى المأمون . وعمل على أن يعود هذا الجيش بكل أثقاله اليه ، بفضل الفضل بن الربيع الذى حضر وفاة الرشيد ، وغيره من القواد الذين أرسل اليهم بتعليماته . ولكي يخفف من روع المأمون كتب اليه أيضا يهون عليه من الأمر ، ويأمره يترك الجزع وأخذ البيعة لهما ، وكذلك لأخيهما القاسم (المؤتمن) .

وقام ابن الربيع بدعوة الجند الى الانفضاض من حول المأمون والعودة الى بغداد . وفعلا أجابه كثير منهم ، رغم ما قام به قواد المأمون وعلى رأسهم ابن سهل من تذكير الناس ببيعة المأمون وسوء الهم الوفاء وتحذيرهم الحنث (قال ابن الربيع انما أنا واحد من الجند) . نتج عن ذلك أن أشفق المأمون عن حين الموقف ، ولكن ابن سهل طمأنه ورسم له السياسة الواجب اتباعها ، والتي تتلخص أولا في الاعتصام بخراسان ، اذ أن الخراسانية أخواله (المأمون) وهم بحكم قرابتهم هذه لن ينقضوا البيعة التي له في أعناقهم . ثانيا انتهاج سياسة دينية رزينة بدعوة الفقهاء الى الحق والعمل به واحياء السنن . ثم الاهتمام شخصيا بأمور الدولة ورد المظالم واظهار التقشف والزهد . وبدأ تنفيذ هذا البرنامج بعمل موفق ، وذلك أنه وضع أو خفض ربع الخراج عن خراسان مما كان له وقع حسن عند أهل البلاد (قالوا ابن أختنا وابن عم نبينا) . كما أنه لاين الأمين في نفس الوقت الذى عمل فيه على توطيد مركزه في ولاياته الشرقية ، بأن كتب اليه وعظه وأهداه الهدايا .

أما عن الأمين فانه من جهته لم يرض عن موقف أخيه ، وعمل على اعادة الوحدة للدولة ، وعلى أن يحقق لنفسه السيادة الفعلية ، وبدأ ذلك على حساب الأخ الثالث ، وهو القاسم (المؤتمن) الذى كان يلي الجزيرة وما يتبعها بأن نحاه عن جزء كبير من ولايته وأقره على قنسرين والعواصم فقط . وكانت هذه هي الخطوة الأولى . ففي السنة التالية ١٩٤ هـ (٨١٠م) خطا الخطوة الثانية ، وكان فيها تهديد مباشر للمأمون وما يمكن أن نسميه بتمهيد للاغارة على حقوقه في وراثة العرش والخلافة . واذ أمر الأمين — باغراء وزيره

الفضل بن الربيع — بالدعاء لابنه موسى ، الذى كان طفلا صغيرا ، في خطبة الجمعة الى جانب الدعاء لأخويه .

وكان من الطبيعي أن لا يسكت المأمون — تحت ضغط وزيره الفضل ابن سهل هو أيضا — على هذا العمل غير الودى وأجاب عليه بالمثل بأن تجاهل خليفة بغداد ، وقطع كل علاقة به (أسقط اسمه في الطرز ومن النقود وقطع عنه البريد) . وزاد ذلك من تأزم الموقف ، اذ كشف الأمين عن نواياه ، وأرسل بعثة الى المأمون يطالبه بالحضور عنده ببغداد . وكان الهدف من هذه الزيارة هو الضغط عليه للتنازل عن بعض حقوقه في الوراثة (تقديم موسى بن الأمين عليه) وربما في ولايته للمشرق (طلب اليه أن ينزل عن بعض كور خراسان وأن يكون عنده صاحب البريد يكاتبه بالأخبار) .

وكان من الطبيعي أن يرفض المأمون اجابة مطالب الخليفة[1]، كما لم يوافق حزبه اطلاقا على خروجه من خراسان ، هذا رغم أن الموقف السياسي للاطراف الشرقية من ولايته كان ينذر بالخطر . فاذا كان رافع بن الليث قد مال الى الاستسلام والطاعة فان غيره كان قد أعلن العصيان مثل جابغو أو جبغويه الفارلوق (على سيحون) وخاقان التبت ، وملك كابل الذى كان يستعد للاغارة على خراسان ، وملك أترار (مركز الغزو) الذى منع الضريبة .

واستطاع ابن سهل أن يدبر الأمور تدبيرا حسنا ، وأن يظهر مقدرة سياسية فائقة وذلك أنه بدأ بأن استمال أحد أفراد بعثة الأمين وهو العباس بن موسى بن عيسى (حفيد عيسى بن موسى الذى خلع على عهدى المنصور والمهدى) — وعده امرة الموسم ومواضع من مصر — فكان يكتب اليهم

---

(١) كتب له المأمون : "انما أنا عامل من عمال أمير المؤمنين وعون من أعوانه أمرني الرشيد — معناه تمسكه بوصية أبيه — بلزوم الثغر ولعمرى ان مقامي به ارد على أمير المؤمنين وأعظم غناء للمسلمين" .
انظر ، ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ١٣٩ — ١٤٠ .

بالأخبار من بغداد . ثم انه شدد الحراسة على حدود خراسان ومنع العبور الى ولاياته الا للأشخاص المعروفين . أما فيما يتعلق بملوك الأطراف من الوطنيين فان الفضل نصح المأمون بارسال خطابات لجابغو والخاقان يؤكد لهما سيادتهما على بلادهما ، ويعدهما بالمساعدة ضد أعدائهما ، وأن يرسل هدايا الى ملك كابل ، وأن يعفي أمير أترار من جزية عام . وفعلا نجحت هذه الاجراءات في استتباب الأمن والسلام في هذه النواحي .

خلع المأمون :

حاول الأمين انفاذ الرسل لاقناع المأمون بالعدول عن موقفه ولكنهم منعوا عند الرى من حرية الاتصال بأهل البلاد . (حفظوا في حال سفرهم واقامتهم من أن يخبروا أو يستخبروا) . عندئذ رأى الأمين أن القطيعة قد تمت وعمل على أن يعيد توحيد الدولة عن طريق استعمال أساليب العنف . وفي أوائل سنة ١٩٥ هـ أعلن خلع المأمون من ولاية العهد ، وأخذ البيعة لابنه موسى بدلا منه ولقبه " الناطق بالحق " ، وجعل له ديوانا من شرطة وحرس ورسائل ، وعهد بادارة شئونه وتأديبه الى علي بن عيسى بن ماهان والي خراسان السابق ، ثم عهد لابنه الآخر عبد الله ولقبه " القائم بالحق " . كما أعلن عدم صلاحية النقود التي ضربها المأمون والتي لا تحمل اسم خليفة بغداد للتداول . (١)

وأتبع الأمين ذلك بأن أرسل الى الكعبة وأتى بكتابي العهد اللذين كتبهما الرشيد ومزقهما . وخرج من حيز الكلام الى حيز العمل وكلف علي بن عيسى بن ماهان القائم بأمر ولي العهد الجديد بالسير الى خراسان للقبض على ولي العهد المخلوع ، وتنفيذ ما اتخذه من اجراءات ضده .

ولا شك في أن اختيار بن ماهان للقيام بهذه المهمة لم يكن اختيارا موفقا ، فالرجل معروف بسوء السيرة في خراسان لجشعه في ابتزاز الأموال ،

(١) انظر : ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ١٤٢ ، أحداث سنة ١٩٥ هـ (ذكر قطع خطبة المأمون) ، أ . د سعد زغلول ، ص ١١٧ .

حتى اضطر الرشيد الى عزله بعد أن جمع ثروة طائلة ، وبعد أن كان يقاسمه في استغلاله للبلاد . والظاهر أن الأهواء الشخصية قامت بدورها في هذا الاختيار ، فابن ماهان كان يطمع في العودة الى منصبه القديم المغرى ، وربما أراد الأمين أن يكيد لأهل خراسان فولاه هذا الأمر نكاية فيهم ، ولكن بلغ عدم التوفيق ، هذا ، حدا قيل معه ان عينا للفضل ابن سهل هو الذى أشار بانفاذه حتى يقاومه أهل خراسان .

بداية الصراع :

سار علي بن عيسى على رأس ٥٠ ألف رجل ، وخرج الأمين لوجوه أهل دولته لوداعه . واتجه جيش بغداد نحو الرى حيث كان طاهر بن الحسين قائد المأمون يعد العدة للدفاع ويستعد للقتال . وحاول علي ابن عيسى أن يستغل معرفته السابقة للبلاد والاتصال بالملوك الوطنيين واثارتهم ، هذا ولو أننا لا نعرف الى أى حد نجحت هذه الخطة رغم ما يقوله الكتاب من أن هؤلاء الملوك أجابوه الى قطع طريق خراسان . ولكن المحقق أن ابن ماهان استهان بأمر طاهر ، اذ تقول النصوص بأنه لما طلب اليه أصحابه بث العيون وعمل خندق ، قال : " مثل طاهر لا يستعد له " . وخرج طاهر من مدينة الرى في جيش قليل العدد (نسبيا ٤ آلاف) حيث عسكر على بعد قليل منها (٥ فراسخ) كما حرض جنده على القتال ، خالعا الأمين داعيا بالخلافة للمأمون . وكان الغرض هو اعطاء موقف جيشه صفة شرعية حتى لا يخيل للجند أنهم يقفون موقف الخارجين على صاحب الأمر . واتخذ كل من الجيشين تشكيل القتال ووقف الواحد منهما أمام الآخر .

وبدأ طاهر بمظاهرة سياسية بأن حمل صاحب شرطته بيعة المأمون وعلقها على رمح ، ودعا علي بن عيسى الى تقوى الله في البيعة التي أخذها ، ولما لم يجب أحد أصحاب ابن ماهان عليه بالسيف أظهر شجاعة فائقة ، اذ حمل عليه وأخذ منه السيف بيديه وصرعه ، ولهذا سمي طاهر " ذو اليمينين " .(١)

---

(١) انظر ، ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ١٤٣ — ١٤٥ .

وفي هذه الأثناء حدثت مفاجأة سيئة بالنسبة لطاهر ، وذلك أن أهل الرى أغلقوا باب المدينة دون عسكره ، ولكن يظهر أنه كان يتوقع مثل هذا منهم ، ولذلك فضل الخروج والقتال بعيدا عن المدينة ، فأمر أصحابه بالاشتغال بمن أمامهم فقط . وبدأ القتال في صالح علي بن عيسى فهزمت ميمنته ميسرة طاهر هزيمة منكرة ، وعرجت ميسرته على ميمنة طاهر فزحزحتها عن مواضعها . ولكن طاهر أظهر كفاءة عسكرية عظيمة فلم يفت سوء الموقف في عضده ، فأمر أصحابه بالقيام بهجوم خاطف (حملة خارجية) على قلب علي ابن عيسى . وبفضل ذلك الهجوم القوى تحول الموقف لصالح طاهر فانسحب جناحا ابن ماهان ، وكثر القتل في أصحابه وسقط هو قتيلا بضربة سهم في الميدان . ولم ينقذ المنهزمين الا حلول الليل بعد أن التجأ كثيرون منهم الى معسكر طاهر ، بعد أن أمنهم .

الزحف على بغداد :

كانت هذه الوقعة فاتحة سلسلة من الانتصارات قادت طاهر من الرى الى بغداد ، تعيد الى الذهن الحملة المظفرة التي قام بها قحطبة بن صالح من خراسان الى العراق . وتمكن طاهر بعد ذلك من هزيمة قائد الأمين عبد الرحمن بن جبلة الذى ولي همذان ، والذى كان يأمل أن يلي كل مايفتحه من أرض خراسان . هزمه طاهر مرتين ، وحاصر مدينة همذان حتى ضجر أهل المدينة ، فطلب عبد الرحمن الأمان وخرج عن المدينة ، ولكنه كان يضمر الغدر بطاهر اذ شن عليه هجوما شديدا يائسا انتهى بقتله وهزيمة أصحابه . كان هذا الرجل متعصبا للأمين ضد المأمون في أول الأمر فقال لا يرى أمير المؤمنين وجهه أبدا ، وبعد الاستيلاء على همذان عمل طاهر على تأمين ظهيرة قواته عن طريق احتلال قزوين ، ولم ينتظر قائد الأمين وجيشه الكثيف وصول طاهر اذ أنه رأى الجلاء عن البلاد ، فوضع طاهر حامية لمنع مرور أية قوات من هناك .

وبذلك خلت البلاد لطاهر فتقدم يحتل الكور والمدن حتى وصل الى قرب حلوان ، حيث عسكر هناك . وكان للانتصارين اللذين أحرزهما طاهر أثرهما الكبير في اضعاف الروح المعنوية لدى قواد وجيوش الأمين . فبعد أن بحث الفضل بن الربيع عن قائد عربي متعصب للعرب ، هو أسد بن يزيد ابن مزيد ، وبعد أن حرضه من أجل المحافظة على قوة الشعب العربي[1] فشل في تسييره ، اذ كان للقائد العربي مطالب مالية[2] لم يقابلها الأمين بالرفض فقط بل أمر بحبسه كذلك . وأخيرا نجح في تسيير عم أسد ، وهو أحمد بن مزيد لحرب طاهر ، وسير معه عبد الله بن حميد بن قحطبة ، ولكنهما لم يتقدما الى أبعد من خانقين . واكتفى طاهر بأن ظل في مكانه ودس عليهم الجواسيس والعيون ، ولم يزل يحتال حتى وقع الاختلاف في معسكر أعدائه[3] وقاتل بعضهم بعضا حتى اضطر قائدا بغداد الى الرجوع عن خانقين دون ملاقاة طاهر الذى تقدم ونزل حلوان نفسها .

الاضطراب في الشام :

في هذا الوقت بينما كانت الأمور مستقرة في خراسان ، وبينما كان أمر المأمون في تحسن مستمر ، بدأ مغرب الدولة ومركز الخلافة يضطرب ، وسارت الأمور على غير مايشتهي الأمين حتى أنه وقع أسيرا بين أيدى الثوار ، وفقد خلافته لفترة ما . والغريب في هذا الشأن أن بلاد الشام ، وهي مركز الدولة العربية السابقة ، ومعقد آمال الشعب العربي وأمانيه في هذا الصراع العنصرى كانت نهب الفتن والقلاقل منذ البداية .

ففي سنة ١٩٤ هـ ثارت حمص على عامل الأمين فعزله ، ولكنه ولى آخرا مكانه انتقم من أهلها حتى طلبوا الأمان ثم هاجوا بعد ذلك فاضطر الى الانتقام

---

(١) قال له : انما نحن شعب من أصل أن قوى قوينا وان ضعف ضعفنا — وبعد أن ينقد الأمين للهوه وعبثه يقول: وقد خشيت أن نهلك بهلاكه . وأنت فارس العرب وابن فارسها . انظر، ابن الاثير، ح ٥، ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) طالب بصرف رزق سنة وحمل رزق سنة أخرى مع الحملة .

(٣) كانوا يرجفون أن الأمين وضع العطاء .

منهم من جديد . وفي السنة التالية سنة ١٩٥ هـ وأثناء انهزام جيوش الأمين أمام طاهر ظن أهل الشام أن أمر العباسيين ودولة الفرس الى بوار ، فثارت دمشق ودعت الى عودة الأمويين (السفياني المنتظر) وأعلنت أحد حفدة معاوية ويدعى أبو الحميطر (علي بن عبد الله بن خالد) وكان علوى الأم (نفيسة بنت عبد الله) مشتغلا بالعلم ، ويبلغ من العمر ٩٠ عاما ، خليفة (ذى الحجة) . وتمكن أبو الحميطر من اخراج عامل دمشق وذلك بفضل معونة أحد موالي بني أمية . وعندما سير الأمين لحربه الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان لم يسر هذا الأخير الى دمشق بل اكتفى بالانتظار بالرقة .

وأحسن السفياني السيرة أول الأمر ولكنه لم يكن ليستطيع القضاء على الخصومات القديمة بين العصبيات العربية من كلب وقيس أو التوفيق بينهما . ففي أول الأمر اتخذ أكثر أصحابه من كلب ، ولكنه عاد وخاصمهم واتفق مع قيس . ولكن الزعيم الكلابي محمد بن صالح ابن بيهس أوقع به هزيمة منكرة وحاصره في دمشق وقتل ابنه وأرسل رأسه للأمين . وحدث أن مرض ابن بيهس فعمل على الكيد للسفياني فبايع أمويا آخر بالخلافة (مسلمة بن يعقوب) ونجحت خطته ، وتمكن الأموى الجديد من القبض على السفياني ، وقرب القيسية منه . فلما عوفي ابن بيهس من مرضه عاد وحاصر دمشق فسلمها اليه القيسية وهرب الأموى والسفياني بعد أن دامت الفتنة حوالي ٣ سنوات (محرم سنة ١٩٨ هـ) . وظل ابن بيهس بدمشق حتى وصل اليها عبد الله بن طاهر .

وكان عبد الملك بن صالح ، الذى أخرجه الأمين من السجن عند ولايته ،[1] قد حاول أن يجد علاجا لنكبة الشام فطلب الى الأمين أن يوليه اياها ومناه بأنه يمكنه أن يجيش أهل الشام لنجدته . ولكن فشل عبد الملك في مهمته . اذ قامت الفتنة بين الخراسانيين وأهل الشام بينما كان هو مريضا ، وانتهت الفتنة بانهزام العرب ، فمات الرجل سنة ١٩٦ هـ متأسفا لنكبتهم وضياع أوله فيهم .

---

(١) وكان الرشيد قد حبسه أيام نكبة البرامكة . انظر ابن الاثير ج ٥ ص ١٥٠ .

ويئس كذلك الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان الذى كان ارسله الأمين الى الشام من تقويم الحالة بعد موت عبد الملك فعاد الى بغداد . ولما أراد الأمين أن يعاسبه عما فعل رفع راية العصيان ، وهزم جند الخليفة وأعلن خلعه (١١ رجب) ، وأخذ البيعة للمأمون . ولم ينقض يومان حتى كان الخليفة أسيرا ، هو وأمه زبيدة ، وتم ذلك بتدبير العباس بن موسى بن عيسى الذى كان قد استمالاه الفضل بن سهل — كما رأينا . ولكن الحسين لم يستطع السيطرة على الموقف ، فثار به الجند وأطلق الأمين ، وأعيد الى كرسي الخلافة . وبذلك قدّر للنزاع بين الأخوين أن يستمر مدة أطول .

وفي هذه الاثناء وقعت ببغداد فريسة للفوضى ، وبلغ من حنق مركز الأمين أنه لم ينتقم من الرجل الذى خلعه بل عفا عنه[1] ، وأكثر من هذا أنه لم يجد قائدا غيره للقيام بحرب المأمون[2] ، فوجهه لذلك . ولكن الحسين كان قد فقد الثقة في موقف الأمين فحاول الهرب الا أنه أخذ وقتل . وظهر الفشل في حزب بغداد بهرب الفضل بن الربيع ، وكان القوة المحركة لهذا الحزب واختفائه بعد مقتل الحسين .

ظهر بجلاء اذن أن موقف بغداد ميئوس منه ، وكان من الطبيعي أن تتقدم جيوش خراسان بسهولة وألا يصادف طاهر بن الحسين عقبات خطيرة ، فتمكن من الاستيلاء على الأهواز ، بعد أن حاول واليها الدفاع عنها فلقي حتفه ، كما أن طاهر أصيب في هذه المعركة بجراح بليغة (فقطعت يده) . وباستيلائه على الأهواز تمكن من السيطرة على المنامة والبحرين وعمان (على الخليج الفارسي من شبه جزيرة العرب) وأرسل اليها عمالا يلونها من طرفه . واستمر تقدم طاهر المظفر دون مقاومة حتى أتى واسط التي استسلمت

---

(١) قال الحسين عندما طلبه الأمين : "ما أنا بمضن ولا مسامر ولا مضحك" . انظر ابن الاثير ج ٥ ص ١٥١ .

(٢) قيل ما هو بأكبرنا سنا وما هو بأكبر منا حسبا ولا بأعظمنا منزلة وغنى . انظر ابن الاثير ج ٥ ص ١٥٢ .

للخراسانية دون مقاومة هذه المرة . وعندما أرسل احد قواده الى الكوفة وكانت قد خلعت الأمين واعترفت بخلافة المأمون (كان عليها العباس بن موسى ضيعة ابن سهل) ، ولم تفلح محاولات بغداد لاستردادها . (١)

وبذلك تم لطاهر الاستيلاء على كل الأراضي الواقعة بين واسط والكوفة كما أعلن والي البصرة خضوعه له ، وأعقبه والي الموصل . وبهذا أصبحت بغداد شبه محاصرة وانقطعت عن كل الولايات الشرقية والجنوبية ، وتم خروج كل بلاد العرب جميعا من سلطان الأمين ، بدخول مكة والمدينة في طاعة المأمون . ورغم أن موقف الأمين كان لا يبشر بأى أمل الا أنه ظل جامدا في تصرفاته لا يريد سوى التشبث بعاصمة الخلافة التي أصبحت محاصرة (لم يصبح لها اتصال الا ببلاد الشام المضطربة) . فهو لا يريد الخروج منها — كما نصحه بعض الناس — ومحاولة تنظيم قواته من جديد بالشام ، ولا هو يحاول المرونة واستعمال السياسة ومفاوضة أعدائه في سبيل انقاذ مايمكن انقاذه — اذا كان هناك مايمكن انقاذه .

في هذه الظروف تقدمت جيوش المأمون ، وصارت تقترب من بغداد شيئا فشيئا ، وكانت كلما قربت اضطرب أمر الجيوش البغدادية وانسحب أفرادها . هذا ما حدث بالقدائن (على بعد ٤ كلم من بغداد) حيث نزل طاهر (بحربر) وما حدث بالنهروان حيث نزل عرثمة بن أعين . كل هذا والأمين لا يفقد الأمل ، بل وربما اعتقد في مقدرة بغداد وحدها على استعادة دولتها المفقودة . ففي محاولة أخيرة عمل على استمالة جيوش طاهر ببذل الأموال والتلويح ببريق الذهب ، ودس بينهم الجواسيس . ونجحت التجربة جزئيا ، اذ

---

(١) وكان لهذا معناه الكبير في شرعية خلافة المأمون — اذ أن الوالي عيسى بن موسى كان قد غضب عندما أخذ الامين كتابي الرشيد من الكعبة وخلع المأمون نظرا لانه كان أحد الشهود — جمع الناس (شعبان) وخلع محمدا (الأمين) وبايع للمأمون ، وأخبر المأمون بذلك على طريق البصرة ثم فارس ثم كرمان ، فسر المأمون واستعمله على مكة والمدينة وأرسل معه واليا لليمن

شغب بعض الجند على طاهر وانضم فريق منهم الى جانب الأمين (حوالي ٥ الاف) ، ولكن النجاح لم يذهب الى أبعد من ذلك ،اذ تمكن طاهر بسرعة من السيطرة على رجاله ، وهزم جيش بغداد الذى اقترب من مواقعه فلجأ الى داخل المدينة التي أصبحت مطوقة تماما من جميع الجهات . وأفلت زمام القواد — الذين كانوا يطلبون المال بجشع والحاح — من يدى الأمين، وعمت العاصمة الفوضى ، فنقبت السجون وخرج أهلها ، وثار العامة والغوغاء وساد النهب والسلب والاضطراب .

رغم حالة الفوضى التي عمت بغداد لم يكن من السهل أخذ المدينة التي بناها المنصور لتكون أولا وقبل كل شيء معسكرا لجنوده وملجأ يستقر فيه في أمان من مفاجاة الأعداء . فللمدينة سوراها الضخمان ، والخندق الممتد بينهما ، ثم هي مقسمة بعد ذلك الى أحياء (أرباع) شبه منفصلة تتوسطها المدينة الملكية ، ويمكن لكل منها أن ينظم دفاعه الخاص . بعد ذلك هناك الأحياء والأسواق خارج الأسوار وهي مكتظة بالمباني والسكان ويمكن الاعتصام بها .

عرف طاهر ذلك وعمل على ضرب حصار محكم حول المعسكر الضخم . فقسم دائرة الحصار الى أربع مناطق ، وعهد بكل منطقة الى قائد . ونزل هرثمة بالمنطقة الشرقية (وراء دجلة) بينما نزل طاهر بالمنطقة الغربية من ناحية باب الأنبار (باب الكوفة) .

وصمم الأمين من جهته على المقاومة المستميتة دون النظر الى العواقب مضحيا بمدينة الخلفاء العالمية . فلما أحوجه المال ضرب آنية الذهب والفضة وفرقها في أصحابه ، ولما خرجت عليه أحياء المدينة امر باحراقها رميا بالنفط والنيران وبالمجانيق . ولم يتورع طاهر عن فعل مثل هذا أيضا بالنسبة للأحياء التي ظلت تقاومه وسماها دار النكث (أهل الأرباض ومدينة المنصور وأسواق الكرخ والخلد ، لامتلائها بالعامة والغوغاء) . كما أنه لجأ الى ارهاب الأعيان الذين لم يخرجوا اليه من الهاشميين وكبار القواد في أموالهم

وأملاكهم فصادر مزارعهم الموجودة خارج المدينة .

ولم يمض وقت طويل حتى انتهت المقاومة النظامية وانهارت معنويات الجنود وضعفوا عن القتال . كما استامن كثير من وجوه المدينة ومن القواد وظل الغوغاء وأهل السوق وباعة الطريق ، من أعداء النظام والأمن ينهبون ويسلبون ويقاومون جنود طاهر . ورغم انهم لم يكونوا مسلحين أو كانوا يحملون أسلحة بدائية مثل المخالي فيها الصخر والحجارة ، ومعها المقاليع ، فانهم أمكنهم شل حركة جيوش طاهر النظامية لمدة ما ، بل وأكثر من هذا تمكنوا أثناء قتال الشوارع والبيوت ، من أن يلحقوا بهم في بعض الأحيان خسائر فادحة وأن يحرزوا بعض الانتصارات أيضا . واتخذ طاهر ازاء هذه المقاومة اجراءات شديدة فأمر بهدم كثير من الدور والأحياء (ما بين دجلة ودار الرقيق ، وباب الشام ، وباب الكوفة الى الصراة وبنى حميد ونهر كرخايا) حتى عم الخراب واضطر كثير من أهل المدينة الى الجلاء عنها . وبعد ذلك عمد الى منع الأقوات عن المدينة (صرف السفن التي يحمل فيها القوت الى الفرات) فغلا السعر وأصبح الناس في ضيق شديد .

سقوط بغداد ونهاية الأمين :

وأخيرا تقدم طاهر من جهة الكرخ وتمكن من دخول المدينة عنوة واحتل أسواق الكرخ ثم عمل على حصار مدينة المنصور — المدينة الملكية وسط بغداد — حيث كان الأمين قد التجأ هو وأمه وأهله بعد أن فارقه كثير من جنده وحواريه ، وأحاط قصورها (قصر زبيدة وقصر الخلد) بالمجانيق . ورغم هذا الضيق الشديد الذى وقع فيه الأمين فانه لم يتخل عن عاداته من الانصراف الى الغناء والاستمتاع بالشراب والموسيقى — وربما وجد في ذلك بعض التخفيف من محنته ، وكان هذا ايذانا بالنهاية ، اذ لم يعد أمامه سوى الاختيار بين أحد شيئين : إما القيام بمحاولة يائسة لاختراق صفوف المحاصرين بما تبقى لديه من الخيل ، وإما الاستسلام وطلب الأمان . ولما لم يكن الأمين من هؤلاء الرجال الذين يزدادون عزما كلما ازدادت الصعاب شدة ، فانه

ركن الى طلب الأمان ، وكل مافعله انه لم يرض أن يكون استسلامه لطاهر بل فضل عليه هرثمة بن أعين .

وكان من الطبيعي أن يثير ذلك طاهرا صاحب الحصار . وتمكن الطرفان من ايجاد حل لذلك ، اذ اتفق على أن يدفع الأمين شعار الخلافة — الخاتم والقضيب والبردة — الى طاهر . وأتى هرثمة بحراقة في دجلة ونقل الأمين اليها (وحده) ولكن طاهرا لم يكن ليرضى أن يفوته شرف استسلام الخليفة . فدبر اغراق الحراقة بأيدى أصحابه تدبيرا سافرا . وتنتهي قصة الأمين نهاية ماساة روائية (تراجيدية) بأن يؤسر وهو شبه عريان، ويحبس في احدى الدور . وفي ظلام منتصف الليل الذى تبدده بعض المشاعل يدخل عليه بعض الرجال من العجم ويذبحونه ذبح الشاة من قفاه (في يوم الأحد ٢٣ محرم سنة ١٩٨ هـ) ويسيروا برأسه الى طاهر الذى يرسلها بدوره الى المأمون صاحب العرش دون منافس .

استسلمت بغداد بعد اذن ، وفي يوم الجمعة التالي (٢٨ من المحرم) دخل طاهر بغداد وصلى الجمعة ودعا للمأمون . وكان المتوقع أن تهدأ الأحوال ويستتب الأمن وتستقر الأمور بعد موت الأمين وخلوص الأمر للمأمون ، وهذا ما لم يحدث . فالمسألة كانت أكثر من ذلك تعقيدا ، اذ معنى انتصار صاحب الولايات الشرعية هو أن مركز الخلافة والحكم كان يتزحزح نحو المشرق . وفعلا لن يدخل المأمون بغداد الا بعد ست (٦) سنوات قضاها في عاصمة ولايته الشرقية مرو . وخلال هذه السنوات الست ستعرف بغداد كما ستعرف الولايات الغربية ألوانا من الاضطراب وصنوفا من الفتن والثورات ، وذلك حتى يعود الخليفة من جديد الى عاصمة الدولة "بغداد" .

فبعد دخول طاهر بغداد لم تلبث الثورة أن شبت بالمدينة واشترك فيها الجند الذين طالبوا بأرزاقهم ونادوا بموسى بن الأمين . وظن طاهر أن في الامر مؤامرة فخرج عن المدينة وعزم على التنكيل بأهل الأرباض ، لولا تدخل الأعيان واعتذارهم اليه . وعندئذ حمل طاهر ولدى الأمين وهما موسى وعبد الله وأمر بتسييرهما الى المأمون بخراسان .

الفصل التاسع

خلافة المأمون

١٩٨ – ٢١٨هـ/ ٨١٣ – ٨٣٣م

وحسب السياسة التقليدية للخلفاء العباسيين عمل الخليفة الجديد على التخلص ممن يستشعر خطره من كبار الرجال الذين مهدوا له الطريق الى الملك فكان نصيب الفاتح الكبير طاهر بن الحسين أن أمر بالتخلي عن كل فتوحاته ، من : كور الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن للحسن ابن سهل أخي الوزير الخطير الفضل ، الذى استعمله المأمون – بايحاء الوزير من غير شك . ولم يفعل طاهر سوى مدافعته بتسليم الخراج حتى وفى العهد أرزاقهم ، وبعد ذلك كان على طاهر أن يسير حسب أوامر الحسن ابن سهل الى الرقة على رأس قوات غير كافية لحرب أحد ثوار الشام من رجال الأمين ، وهو ابن شبث (نصر بن سيار) الذى غلب على نواحي حلب وما جاورها من الجهات ، وعبر الفرات الى الجانب الشرقي يبغي التغلب عليه . وفي نفس الوقت ولى طاهر الولايات المضطربة ، والتي لم تكن قد دخلت في الطاعة بعد ، وهي الموصل والجزيرة والشام والمغرب . أما عن عرثمة بن أعين فسيكون مصيره الموت بعد قليل .

العلويون وثورة أبي السرايا :

انتهز أعداء الدولة عدم الاستقرار هذا وعملوا على الاستفادة من الاضطراب او الصيد في الماء العكر ، كما يقال ، فظن العلويون ودعاتهم ان الخلافة العباسية قد قضمها الصراع وأن الفرصة مواتية لقيام دولتهم المنتظرة . وفي ١٠ من جمادى الثانية سنة ١٩٩ هـ أعلنوا إمامة ابي عبد الله

محمد بن ابراهيم بن اسماعيل المعروف بابن طباطبا بالكوفة ، مركز العلويين ودعوا للرضا من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنّة .

وربما كانت الظروف التي قامت أثناءها دعوة ابن طباطبا تدعو الى التفكير في موقف قواد المأمون مثل طاهر وهرثمة ، وهل كان لهذا الموقف تأثير غير مباشر على الأقل على سير الحوادث في ذلك الاتجاه . فتنحية طاهر عما كان اليه من الأعمال التي افتتحها ، والعهد بها الى الحسن بن سهل أخي وزير المأمون القوى الذى أصبح يدعى ذا الرئاستين ، كان من شأنه أن دارت الشائعات بأن الوزير غلب على المأمون ، وكان من الطبيعي أن يثير ذلك بني هاشم ووجوه الناس وأن يهيج الفتن . وهذا عن طاهر ، أما فيما يتعلق بهرثمة فان الرجل الذى قام بأمر حرب العلوى أى بقيادة جيوشه هو أبو السرايا الذى كان مخاطر أشبه ما يكون بزعماء العصابات والذى كان يعمل تحت قيادة هرثمة أثناء الصراع بين الأمين والمأمون . فلما استتب الأمن عاد الرجل الى سيرته الأولى . هنا يمكن التساؤل عما اذا كانت علاقة هرثمة قد انقطعت نهائيا بهذا المغامر؟ وهل لم يكن من صالح هرثمة أن تقوم أمام منافسة طاهر بعض المصاعب؟ من الصعب أن نجد أجوبة لهذه الأسئلة .

على كل حال التقى أبو السرايا بابن طباطبا وأصبح قائده . وعندما وجه الحسن بن سهل اليهما جيشا تمكنا من هزيمة هذا الجيش في آخر جمادى الثاني . ولكن في الشهر التالي يموت ابن طباطبا ، والظاهر أن أبا السرايا الذى كان يريد أن يكون صاحب الأمر الفعلي تخلص منه فسمّه ، وأقام مكانه غلاما علويا (محمد بن محمد بن زيد) فتحقق له ما كان يبغي . وعندما أرسل الحسن بن سهل جيشا ثانيا تمكن أبو السرايا من القضاء عليه قضاء تاما .

وعندئذ أحس الطالبيون بقوتهم فانتشروا في البلاد يبشرون بدولتهم ، ودعوا نصر بن شبث بالشام الى بيعتهم فرفض ، وقال : " انما حاربتهم محاماة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم" . وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ،

وسيّر قواته الى البصرة وواسط ونواحيهما ، بل وأكثر من هذا ظن أن أطراف الدولة قد دانت له أو على وشك أن تدين ، فأرسل العمال والولاة الى مختلف الجهات : الى البصرة والى مكة حيث فسد موسم الحج هذا العام ، والى اليمن وفارس والأهواز . وفعلا غلب رجاله على البصرة والأهواز والمدائن واليمن ، كما انسحبت أمام قائده جيوش الحسن بن سهل التي كانت بواسط الى بغداد ، حتى طمع في دخول بغداد نفسها .

وعندما استفحل الخطر ، اضطر الحسن بن سهل الى استدعاء هرثمة الذى كان قد سار نحو خراسان وهو مختلف مع الحسن . ورضي هرثمة بعد امتناع الذهاب لحرب أبي السرايا ، وتمكن من هزيمته بسهولة قرب المدائن ، فارتد أبو السرايا والطالبيون الى الكوفة حيث قاموا بأعمال انتقامية ضد من بها من بني العباس ، فهدموا دورهم وانتهبوها وخربوا ضياعهم ، ولكن لم يلبث أبو السرايا أن خرج منها ودخلها هرثمة (في ١٦ من المحرم سنة ٢٠٠ هـ) . وانتهى الأمر بالقبض على أبي السرايا وقتله وتسيير رأسه الى المأمون .

في هذه الفترة القصيرة التي عرف فيها العلويون سطوة الحكم والسلطان قاموا بأعمال انتقامية شنيعة ، كما أساءوا السيرة . فكما حدث في الكوفة حدث في البصرة حتى سمي زيد بن موسى بن جعفر بزيد النار ، لكثرة ما أحرق بالبصرة في دور العباسيين . وفي اليمن أطلق على ابراهيم بن موسى جعفر "الجزار" ، لكثرة من قتل باليمن وسبى وأخذ من الأموال . وكذلك لم تسلم مكة والكعبة من فعالهم السيئة ، فقام الافطس (الحسين بن الحسن) عامل أبي السرايا بالاستيلاء على ودائع بني العباس هناك وأخذ أموال الناس ، ومال أصحابه على شبابيك الكعبة وأخذوا ما كان عليها من أساطين الذهب اليسيرة وما كان بخزانتها من المال . ولما بلغه موت أبي السرايا ألح على محمد ابن جعفر العجوز في قبول الخلافة وأجبروا الناس على بيعته . وأخيرا تمادى الطالبيون في غيهم وانتهكوا الأعراض . (١)

---

(١) اذ تقول الروايات التي ربما كانت متحيزة ضد العلويين أن الأفطس

وأخيرا تمكنت جنود هرثمة مع جنود والي اليمن المطرود من هزيمتهم . واعتذر محمد بن جعفر بأنها كانت فتنة عمت الأرض ، وخلع نفسه فسير به الى المأمون بمرو سنة ٢٠١ هـ . هكذا قضى هرثمة تماما على الفتنة العلوية التي ربما كان له ضلع في اثارتها ، نكاية في ابني سهل اللذين غلبا على الخليفة او هذا ماسيتهمه به أعداؤه هؤلاء ، فيغضب عليه المأمون ، ويموت بعد أيام في حبس الفضل .

الاضطرابات في بغداد :

أما عن بغداد فكان من الصعب عليها أن تعيش مطمئنة بدون خليفة . وألقيت تبعة عدم مجيء الخليفة الى العاصمة على ابني سهل ، وانتهز الجند تأخر أرزاقهم بعض الوقت ، فثاروا ضد الحسن بن سهل ، وتمكنوا من طرده هو وعماله (ونادوا باسحق بن موسى الهادى نائبا للمأمون على بغداد) . وحاول الحسن ارضاءهم بالمال بعد أن استعمل معهم العنف ، ولكن وصول خبر مقتل هرثمة وهروب بعض العلويين من سجن البصرة زاد من هياج الفتنة . وخرج قائد الحسن بن سهل عن بغداد ، وسار الحسن نفسه من المدائن الى واسط في أوائل سنة ٢٠١ هـ . وفكر الهاشميون وأهل بغداد من الغاضبين على الحسن بن سهل في مبايعة منصور بن المهدى ، وعرضوا عليه الخلافة ولكنه كان مخلصا للمأمون فابى . وأخيرا رضي أن يضبط الأمور باسم المأمون أى أن يكون نائبا له ببغداد والعراق (كانوا يقولون لا نرضى بالمجوسي ابن المجوسي) .

— وثب على امرأة جميلة فامتنعت فاخاف زوجها حتى توارى وأخذها مدة . ووثب علي بن محمد بن جعفر على غلام أسود وهو ابن القاضي فأخذه قهرا . انظر ، ابن الاثير ، ح ٥ ، ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(١) الحسن بن سهل كان يريد أن يوجهه بعد ذلك الى الشام والحجاز فرفض هرثمة وسار دون استئذانه . انظر ، ابن الاثير ، ح ٥ ، ص ١٧٩ .

المطوعـــة في بغداد :

ازاء اضطراب بغداد هذا ، وقيام الفتن بين الناس وانتشار السلـــب والنهب والمفاسد ، من قطع الطريق الى أخذ النساء أو الصبيان علانية ، وقصور السلطات عن ضبط الأمور ، قامت حركة شعبية تهدف الى نشر الأمن والطمأنينة وحسن المعاملة بين الناس . واتخذ القائمون بهذه الحركة المبدأ الاسلامـي الشهير وهو : " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " شعارا لهم . معنـى ذلك أن الحركة كانت في أول أمرها عبارة عن دعوة الى التقوى ولزوم أوامـر الدين . هذه الدعوة ستعطي أعمال الجماعة عندما تضرب على أيـــدى الفساد صفة شرعية ، اذ أن هذا العمل من اختصاصات صاحب الأمر الشرعي .

وأول من فكر في تنظيم هذه الحركة رجل اسمه خالد الدريوش ، دعا هذا الرجل جيرانه وأهل محلته الى معاونته على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو بوجه أصح على تحقيق النصف الثاني من هذا المبدأ : النهـــي عن المنكر . وفعلا قاتل الفساق وتمكن من هزيمتهم . كل هذا في حـــدود الاعتراف بسلطان ولي الأمر . وقام بعد ذلك رجل آخر اسمه سهل بن سلامة وعلق مصحفا في عنقه ودعا الناس لمناصرته في دعوته ، ولكن لما كان كثيـــر من أصحاب هذين الداعيين من عامة الناس وغوغائهم فان منصور بن المهـدى الذى دخل بغداد قاومهما وهزم اصحابهما . وفي هذا الوقت كانت هنـاك مفاوضات بين الحسن بن سهل وأهل بغداد ، من أجل تأمينهم علـــى أن يعطى لهم وللجند من الثوار الأرزاق . وفعلا تم الاتفاق على ذلك وعـــاد الحسن بن سهل الى بغداد (١٣ من شوال سنة ٢٠١ هـ) ، الا أن سهـل ابن سلامة ظل على ما كان عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

العهـد للعلويين :

في غمرة الحوادث الدامية هذه وجد المأمون أن الفضل في ما وصلت اليه الدولة من حالة الاضطراب التي تكاد تودى بالأسرة العباسية ، بـــل

بالأسرة النبوية جميعا ، يعود الى مشكلة وراثة العرش ، التي لم يستطع أسلافه ايجاد حل مرض لها . وفكر هو في ايجاد حل لهذه المسألة . وربما كان المأمون خياليا بعض الشيء فيما فكر فيه ، وربما كان فيلسوفا يريد أن يصل الى أصل الداء . فعلى حين غرة أعلن العلوى علي بن موسى الرضا وليا للعهد بعده ، وكان قد خلع أخاه المؤتمن قبل ذلك سنة ١٩٨ هـ .

ويمكن النظر الى هذا الاجراء من وجهين :

١ــ على أنه عمل سياسي صرف يرمي الى ارضاء العلويين وأتباعهم ومن يعطفون عليهم في أنحاء الدولة المختلفة ، وهؤلاء كانوا عديدين في العراق والحجاز ارضاء مؤقتا ، ورغم سياسة القمع التي كانت الأسرة العلوية هدفا لها لم تزل الأسرة تتمتع بنصيب كبير من التعظيم ، كما أن العباسيين كانوا يخشون أن يجلبوا لأنفسهم ، عن طريق الشدة القاسية ، كراهية الشعب التي كانت نحسا وشؤما على الأمويين .

٢ــ على أن المسألة أعمق من هذا ، وأنها تتصل بشرعية ولي الأمر وأحقية الفرع العلوى من أسرة النبي هو الآخر في الاشتراك في الحكم اشتراكا فعليا ، وهذه نظرة الفيلسوف الزاهد الذى يبحث عن الحقائق الصرفة دون اعتبارات أخرى . ويمكن التفكير في أن المأمون كان متاثرا في ذلك بآراء وزيره الفضل بن سهل .

ويؤيد وجهة النظر الثانية هذه ، أن المأمون زوج العلوى ابنته أم حبيب ، وزوج ابن الرضا وهو محمد ابنة أخرى وهي أم الفضل ، وفي هذا معنى تحقيق وحدة الفرعين العباسي والعلوى . ثم أنه غيّر اللون الأسود ، لون العباسيين للرايات والخلع ، وأحل محله اللون الأخضر شعار العلويين (معنى ذلك حل المشكلة العلوية وقيام دولتهم المنتظرة) ، وربما أيدها أيضا تصرفات المأمون ازاء العلويين بعد وفاة الرضا .

نتائج بيعة الرضا :

ولكن هذا العمل السياسي الغريب أتى بعكس ما كان يتوقع له في العراق ، فبدلا من أن يؤدى الى الهدوء ، أثار الغضب ، اذ احتج جميع العباسيين على اعتزال او تنحي رئيسهم (قالوا لا تخرج الخلافة من ولد العباس) . وفي بغداد رفضوا أداء البيعة للأمير العلوى وفكروا في خلع المأمون نفسه (كان أشدهم فيه منصور وابراهيم أبناء المهدى) وفعلا تنازعوا هذا الأمر أثناء خطبة الجمعة (٢٧ ذى الحجة) وتفرق الناس دون صلاة بعد أن نودى بعم المأمون ، وهو المغني والموسيقي الهاوى ابراهيم بن المهدى ، خليفة ولقبوه "بالمبارك" .

وتمكن ابراهيم من الاستيلاء على الكوفة مركز العلويين ، اذ أن هؤلاء في جانبهم لم يرضوا عن البيعة لعلي بن موسى الرضا بعد المأمون الا أن تكون البيعة للرضا فقط . واستولى كذلك على السواد جميعه ، ثم أخذ قصر ابن هبيرة بفضل اختلاف بعض قواد الحسن بن سهل (١٠ ربيع) . وسيّر ابراهيم جنوده الى واسط حيث كان عسكر الحسن متحصنين ، ولكنهم انهزموا . وفي بغداد نفسها قبض ابراهيم على سهل بن سلامة الذى كان يدعو على رأس رجاله الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (كان قائده عيسى بن محمد بن أبي خالد يسميهم الفساق) فعاقبه وحبسه . وعندئذ عرف المأمون أن بغداد لا تستطيع أن تعيش بدون خليفة ، كما رأى عدم جدوى ولاية العلوى للعهد فقرر ان يعمل شخصيا . والظاهر أن وزيره أمده بمعلومات خاطئة عن الموقف بالعراق وأن صهره الطالبي هو الذى أوضح له الأمر (ابنا سهل أخفيا عنه بيعة ابراهيم) .

---

(١) اتخذ الأمر شكل ما يعرف حاليا بالمناورة البرلمانية ، قالوا نريد أن ندعو للمأمون ، ومن بعده لابراهيم . ووضعوا من يجيبه بأننا لا نرضى الا أن تبايعوا لابراهيم ... وتخلعوا المأمون .

وكان هناك خطر جديد يهدده في المشرق . فالحركات المذهبية التي بدأت بتعاليم أبي مسلم ، والتي تابعه فيها المقنع عن تناسخ الأرواح والحلول الالهي كانت قد انتشرت في آذربيجان بفضل من يسمى بابك الذى اكتسب كثيرا من الأتباع ، والذى ربما بلغت قوته الى حد فصل الولايات الايرانية عن الغرب لو قدر لحركته أن تتسع الى أكثر من ذلك . فهم المأمون اذن خطورة الموقف وترك مرو وسار الى بغداد . ولحسن حظه تمكن من الخروج من المأزق الذى دبّره هو نفسه . ففي الطريق تحدث مآس اشتهر بها التاريخ العباسي اذ يغتال الفضل بن سهل ، ذو الرئاستين ، بسرخس — بتدبير من الخليفة على ما تدل الظواهر . واتجه المأمون نحو طوس لزيارة قبر والده ، والتبرك بالصلاة عليه . وفي طوس مات صهره العلوى مصابا بسوء هضم ، كما يقال (أكل عنبا وكان يحب العنب) ، ولكن من المحتمل أنه مات مسموما (ابن الأثير لا يعتقد في ذلك) ، ودفن الى جانب قبر هارون . ولما كان العلويون سيعتبرونه شهيدا في القريب العاجل ، بنيت حول قبره مدينة جديدة سميت المشهد الرضوى أو " مشهد " التي محت نهائيا مدينة طوس القديمة ، والتي تمثل الآن أكبر عتبات الشيعة المقدسة الى جانب كربلاء .

ولما كان أخو الوزير وهو الحسن بن سهل بمنطقة واسط ، وكان غريبا بالنسبة للعراقيين فانه سيجن بعد قليل ، كما يقال ، ويسجن بهذه الحجة ، وبناء على ذلك فان أهل بغداد بدأوا يهجرون المطالب بالخلافة (ابراهيم بن المهدى) الذى اضطر الى الاختفاء ، بعد أن تسلل قواده الى قواد المأمون وفشل محاولاته للاحتفاظ بمركزه (في ١٦ ذى الحجة سنة ٢٠٣ هـ) ، كما اختفى الفضل بن الربيع أيضا ثم انه تحول الى قائد المأمون ، وسمحوا للمأمون

---

(١) قتل المأمون الذين اتهموا بقتله رغم أنهم قالوا له أنت أمرتنا بذلك . وبعث برؤوسهم الى الحسن بن سهل وأعلمه مادخل عليه من المصيبة وصيره مكان الفضل وتزوج ابنته بوران . انظر ابن الأثير ج ٥ ص ١٩٣ .

(٢) غلبت السوداء على الحسن بن سهل فتغير عقله حتى شد في الحديد وحبس .

بدخول بغداد .

عودة المأمون الى بغداد :

دخل المأمون بغداد في صفر سنة ٢٠٤ هـ / أغسطس ٨١٩م وبصحبته طاهر بن الحسين الذى كان المأمون قد استدعاه من الرقة (للقدوم عليه بالنهروان) . وكان المأمون يتخذ لون العلويين الاخضر شعارا له ، ولكنه لن يلبث أن يغيره بلون العباسيين الأسود (حسب نصيحة طاهر الذى أصبح رئيس شرطة بغداد ، وعامل خراج السواد) . وعمل المأمون على تهدئة العراقيين بأن خفف الاعباء المالية عن أهل السواد بعض الشيء (وهي نفس السياسة المالية التي اتخذها عندما اعتصم بخراسان أول أمره ، فقد أمر بمقاسمة أهل السواد على الخمسين وكانوا يقاسمون على النصف) .

طاهر يلي خراسان :

وفي السنة التالية سنة ٢٠٥ هـ سار طاهر الى خراسان بأمر الخليفة الذى ولاه على المشرق من مدينة السلام الى أقصى عمل المشرق ، اذ كانت الأحوال تنذر بالاضطراب والفتنة هناك . وبعد قليل من الوقت أصبح السيد الذى لا ينازع للولاية جميعا . وتمت ولاية طاهر لخراسان بفضل تدبيره هو نفسه ، وذلك أن صديقه أحمد بن أبي خالد (الوزير) أثار شكوك المأمون حول مقدرة والي خراسان غسان بن عباد (ابن عم الحسن بن سهل منافس طاهر) ، فقال : " أخاف أن تخرج عليه خارجة من الترك فتهلكه " . وربما كان أحمد ابن أبي خالد مغرضا ، فعندما توجه الى خراسان في أيام طلحة بن طاهر ليقوم بأمره وهب له طلحة ٣ آلاف درهم وعروضا بألفي الف درهم . ووهب لابراهيم بن العباس كاتب أحمد ٥٠٠ الف درهم . وبعد مسير طاهر الى المشرق حل ابنه عبد الله بن طاهر الذى خلفه في قتال نصر بن شبث بالرقة محله ببغداد كصاحب الشرطة ، كما ولاه المأمون من الرقة الى مصر وكذلك الجزيرة .

وبعد قليل سيشعر طاهر بقوته حتى أنه في (سنة ٢٠٧هـ — ٨٢٢م) سمح لنفسه باهمال ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة . ورغم أن هـذا الاهمال أو السكوت كان معناه العصيان المكشوف أو اعلان الاستقلال عن الخلافة ، ومع أن الشكوك قالت عن طاهر الذى توفي عقب ذلك مباشرة أنه مات مسموما بتدبير من الخليفة ، الا أن المأمون عين ابنه طلحة واليا لخراسان . وسيظل أحفاد طاهر محتفظين بهذا المركز حوالي قرن — بينما يشغل أفراد الأسرة وظائف مهمة في الغرب منها شرطة بغداد . وهكذا فقدت الدولة ، حقيقة ، ولايتها الشرقية المتطرفة ، كما سبق أن فقدت الولاية الغربية (ولاية الأغالبة) .

حلب والموصل :

ورغم عودة المأمون الى بغداد فان الولايات المختلفة كانت قد تعودت على الاضطراب ، وسيؤدى عبد الله بن طاهر خدمات عظيمة للدولة فيما يختص بادارة الولايات الغربية . ففي منطقة حلب حيث كان نصر بن شبث ، وهو تابع الأمين المخلص والمتعصب للعرب ، قد رفض طاعة المأمون وغلب على الجهة ، فان طاهرا قام بمحاربته ، ولكنه لم يستطع قهره الا سنة ٢٠٩هـ — ٨٢٥م(١) وسير بابن شبث الى بغداد .

وانتهز أحد العباسيين من أتباع ابراهيم بن المهدى وهو المدعو "ابن عائشة" هذه الفرصة ودبر القيام بانقلاب في العاصمة ، ولكن كشف أمره ، وكان جزاؤه القتل والصلب بعد الضرب والحبس (وهو أول عباسي صلب في الاسلام) وفي نفس هذه السنة (٢١٠هـ) قبض على ابراهيم بن المهدى نفسه (وكان متنقبا في زى امرأة) ، ولكنه تمكن من نيل صفح المأمون وعفوه .

---

(١) حصره بكيسوم ، فطلب الأمان على شرط ان يطأ بساط المأمون ، ورفض المأمون فأذعن نصر أخيرا .

أما عن منطقة الموصل فكانت مضطربة كالعهد بها . اذ قامت الحرب بين واليها السيد بن أنس وبين علي بن صدقة المعروف بزريق(١) والي أرمينية واذربيجان وانتهت بقتل ابن أنس سنة ٢١١ هـ . وفي السنة التالية أرسل المأمون احد قواده (محمد بن حميد الطوسي) لحرب بابك وأمره في نفس الوقت أن يصلح أمر الموصل فتمكن من هزيمة زريق وأرسله للخليفة (وأصبح هو واليا للموصل) .

الحالة في مصر :

أما عن مصر فانها عرفت الاضطراب هي أيضا على عهد المأمون ، وكان على عبد الله بن طاهر اقامة الأمن واتباب النظام بها . اذ ثار النزاع القديم بين عرب الجنوب وعرب الشمال بمناسبة النزاع بين الأخوين : فانضم القيسيون للأمين واخذ الكلبيون جانب المأمون . وتحققت وحدة الامبراطورية من جديد . ولكن مصر ظلت مضطربة حتى اضطر المأمون نفسه الى القدوم اليها سنة ٢١٦هـ . ففي سنة ٢١٠ هـ وبعد أن تخلص عبد الله بن طاهر من نصر بن شبث سار نحو مصر وكان قد تغلب عليها عبد الله بن سرى . تمكن هذا الرجل من مقاومة القائد الذى أرسله عبد الله بن طاهر، ولكن عندما توجه ابن طاهر نحو العاصمة المصرية انهزم ابن سرى ودخل المدينة واعتصم بها . ولكن ابن طاهر شدد عليه الحصار حتى استسلم وحمل الى بغداد . ولكن حدث في نفس هذا الوقت أن غزا حشد من الأندلسيين (١٥ الف رجل) الذين نفاهم الحكم صاحب الأندلس الأموى الاسكندرية واستولوا عليها وأثاروا الاضطراب من جديد . ولكن عبد الله تمكن بعد قليل من ارغامهم على الانسحاب الى جزيرة كريت وتسيير دولاب الادارة من جديد (هذا الحادث يدل على مايشبه الوحدة الاسلامية في البحر المتوسط أيام الاضمحلال البيزنطي — سيظل الأندلسيون بكريت حتى يطردهم البيزنطيون منها سنة ٩٦١ م) .

---

(١) زريق أزدى مثل ابن أنس وهو موصلي الاصل ، وكان قد تغلب على المنطقة ما بين الموصل وآذربيجان .

وعاد عبد الله بن طاهر الى بغداد فاستقبله المأمون وأهل المدينة استقبال الفاتحين . وبعد موت أخيه طلحة سنة ٢١٣ هـ تمكن من وضع يده على ممتلكات الطاهريين الوراثية في خراسان (قيل أنه ولى خراسان بعد أبيه ولكنه كان قد عهد بها الى أخيه طلحة) . وقام ولي العهد أبو اسحق المعتصم بإمرة مصر ولكنه أظهر عدم كفاءة اذ وثبت العصبيات العربية من قيسية ويمنية بواليه وقتلوه (ربيع أول سنة ٢١٤ هـ) فاضطر الى السير بنفسه وقتال الثوار وقمعهم بالقوة . ولكن الاضطرابات عادت من جديد (واشترك القبط في الثورة) حتى اضطر المأمون نفسه الى المسير من دمشق الى مصر في أواخر سنة ٢١٦ هـ كما قدم القائد التركي الأفشين اليها من برقة . وأقام المأمون بمصر سنة ٢١٧ هـ حتى هدأت الأحوال (اذ ظفر الأفشين بأهل الفرما وقتل عبدوس الفهري الذى كان قد وثب بعمال المعتصم ، وقيل أن المأمون هو الذى أمر بحفر الثلمة التي في الهرم الاكبر) .

وعن اليمن ، فقد قامت بها ثورة علوية ، فرغم المعاملة الخاصة التي حابى المأمون بها الطالبيين ، دعا عبد الرحمن بن أحمد العلوى لنفسه بالخلافة هناك سنة ٢٠٧ هـ (للرضا من آل محمد) منتهزا تذمر أهل البلاد من العمال . ولكن ما أن وجه المامون أحد قواده (دينار بن عبد الله) الى هناك وخيّر الطالبي بين أمان الخليفة والحرب حتى أعلن الثائر الطاعة فاقتيد الى المأمون .

وكان لهذه الثورة أثرها في نفس المأمون فأمر بمنع الطالبيين من الدخول عليه ، كما منعهم من ارتداء لونهم الاخضر وأمرهم بلبس السواد . وبدأ يكون حذرا بعض الشيء في معاملته لهم ، حريصا على تعقب أنبائهم . فهو عندما تصله شائعات أنكرها عن ميل عبد الله بن طاهر الى العلويين لا يتورع عن أن يدس عليه رجلا يتظاهر بالدعوة للعلويين حتى يتأكد من صحة رأيه في ابن طاهر .

ولكن لم يكن هذا تغييرا جوهريا في سياسته ازائهم فهو دائم العطف عليهم والمحاباة لهم يفعل ذلك طبعا لا تكلفا ، كما تقول النصوص . فهو في نفس السنة ٢١١ هـ ينادى بالحط من شأن معاوية — عدو علي اللدود — ويلعن من

ذكره بخير أو فضله على أحد من أصحاب النبي . وفي السنة التالية ٢١٢هـ يعلن تفضيل علي بن أبي طالب على جميع الصحابة . وكما أنه قبل أن يموت ينص في وصيته لأخيه المعتصم على احسان صحبة بني عمه أولاد أمير المؤمنين علي والتجاوز عن مسيئهم .

بداية بابك الخرمي :

هذه الاضطرابات التي حلت بمختلف الولايات لم يكن لها خطورة الحركة المذهبية الخطيرة التي ترأسها بابك باذربيجان . هذه الحركة التي ظهرت سنة ١٩٢ هـ في أواخر أيام الرشيد ، بداها رجل يسمى جاويدان بن سهل وستظل تقوى وتشتد طيلة عهدى الأمين والمأمون حتى تصبح خطرا داهما على عهد المعتصم الذى سيتمكن بفضل قواده الترك من التغلب على الثوار . ولا شك في أن الانقسام الذى أضعف الدولة أيام الأمين والاضطرابات التي تلت موته كانت من الأسباب التي مكنت الثوار من الاعتصام بجهتهم ومقاومة الحملات الضعيفة التي كانت توجهها لهم الحكومة المركزية . والحقيقة أنه لو قدر للرشيد أن يعيش بعض الوقت لقضى على الحركة في مهدها . اذ أنه في نفس السنة التي بدأت فيها الحركة (١٩٢هـ) وجه اليهم قائدا على رأس ١٠ الاف رجل فنكل بهم . وكان الرشيد حازما إزاء الثوار فأمر بقتل اسراهم وبيع سباياهم . وظلت الحركة ضعيفة حتى سنة ٢٠١ هـ حين ظهر على رأسها رجل صعب المراس هو بابك الخرمي[1] الذى أظهر الى جانب كونه داعية سياسيا ودينيا كفاءة عسكرية ممتازة فدوخ الجيوش تلو الجيوش .

ففي سنة ٢٠٤ هـ كانت الحرب سجالا بينه وبين قائد الخلافة يحيى بن معاذ . وفي سنة ٢٠٦ هـ هزم عيسى بن محمد بن أبي خالد ، وفي سنة ٢٠٩هـ ولى المأمون زريق وهو علي بن صدقة على أرمينية واذربيجان وأمره بحرب بابك ، ولكن

(١) صاحب البند ، ادعى أن روح جاويدان وتفسيرها "الدائم الباقي" دخلت فيه . ومعنى خرم "فرح" (لذة) والرجل منهم ينكح أمه وأخته وابنته ولهذا يسمونه دين الفرح (شبه مع الزندقة — المزدكية) .

هذا اكتفى بأن أثار الاضطراب في الموصل والجزيرة — كما رأينا . وارسل المأمون قائدا آخرا (هو محمد بن حميد) فتك بزريق وتوجه الى اذربيجان لملاقاة بابك . وتوغل ابن حميد في البلاد الجبلية نحو معاقل الثوار متخذا الحيطة في سلوك الدروب والمفاوز وحراستها ، ولكن فاجأته قوات بابك في مضايق الجبال من كل وجه فانهزم الجيش وقتل ابن حميد . وظل الثائر معتصما بجبال اذربيجان حتى وفاة المأمون سنة ٢١٨ هـ .

الى جانب الثورة المذهبية المسلحة هذه ، عرف مركز الدولة حركة دينية أشبه ما تكون بحركة الزنادقة على عهد المهدى ، وهي التي نسميها بمحنة خلق القرآن . اذ اهتم المأمون بالمسائل الدينية ، وتدخل في الجدل بين المعتزلة وأهل السنّة . ومع أن العامة لم تهتم كثيرا بمسألة القضاء والقدر الا انها اهتمت اهتماما بالغا بمشكلة خلق القرآن . اذ اعتنق المأمون رأى المعتزلة في أن القرآن مخلوق وأظهر ذلك سنة ٢١٢ هـ وبدأ يجبر القضاة والفقهاء والأئمة على اعلان " خلق القرآن " . واتخذ اجراءات شاذة ضد من لم يعتنق هذه الفكرة فترك الاستعانة به وربما ذهب الى أبعد من ذلك فعاقبه .

وكان الهدف من هذه الحركة مزدوجا كما هي العادة . فالخليفة الى جانب اهتمامه بالحياة الروحية لشعبه ورغبته في شغل رعيته بهذه المسألة واكتساب محبة الرعية أيضا ، كان يعمل على أن تكون هذه المشكلة الدينية وسيلة لأن يتخلص (من أعدائه السياسيين ممن لا يدينون بهذه الفكرة) وعرف المأمون كيف يربط بين الجهاد في سبيل الله ضد بيزنطة وبين هذه الحركة الدينية . فهو يهتم بها اهتماما جديا في أواخر أيامه أثناء وجوده سنة ٢١٨هـ في ثغور الروم ، تماما كما حدث أيام المهدى من اهتمامه بأمر الزنادقة أثناء توجهه لحرب الروم . فهو يكتب الى بغداد في امتحان الفقهاء والقضاة ، وطلب انفاذ بعضهم اليه ليمتحنهم شخصيا .

ومن المهم متابعة استجوابات هؤلاء الأشخاص المهرة الذين يبحثون

عن أجوبة لا تجرح ضمائرهم ولا تضر بمبادئهم . فعندما سئل بشر بن الوليد عن رأيه في القرآن قال : " قد عرّفت مقالتي أمير المؤمنين غير مرة " . فلما قيل له قد تجدد كتاب أمير المؤمنين ، قال : "أقول القرآن كلام الله" . وعندما رد عليه بأنه لم يسأل عن هذا وانما المطلوب معرفة ما اذا كان القرآن مخلوقا ! قال : "الله خلق كل شيء" . قيل له : فما القرآن شيء فقال "نعم" ، قيل له : فمخلوق هو ، قال : "ليس بخالق" . . .

ولما سئل أحمد بن حنبل ، ماتقوله في القرآن ، قال : "كلام الله" ، قيل له "مخلوق هو" ، كلام الله ما أزيد عليها ، فامتحن .

وكتب اسحق بن ابراهيم (الممتحن — خليفة المأمون ببغداد) مقالات القوم واحدا واحدا ، وأرسلها الى المأمون فأجاب بان ذمهم . ولكنه كتب اليه ان يمتحن بشر بن الوليد وابراهيم بن المهدى (المدعي الخلافة ببغداد سابقا) وأمره أن يضرب عنقهما ان لم يجيبا ، أما عن سواهما فيحملون الى معسكره موثقين بالحديد . ففعلا شدّ أحمد بن حنبل في الحديد ومعه آخر (محمد بن نوح) ووجها الى طرسوس في انتظار عودة المأمون من أرض بيزنطة الا أن خبر موت المأمون وصلهم وهم بالرقة ، فعادوا الى بغداد .

الحرب مع الروم :

أما عن سياسة المأمون ازاء بيزنطة . فرغم أنه لم يكن معتادا قيادة الحملات العسكرية شخصيا الا أنه اضطر في آخر أيامه الى القيام بالعمليات الحربية بنفسه ضد امبراطورية القسطنطينية . فبعد انقطاع الغارات الاسلامية بمناسبة الصراع بين الأمين والمأمون ، ربما كانت مساعدة البيزنطيين لبابك ، الذى ظل دائما يرفع راية العصيان باذربيجان والذى ازداد خطره أخيرا سببا في ان يقوم المأمون بغارة كبيرة على آسيا الصغرى سنة ٢١٥هـ — ٨٣٠م وخلال ٣ سنوات متتابعة استمر الخليفة في الاشتراك في الصوائف .

ففي أول سنة ٢١٥ هـ توجه على رأس حملة كبيرة الى ثغور الروم

واستصحب معه ابنه العباس ، كما استدعى أخاه المعتصم من مصر ، والتقى به هذا الأخير قرب الموصل . ومن الموصل اتجه الى منبج ثم دابق ثم انطاكية ثم الصيصة وطرسوس . ومن طرسوس دخل الى الأراضي البيزنطية في جمادى الأولى . هذه الغارة عمت كثيرا من نواحي آسيا الصغرى . فالعباس دخل من جهة ملطية يخرب ويدمر ، وفتح المأمون حصن ماجدة بالأمان ثم حصن قرة عنوة وهدمه . ووجه القائد التركي أشناس الى حصن سندس ، ووجه قائدين آخرين الى حصن سنان ، فخضع قائدا الحصنين لشروط المسلمين . وعندما حل الشتاء عاد المأمون الى الشام (دمشق) .

ولما تحسنت الأحوال الجوية في السنة التالية ٢١٦ هـ رجع المأمون الى أرض الأعداء ، وكان الامبراطور قد قام بأعمال انتقامية ضد طرسوس والصيصة وتمكن المسلمون من الاستيلاء على عدد كبير من الحصون (٣٠ حصنا افتتحها المعتصم) لا سيما هرقلة التي خرج اهلها عنها بعد أن أخذوا الامان ، وكذلك مطمورة . واستمرت الصائفة ٤ اشهر (جمادى الاولى — ١٤ شعبان) ، ثم عاد المأمون من جديد الى الشام .

وفي سنة ٢١٧ هـ حاصر الخليفة أكبر الحصون البيزنطية على الحدود وهو حصن لؤلؤة طوال الصائفة تقريبا (١٠٠ يوم) ثم رحل عنه تاركا أحد قواده (عجيف) على حصاره . واضطر الباسيليوس تيوفيل Thècphilos الى طلب السلم بعد سقوط الحصن صلحا (أرسل ملك الروم يطلب المهادنة فلم يتم ذلك) .

وفي سنة ٢١٨ هـ سيعود المأمون الى أرض ثغور الروم ويوجه ابنه العباس الى طوانة ليحصنها بالحاميات . وتم بناء الحصن فعلا وأرسل الى البلدان في طلب المقاتلة للحصن ، وأجرى لهم العطاء السخي (الفارس ١٠٠ درهم والراجل ٤٠ درهما) ولو ان هذا لم يتم . ففي هذه الاثناء مرض المامون مرضه الذى مات منه ، اذ فاجأته المنية قرب طرسوس حيث دفن .

الفصل العاشر

خلافة المعتصم :

بعد وفاة المأمون لم يعتل العرش ابنه العباس بل اعتلاه أخوه أبو اسحق محمد المعتصم بن الرشيد ، الذى كان يلي مصر حتى ذلك الوقت والذى أوصى له المأمون بالخلافة من بعده . وعهد المأمون هذا بالخلافة لأخيه بدلا من ابنه يدل على أنه لم يكن مهتما كثيرا بان تكون الخلافة في عقبه- كما كان الحال بالنسبة لاسلافه - وأنه كان زاهدا فعلا في السلطان أيام ولى عهده الطالبي وأنه كان يفكر في ذلك الوقت في حل المشكلة العلوية العباسية .

ولعصر المعتصم اهمية كبيرة في تاريخ الاسرة العباسيه بصفة خاصة وفي تاريخ الاسلام بصفة عامة . ففي أيامه بدأ الترك من حرس الخليفة يظهرون في مركز الامبراطورية ويستولون شيئا فشيئا على الوظائف الكبرى في الجيش ، ويقضون على نفوذ الفرس في عاصمة الخلافة ، ويمهدون للفترة التالية التي يمكن تحديدها ببناء سامرا ثم بظهور وظيفة أمير الأمراء على عهد المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ - ٩٣٢ م) ، وغلبة المملوك (كبير قواد الحرس التركي) على السيد (الخليفة) والتي يمكن أن نسميها دولة الترك . وطبيعي ألا يتم هذا التطور فجأة في خلافة المعتصم التي تعتبر استمرارا لعهد المأمون . فالمأمون هو الذى بدأ استعمال الحرس التركي ، وكبار قواد المعتصم من الترك هم أنفسهم قواد المأمون ، كما أن العاصمة التركية الجديدة - سامرا - ابتدئ في انشائها على عهده كذلك (بل على عهد الرشيد من قبل) .

اعتلى المعتصم عرش بغداد عقب وفاة المأمون دون نزاع ، اذ أن الجيش الذى كان قد بايع ابن المأمون وهو العباس ، ترك المناداة به خليفة عند وصول المعتصم واعتراف العباس به . ولكن الاضطراب الذى عاناه العراق كان يظهر الى حد كبير كيف تدهورت الأسرة العباسية وكيف انحطت هيبتها كما لم يحدث من قبل .

ففي جنوب العراق في منطقة المستنقعات بين البصرة وواسط حيث كان

الساسانيون قد أقاموا قبيلة هندية وطنية هي قبيلة الجات Jat المسماة بالعربية "الزط" ، التي تركت وطنها لأسباب غير معروفة ، كما حدث لأقاربهم من البوهيميين . وبينما كان المسلمون يستعملونهم فيما مضى بثقة في الجيش فانهم أصبحوا على عهد المأمون من الخارجين على الدولة ، فضايقوا القوافل ، وعبثوا بالطرق بين بغداد والبصرة لسنوات عديدة . ووجد المعتصم نفسه مضطرا لأن يتخذ اجراءات شديدة ضدهم فوجه اليهم القائد العربي عجيف بن عنبسة الذى أقام نقطا للمراقبة في جميع أنحاء المنطقة وسد الأنهر والقنوات التي كانوا يتسربون منها ، وأخذ عليهم المسالك . واستمرت هذه العمليات طوال ٧ أشهر عام ٢١٩ هـ لحقت بالزط أثناءها خسائر كبيرة نسبيا ، اذ أسر منهم في معركة واحدة ٥٠٠ رجل وقتل ٣٠٠ رجل ، وانتهت باستسلامهم في نهاية هذا العام .

وبلغت عدة القبيلة المستسلمة ١٢ ألفا من المقاتلة ، و ٢٧ ألفا من النساء والصبيان ، وشحنوا جميعا في السفن (سفنهم) ودخلوا بغداد في شكل عرض بديع ، وهم على هيئة الحرب ينفخون في البوقات أثناء مرورهم أمام سفينة المعتصم . وتخلص الخليفة منهم بعد ذلك بان سيرهم (نقلهم) الى قلعة عين زربة على الحدود البيزنطية في منطقة قاليقلا (ومن هناك مروا الى اوروبا كما يظن بعد ان أغارت الروم عليهم فاجتاحوهم فلم يفلت منهم أحد كما يقول ابن الاثير) .

ثورة العلويين في خراسان :

وفي نفس هذا الوقت ثار محمد بن القاسم العلوى بالطالقان من أرض خراسان وكان هذا الرجل يقيم في المدينة ملازما مسجد النبي ، فأتاه كثير من الخراسانية وبايعوه بالخلافة وطلبوا اليه المسير الى المشرق ففعل . وهناك ناهض بفضل أتباعه العديدين جيوش عبد الله بن طاهر ولكنه انهزم أخيرا وقبض عليه بمدينة نسا فسير به الى المعتصم حيث حبس عند أحد رجال الحاشية

من الحرس التركي (مسرور الخادم الكبير) . وربما أثارت هذه الثورة حقد المعتصم على العلويين . ففي السنة التالية ٢٢٢ هـ توفي محمد بن علي الرضا زوج ابنة المأمون ببغداد ، وهو في عنفوان الشباب (٢٥ سنة) وهناك ما يدعو الى التساؤل عما اذا كان للخليفة يد في تدبير هذه الوفاة .

الحرس التركي وسامرا :

وكان النزاع بين العرب والفرس الذين حاباهم المأمون بشكل محسوس من الأسباب التي الجأت المأمون في أوائل سني حكمه الى العهد بحراسته الخاصة الى فرقة من المماليك (العبيد) من الترك وغيرهم . هذا الحرس كان يتكون على عهد المعتصم من أكثرية من المغاربة (أهل الخوف من مصر سماهم المغاربة) وجزءا من الترك (من سمرقند وأشروسنة وفرغانة وسماهم الفراغنة) . كما أن تكوين الجيش العباسي تغير هو الآخر ، ومنذ عهد المعتصم ظهرت فرق المرتزقة الحقيقية من الترك والبربر والصقالبة والسودان .

هؤلاء الترك كانوا يأتون من البلاد الواقعة وراء نهر جيحون كاسرى — فالصراع المستمر ضد شعوب الترك فيما وراء النهر سمح بتقدير قيمتهم العسكرية — أو بصفة جزء من الضريبة التي يرسلها الأمراء الوطنيون . كما كانوا يأتون عن طريق تجارة الرقيق . وحتى ذلك الوقت كانت قيادة هؤلاء الجند معهودة الى قواد من غيرهم . ولكن المعتصم ظن أنه من حسن السياسة ضمان زيادة اخلاصهم عن طريق شغل مراتب القيادة بمماليك من بينهم أيضا . وحدث على أيامه أن هؤلاء القواد الذين أوجدتهم الصدف أصبح لهم من النفوذ في الادارة ماجعلهم رؤساء الدولة فعلا .

وأسكن المعتصم هذا الحرس ببغداد ، وكان هؤلاء المماليك الذين يلبسون الحرير ويرفلون في الديباج يعاملون العاصمة معاملة البلد المفتوح . فقد كانوا حفاة يركبون الدواب فيركضونها الى الشوارع فيصدمون الرجل والمرأة والصبي فيأخذهم الأبناء عن دوابهم ويضربونهم وربما هلك أحدهم فتأذى بهم الناس .

وتمتع رؤساء الترك ممن ولدوا عبيدا أمثال الأفشين بكل أفضال الخليفة. فكان تصرف هؤلاء الأجانب (المماليك) والمكانة التي أعطيت لهم في الدولة سببا في اثارة عدم رضاء أهل المدن من العرب والخراسانية الذين فقدوا مراكزهم. ولذلك أصبحت بغداد عدوة للعباسيين، وكان هذا هو السبب الأول في أن قرر المعتصم الانتقال الى سامرا سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م، على مسافة مائة كيلومتر أعلى بغداد على الضفة الشرقية لدجلة.

وفي الاطار الزاهر الذى أحاط بسامرا التي كان كل خليفة يزيد من بهائها ببناء العمارات الفخمة، ظهر وكان الدولة تحت سلطة هؤلاء الترك تأخذ مع مرور الوقت شكل دولة استبدادية. فامير المؤمنين يعيش في رعب من الخيانات التي كان يتلافاها بوحشية: اذ تتتابع ثورات القصر بشكل سريع منتظم، وتنتهي باغتيال الأمير أو تتفادى بقتل المقربين من ثقاة رجال الحاشية أو كبار القواد من الذين يشك في أمرهم. وخلال هذه الأحداث التي كانت تتوالى بشكل رتيب انتهى الأمر بأن سيطر رؤساء الترك على ادارة الدولة. ولقد لاحظ هذا الخطر الذى كان يهدد العرب منذ وقت مبكر بعض النابهين من كتاب العرب. فمن الغريب ان يضع ابن سعد في كتابه "الطبقات الكبرى" الذى صنفه على عهد المعتصم حديثا منسوبا الى النبي، وهو مصطنع في اغلب الظن، يقول: "الترك أول من يسلب أمتي ماخولوا".

الترك والقضاء على ثورة بابك:

والى نشاط المعتصم وقوة هؤلاء الترك يرجع الفضل في القضاء على الثورة البابكية الخرمية باذربيجان. وقائد المعتصم التركي الشهير الذى سيقضي على هذه الحركة هو حيدر بن كاوس المعروف بالأفشين، لقب أجداده الذين كانوا أمراء أشروسنة القدامى من أرض ماوراء النهر. فعقب وفاة المأمون مباشرة أرسل المعتصم جيشا على رأسه اسحق بن ابراهيم بن مصعب الى همذان حيث كان الخرمية قد تجمعوا. هذا الجيش تمكن من الايقاع بالثوار فقتل منهم عددا كبيرا (مابين ٦٠ و ١٠٠ ألفا ؟)، وفر الباقون متسربين الى الاراضي

البيزنطية ، ورجع اسحق الى بغداد يحمل الأسرى منهم .

بعد ذلك عزم المعتصم على أن يضع حدا للثورة الخطيرة بأن يوجه اهتمامه الكلي ، وأن يسخر كل موارد الدولة لذلك الغرض ، بعد فشل الحملات السابقة في اقرار الأمور . وجه المعتصم الافشين سنة ٢٢٠ هـ لحرب بابك وأمده بالقواد والاموال ، وعمل الافشين بنشاط وحزم في وضع الخطة المناسبة للفوز بالثائر الصعب المنال ، فأمر باعادة بناء وتحصين المراكز التي خربها الثوار وشحنها بالمقاتلة ، كما ضبط الطرق والحصون ووزع قواده في النقاط الاستراتيجية المهمة . وبذلك عملت حاميات الخلافة على الايقاع بسرايا الخرمية حربا وغدرا . كما استعمل الافشين الذى استقر برزند سلاح المال في شراء الجواسيس والعيون من رجال الاعداء .

ونجحت هذه الخطة ، اذ بفضل الجواسيس تمكن الافشين من الايقاع برجال بابك الذين خرجوا ليقطعوا الطريق على قافلة المال التي أرسلها المعتصم للجيوش المحاربة . وكان الخرمية قد قتلوا صاحب النهر ومن معه من الجند ولبسوا لباسهم وتنكروا ليأخذوا صاحب القافلة . ولكن رغم ذلك كان مركز جيوش الخلافة صعبا ، كما كانت خطوط امداداتهم مهددة ، اذ تمكن الخرمية من بعض قوافل تموين الافشين فاصابوها — وأخذوا ألف ثور غير الدواب التي كان قد أرسلها صاحب مراغة — حتى قحط العسكر لذلك وأصابهم الضيق.

واستمرت المناوشات سنة ٢٢١ هـ وكانت الانتصارات والهزائم متبادلة ، فعندما تهور بغا الكبير حتى مركز قيادة بابك (في قرية البذ) خرج عليه عسكر بابك وهزموا جنوده فرجع مدحورا . ودبر الافشين خطة ليهاجم هو وبغا الخرمية من وجهين حتى يأخذوهم فجأة ، ولكن شدة البرد حالت دون تنفيذها ، كما رسمت . فمع أن الافشين تمكن من هزيمة الخرمية الا أن جيش بغا قاسى ويلات شديدة عندما التجأ الى قمة أحد الجبال لقضاء الليل مخافة العدو ، وعند انسحابه فاجأه أصحاب بابك في المسالك الوعرة فلم يفكر الجند سوى في الهرب بأى ثمن ، فالقوا سلاحهم ، واكتفى الخرمية من جهتهم بأخذ المال والسلاح ولم

يتبعوهم . وبحلول فصل الشتاء واشتداد البرد توقفت العمليات العسكرية ووزع الجند في المشاتي انتظارا لحلول الربيع .

وفي سنة ٢٢٢ هـ أرسل المعتصم الامدادات والأموال ، عندما تحسنت الأحوال الجوية ، الى افشين ، وعادت المناوشات التي اشترك فيها بخارى — خداة الى جانب جيش الخليفة ، ولكنها انتهت نهاية حاسمة ، اذ سقطت قلعة بابك ، ودخلها المسلمون بعد هرب بابك الذى أسر بعد قليل .

ويتلخص موقف كل من الطرفين المتحاربين وتكتيك المعركة فيما يلي : في أول الأمر كانت دوريات الافشين تواصل العمل (نوائب) على ظهور الخيل نهارا وليلا ، حسب أوامر المعتصم ، حتى ضج الجند وطلبوا وضع حد للمأساة الدامية والقيام بعمل حاسم . وخلال رنين السلاح وصهيل الخيل لم تكن العلاقات منقطعة تماما بين بابك والافشين ، اذ تبودلت المراسلات بينهما، اذ تقول النصوص أن بابك ارسل قثاء وبطيخ للافشين ، وأن الافشين أطلع رسول بابك على تحصينات جيش الخلافة ، وذلك بغرض استمالة الواحد منهما الى رأى الاخر . وخلال هذه المحادثات قام الافشين باتخاذ بعض المواقع في الجبال وحصنها . وبدا ينفذ خطته للهجوم ، وذلك بتقدم طلائعه نحو مراكز الخرمية لمعرفة مواضع الضعف فيها ، واتخاذ الاحتياطات المناسبة لتلافي هجوم خلفي قد يقصد منه قطع اتصالهم ببقية الجيش، فكانت حراسة خط رجوع الجيش (عن طريق المفازة ، على راس العقبة) موكولة الى بخارى — خداة .

أما عن بابك فانه كان لا يحارب حرب جيوش مكشوفة بل لجا الى حرب العصابات الكبيرة ، فكان يوزع أصحابه على شكل كمناء يعتمدون بشكل خاص على عنصرى الاختفاء (التمويه) والمفاجأة في المواقع الاستراتيجية الحساسة . وظهرت جدوى جماعات الكمناء هذه عندما هاجم أحد جناحي جيوش الخليفة قلعة الخرمية فجأة ، وكان هدفهم احتلال موضع العقبة حيث يقف بخارى — خداة في المؤخرة .

وفي النهاية وجه الافشين الهجوم الحاسم ضد قلعة بابك ، بعد أن حمّس

الجند وفرق فيهم الأموال . ورد البابكية على هجوم المتطوعة بأن فتحوا بـاب القلعة وتمكنوا من رد المتطوعة وأبعدوهم عن السور ، وبذلك تحطم الهجـوم ، واضطر الافشين الى تغيير خطته واستعمال الدهاء والخديعة ، فالى جانـب تعبئته السابقة جهز جماعة من رجاله وأمرهم باحتلال مركز استراتيجي فـوق قمة الجبل الذى يتحصن فيه الخرمية ، وأن ينتظروا تحرك الجيش ضد مراكـز بابك من أسفل هذا الجبل فينزلون على العدو بالنشاب والصخر ، وبذلـك يؤخذ من الجهتين .

وتم تنفيذ الخطة بعد أسبوعين ، اذ أرسل بعض الفرق من التـرك (الفراغنة) الى أسفل الجبل الذى كان يتحصن فيه القائد الخرمي اذين . وعندئذ وثب بهم كمين بابك فانحدرت الجماعة التي كانت في أعلى الجبل ، وحدثـت لهؤلاء الآخرين مفاجأة لم يكونوا يتوقعونها ، اذ انهار عليهم سيل من الصخر كان قد أعده أذين قائد بابك فوق عجلة بقمة الجبل ، الا أنهم تفادوهـا واضطر الخرمية الى النزول الى السهل حيث هاجمهم الجيش الخلافي فـي الوادى . وتمكن الجيش بعد مصاعب جمة ، مثل الآبار التي كانت تقع فيهـا الخيل والتي حفرها البابكية ، وكان الفعلة يقومون بردمها ، من دخول القلعـة واحراق قصورها وتخريبها لتفادى الكمناء فيها . واخذ الافشين أولاد بابـك وعيالاته ، وفك من أسرى المسلمين ٦٠٠رجل وامرأة و ٧ آلاف مابين امرأة وطفل .

نهايـة بابـك :

وفيما يختص ببابك نفسه الذى أراد أن يكتسب بعض الوقت عندما طلب امهاله قليلا حتى يستسلم فانه هرب في أحد أودية اذربيجان التي تتصل بأرض أرمينية ووصل كتاب المعتصم بالأمان لبابك ولكن هذا رفض الاذعان وفر وحده الى جبال ارمينية حيث أخذ بالحيلة وأرسل الى الافشين . وفي أوائل سنة ٢٢٣ هـ استقبلت العاصمة الجديدة سامرا الافشين باحتفال ضخم ، اذ شهّر بالثائـر المهزوم فأركب أحد الفيلة واستقبله الواثق بن المعتصم ثم قصد به الافشيـن الى قصره .

وانتهت قصة بابك نهاية الذين يفسدون في الأرض ، ففي عصر الخليفة المعتصم نفسه قطعت يدى الثائر ورجليه ، وفصل رأسه بعد ذلك وأرسلت الى خراسان ، كما صلب جسده بسامرا نفسها . ولقي أخو بابك وهو عبد الله نفس المصير ببغداد ، وعلق بدنه في الجانب الشرقي من دجلة بين الجسرين . ووصل المعتصم الافشين بالهدايا والجوائز الضخمة ، كما أن البلاد التي فتحها اى اذربيجان أصبحت ولاية له .

أحوال المشرق بعد بابك :

لم يكن معنى القضاء على الحركة الخرمية باذربيجان وأرمينية استقرار الأمور بمشرق الدولة الذى عرف سنوات أخرى من الاضطراب ، اذ تمخض القضاء على الحركة الخرمية عن ثورة قائد الافشين منكجور ببلاد بابك ولكن قضي عليه بسهولة . وبعد ذلك كان للأهواء الشخصية والصراع من أجل النفوذ بين كبار رجال الدولة مثل عبد الله بن طاهر والافشين أثرها المباشر في اثارة الفتن (تماما كما حدث أيام طاهر وهرثمة وابني سهل) . اذ ينسب الى الافشين أنه شجع ملك طبرستان الوطني (جنوب بحر قزوين) مازيار على الثورة ضد عبد الله بن طاهر على أمل أن يستفيد هو من ذلك عندما يستدعيه الخليفة للسير الى خراسان لاقرار النظام بدلا من ابن طاهر . اذ كان ملك طبرستان هذا على اتصال ببابك والحركة الخرمية . وفعلا أعلن مازيار الثورة على عبد الله بن طاهر سنة ٢٢٤ هـ وهدد جرجان التي فر أهلها الى نيسابور .

وقام عبد الله بن طاهر برد فعل مباشر فوجه عمه الحسن بن الحسين في جيش كثيف لحفظ جرجان ، كما وجه المعتصم قواده لحرب الثائر . وتمكن جند الحسن بن الحسين من أخذ قائد مازيار الذى كان يهدد جرجان على حين غفلة من جنده . كما استعمل حيان بن جبلة مولى عبد الله الحيلة واجتذب أخا مازيار وبعض اقربائه — الذين كانوا ينازعونه ملك البلاد — واتفق معهم على أن يسلموا مازيار نظير احتفاظهم بولاية بلادهم ، وهذا ماحدث فعلا ، فأخذه الحسن بن الحسين وأنفذه الى المعتصم ثم توجه الى هرمز آباد عاصمته فاحرق

قصره ونهب أمواله .

وفي سامرا شهّر بالثائر الطبرستاني الذى أدخل العاصمة على بغل بعد أن امتنع عن ركوب الفيل — مثل بابك — وأمام المعتصم ضرب بالسياط حتى مات (٤٥٠ سوطا) ثم صلب الى جانب شبيهه الثائر الاذربيجاني (بابك) .

أما عن منطقة الموصل ، الممعنة في الثورة دائما ، فان الاكراد أثاروا الفتنة فيها وتمكن قائدهم " جعفر بن فهرجس " من هزيمة والي المعتصم الأزدى ، فأرسل الخليفة قائده التركي إيتاخ الذى تمكن من قتل الثائر في معاقله بالجبل (جبل داسن) ونكل بالاكراد واستباح اموالهم ونساءهم ونقل كثيرا منهم الى منطقة تكريت (بين بغداد والموصل على دجلة) .

ولم تسلم بلاد الشام من القلاقل والفتن في أواخر أيام المعتصم . ففي سنة ٢٢٦ هـ قتل صاحب الخراج التركي بدمشق . وفي السنة التالية ٢٢٧هـ ظهرت أماني البلاد من جديد متبلورة في فكرة السفياني المنتظر ، وذلك عندما خرج بالرملة من نواحي فلسطين رجل من اليمن أطلق عليه اسم "المبرقع اليماني " نظرا لأنه كان يظهر متبرقعا .

ثار هذا الرجل عندما انتهك الجند حرمة بيته (ضرب أحدهم زوجته عندما منعته من النزول في الدار أثناء غياب زوجها) . وبدأ ثورته بالدعوة الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم ادعى أنه أموى فتبعه بعض فلاحي الناحية ، كما استجاب جماعة من رؤساء اليمانية ، منهم رجل يقال له ابن بيهس . وأرسل المعتصم وهو في فراش المرض أحد قواده لحرب الثائر ، ولكن القائد وجد أن أتباع المبرقع كثيرين فانتظر أوان الزراعة حتى ينصرف المبرقع الى فلاحة الارض . ولكن لن يشهد المعتصم القضاء على هذه الثورة اذ سيتم ذلك على عهد الواثق — خليفته .

الحرب مع الروم :

بقي الصراع ضد القسطنطينية الذى استمر على نفس المنوال التقليدى للدولة الا أنه سيشتد ، بصفة خاصة ، بعد القضاء على الثورة البابكية . فالمعتصم بدأ خلافته بالثغر عند موت المأمون قرب طرسوس ، ولما كان همّه العودة الى عاصمة الخلافة فانه أمر بتخريب ما كان المأمون قد أمر ببنائه من حصن طوانة ، وحمل ما أمكن حمله من السلاح والعتاد وأحرق الباقي ، كما أعاد المقاتلة الى بلادهم التي أتوا منها . ثم انه عندما تخلص من الزط أرسلهم سنة ٢٢٠ هـ الى الثغر (عين زربة) حتى يتخلص من ارهاق العدوين معا .

بعد ذلك شغلت الدولة بحرب بابك ، فلم تعد تضغط على حدود بيزنطة التي انتهزت فرصة الثورة وساعدت الخرمية من جهة أرمينية ، ثم انتهك الباسيليوس تيوفيل حدود الاسلام في شمال الشام والجزيرة على أمل التخفيف من ضغط جيوش الخلافة على الثائر حسب طلب بابك نفسه . وأغار تيوفيل ومعه ثوار الجبال الذين لحقوا بالبيزنطيين على حصون المسلمين مثل زبطرة وملطية سنة ٢٢٣ هـ ، وقتل الرجال وسبى النساء ، وتقول الروايات أنه مثل بمن وقع بين يديه من المسلمين فسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم .

عظم الأمر على الخليفة فأمر بالتعبئة العامة ، كما أرسل بسرعة بعض القواد لمعونة أهل زبطرة ، وكان الباسيليوس قد رحل عنها . ولحسن حظ الدولة أن الافشين كان قد انتهى من بابك فوجه نشاطه ضد بيزنطة . واستعد المعتصم استعدادا هائلا وسار من سامرا سنة ٢٢٤ هـ (وقيل سنة ٢٢٢هـ) وعزم على مهاجمة أعظم حصون البيزنطيين في وسط آسيا الصغرى وهو حصن عمورية . واستصحب المعتصم من قواده الترك الافشين وأشناس وإيتاخ ، ومن قواد العرب جعفر بن دينار وعجيف بن عنبسة .(١)

---

(١) قال له وجه خياطه يعني جعفر بن دينار وطباخه يعني إيتاخ .

دخل المعتصم أرض الروم من جهة طرسوس من ناحية ساحل البحر وأمر قواده بالمسير في مختلف الاتجاهات ، وكان على أشناس معرفة أخبار الباسيليوس ، وكان هذا الأخير يتجه نحو الافشين الذى توغل في آسيا الصغرى حتى وصل قرب أنقرة ، وهزم الامبراطور ، فجلى أهل أنقرة عن المدينة ، وعلم المعتصم الذى كان يتتبع خطى الافشين بهذه الموقعة من أهل المدينة عندما أوقع بهم جند أشناس واستولوا على ماكان معهم من الماء والعلف الذى كان الجيش في حاجة اليها . وتوجه الباسيليوس بعد الموقعة الى عمورية . وقدم الافشين على المعتصم بأنقرة حيث نظم الخليفة جيوشه في حملة موحدة فاحتل هو قلب الجيوش ، ووضع أشناس في الميسرة والافشين في الميمنة ، كما أمر كلا من الجيوش الثلاثة باتخاذ نفس التشكيل (ميسرة وميمنة وقلب) .

وتقدمت الجيوش بعد الاستعداد تحرق القرى وتخرب البلاد حتى بلغت عمورية (بين أنقرة وعمورية ٧ مراحل) فأحاطوا بها ، وقسموا جبهة القتال الى مناطق بينهم . وبفضل أحد أسرى المسلمين بالحصن عرفت منطقة الضعف في السور وضربت بالمنجنيق حتى هدمت وتصدع السور . وبعد أن ردم خندق الحصن وجهت اليه الدبابات ، التي كانت الواحدة منها تتسع لعشرة رجال ، ولكنها لم تفلح في اختراقه . فاقتصر القتال على المنطقة المتهدمة من السور (الثلمة) ووزع القتال على الجيوش الثلاثة بالتبادل . وأخيرا انتهز المسلمون طلب القائد البيزنطي المفاوضة من أجل الأمان ودخلوا من الثلمة بعد حصار دام ٥٥ يوما (وأحرقوا احدى الكنائس) وغصبوا وسبوا الكثير . وبلغ من كثرة السبى والأسرى — الذين عزل منهم أهل الشرف — ومن المغانم التي عرضت للبيع في أماكن متعددة أن الشيء كان لا ينادى عليه أكثر من ٣ مرات (طلبا للسرعة) . وأخيرا هدم الحصن وأحرق بأمر الخليفة .

وكانت غزوة الروم هذه محل تجربة خطيرة بين القواد الترك والقواد من العرب ، هذا النزاع ذو اللون الجديد كان ينذر بانقضاء النفوذ الفارسي

الذى استمر طيلة عهد العباسيين العظام ، ويبشر بالفترة التي يسودهـــا الصراع بين الخليفة العباسي ومماليكه الترك ، هذه الفترة تنتهي بانتصـــار هؤلاء الأخيرين على عهد المقتدر (٩٠٨ م) عندما يظهر منصب أميـــر الأمراء .

ففي أثناء حملة عمورية هذه كان القواد من الترك ، كما رأينا ولا سيما الافشين يقومون بالأدوار الرئيسية في الحرب . دعا ذلك الى غيرة القائـــد العربي عجيف بن عنبسة وحقده على القائد التركي الكبير الذى استحوذ على رضاء المعتصم وأطلق يده في النفقات . وفكر عجيف في وسيلة للانتقام بـــأن أغرى العباس بن المأمون الذى كان يصحبهم بالدعوة لنفسه ، وقبل العبـــاس وقام رجل في العسكر تمكن من استمالة جماعة من القواد بايعوا ابن المأمون ، وتم الاتفاق على أن يتخلص من الخليفة ومن قواده الترك جميعا مرة واحدة .

وسنحت الفرصة للعباس لأن يتخلص من المعتصم حسب نصيحة عجيـف الذى طلب اليه العودة عندما يتم ذلك بالرجال الى بغداد ، ولكن ابـــن المامون كان حي الضمير فابى أن يفسد الغزاة (الغزوة) . وحاول عجيـــف محاولة جديدة عندما سقطت عمورية وعرض السبى والغنائم للبيع فأوعز الـــى الجند بالنهب ، ورجا أن يقتل المعتصم عند خروجه لوضع النظام ، وهذا مـا لم يحدث . وأخيرا أساء بعض القواد من المتآمرين التصرف واضطروا الـــى افشاء سر العباس بن المأمون الذى قبض عليه وسلم للافشين ، فمات بعـــد قليل بمنبج بتدبير القائد التركي ، كما قضى على بقية المشتركين في المؤامـرة دون رحمة ، وعندما وصل المعتصم الى سامرا حبس أولاد المأمون ، وقضـــى عليهم في محبسهم .

التخلص من الافشيـــن :

فشلت مؤامرة العرب ضد الترك اذن وانتصر الافشين على أعـــداء الخليفة مرة أخرى الا أن المعتصم تنبه الى عظم شأن قائده . وكما هـــو

المعتاد سيلقى الافشين من الخليفة ما لاقاه عظام القواد الذين أدوا خدمات كبيرة للأسرة العباسية منذ قيام خلافة بغداد . وكان من السهل على الخليفة التخلص من رجل الدولة حسب الطريقة التقليدية بأن توجه اليه تهمة المروق عن الدين أو الزندقة ، كما كان من السهل أن توجه اليه تهم القيام بنشاط سياسي معاد للخلافة . وتبرع أعداء القائد بعدد من هذه الاتهامات: اتهمه عبد الله بن طاهر بأنه كان يوجه هدايا اهل اذربيجان وأرمينية الى موطنه الأصلي " اشروسنة " ، كما اتهم بالتواطؤ مع مازيار (ملك طبرستان) ومكاتبته ، وكذلك تشجيع قائده منكجور على الثورة ، وغير ذلك من التهم مثل تدبير قتل المعتصم .

أما عن التهمة الرئيسية والتقليدية التي اتهم بها الرجل وهي الزندقة فرغم أن المعتصم كان أميا تقريبا (كان يقرأ بصعوبة) فانه اهتم — حسب وصية أخيه المأمون — بالحالة الروحية لرعاياه ، واستمر في الأخذ برأى المعتزلة بخلق القرآن ، وامتحن الفقهاء بذلك . وكان نصيب أحمد بن حنبل الشيء الكثير من الجلد والتعذيب . أما الافشين فبعد القبض عليه يتكون مجلس من محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم ، ابن أبي داود ، اسحق بن ابراهيم صاحب الزنادقة أيام المأمون ، وغيرهم من الأعيان .

هذا المجلس وجه اليه تهما أخرى ، منها : أنه ضرب موذنا وإماما وأقام مسجدا بأشروسنة . وردّ المتهم على ذلك بأن معاهدة بينه وبين ملك الصغد اشترطت أن يترك كل قوم على دينهم وأن الرجلين وثبا على بيت للأصنام وحولاه الى مسجد . ثم وجهت اليه تهمة ثانية وهي حيازة كتاب محلى بالذهب والجوهر فيه الكفر بالله ، وردّ الافشين بأنه ورث هذا الكتاب الذى يحوى آداب العجم وكفرا وأنه كان يأخذ منه الآداب ويترك الكفر وتقدم بعض الشهود من مواطني المتهم ينسبون اليه كراهية كل مايفعله المسلمون وكذلك عدم الاختتان ، وردّ الافشين بتجريح الشاهد لانه ليس

ثقة في دينه ، ولكنه لم ينكر عدم الاختتان واعتذر بخوفه أن يموت لو فعل .

وأخيرا وجهت اليه تهمة أن أهل اشروسنة ، بلده ، كانوا يكتبون اليه " الى اله الالهة من عبده فلان بن فلان " . فقال : " كانت هذه عادتهم لأبي وجدي ، فلما دخلت في الاسلام كرهت أن أضع نفسي دونهم فتفسد علي طاعتهم " . وأخيرا اتهم بأن الغرض من نشاطه السياسي المعادي (مع مازيار ثم منكجور) انما هو اعادة دينة الى ماكان عليه أيام العجم .

وانتهت المحاكمة بادانته فرّد الى السجن وفشلت محاولاته في استعطاف الخليفة ، اذ كتب الى المعتصم يقول : " مثلي ومثل أمير المؤمنين كرجل ربى عسلا حتى أسمنه وكبر وكان له أصحاب يشتهون أن يأكلوا من لحمه " . ومات الافشين في السجن بعد قليل (جوعا ؟) ثم أخرج وصلب وأحرق بالنار في شعبان سنة ٢٢٦ هـ . وبذلك تمكن الخليفة من التخلص من رئيس الحرس التركي في أول حلقة من سلسلة الصراع بين الخلافة وقوادها الأتراك . وبدء هذا الصراع يلخصه ما ينسب الى المعتصم من أنه قال لأحد رجاله : " اصطنع أخي المأمون أربعة فأفلحوا : طاهر بن الحسين ، وعبد الله بن طاهر ، واسحق بن ابراهيم ، وأخوه محمد بن ابراهيم ، اصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم : الافشين ، وأشناس ، وايتاخ ، ووصيف " . فقيل له : " نظر أخوك الى الأصول فاستعملها فأنجبت واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب اذ لا أصول لها " .

هذا النص يعبر عن فكرة الصراع بين الترك من جهة ، والفرس والعرب من جهة أخرى ، وهو يتحيز لجانب الأخيرين ضد الترك . والحقيقة أن الخلافة العباسية كانت قد تدهورت الى حد كبير فانحطت هيبتها الى درجة لم يعرف لها نظير من قبل . فبعد أن فقدت العرب وشكت في نوايا الفرس وجدت نفسها وحيدة أمام استبداد الترك فانطوت على نفسها ووقفت موقف المتفرج تنظر الى الصراع بين المتغلبين على أملاكها وتبارك المنتصرين

منهم ، فالى جانب الطاهريين في خراسان سيظهر الصفاريون ، وفي ما وراء النهر سيقوم السامانيون ، ثم يأتي الغزنويون ويتبعهم الغوريون . وبطبيعة الحال كان المشرق مسرحا لحوادث دامية عند اضمحلال كل أسرة منها وقيام أسرة جديدة . ولم تكن القوة المنتصرة ترث أملاك سابقتها في المشرق فقط ، بل كانت ترث أيضا نفوذها وسلطانها في بغداد . أما عن الخلافة فتكون قد انتهت فعلا بعزل المقتدر على يدى أمير الأمراء ثم بتغلب البويهيين الشيعة وفرض وصايتهم على الخليفة مما سيمهد لمجيء تورك السلاجقة .

وبذلك بدأ عهد جديد بالنسبة للخلافة العباسية ، هو الذى عرف بالعصر العباسي الثاني ، وكان أهم سماته ظهور الدول المستقلة ، ودول المتغلبين على الخلافة في المشرق . (١)

---

(١) انظر ، أ.د سعد زغلول عبد الحميد ، التاريخ العباسي والاندلسي ، ص ١٥٦ .

الباب الثاني

دراسة لبعض الدول المستقلة

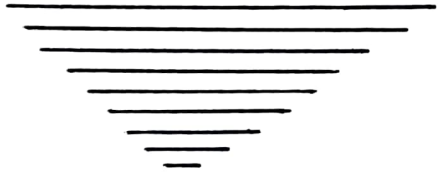

الفصل الأول

١ـ الدولة الصفارية
(٢٥٤ـ ٢٩٠هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٣م)

يعقوب بن الليث الصفار :

تأسست الدولة الصفارية على يد يعقوب بن الليث الصفار(٢٥٤ ـ ٢٦٥هـ)، الذى أغار على بلاد الدولة الطاهرية في خراسان ، التي أسسها طاهر بن الحسين في عهد الخليفة المأمون (٢٠٥هـ) .

وقد استقل بنو طاهر بحكم هذه البلاد ، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يعترفون بسلطان الخليفة العباسي، وامتد نفوذهم الى حدود بلاد الهند ، ونقلوا قاعدتهم الى نيسابور حيث بقوا فيها حتى سنة ٢٥٩هـ .

كان يعقوب وأخوه عمرو يشتغلان بعمل الصفر ويتظاهران بالزهد . وكان يعقوب احد زعماء المطوعة ، واشتهر أمره منذ سنة ٢٣٧هـ ، كما كان أحد قواد صالح ابن النضر الكناني الذى استولى على سجستان . ولكن طاهر بن عبد الله بن طاهر ابن الحسن امير خراسان اذ ذاك استردها من هؤلاء المطوعة .

وسرعان ماتغلب على هذه المدينة درهم بن الحسين زعيم المطوعة الذى ظهر عجزه ، فولى جنده قائده يعقوب بن الليث الذى تولى أمر المطوعة وحارب الخوارج والشراة وهزمهم هزيمة منكرة، ولم يلبث ان اشتدت شوكته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما والاها .

ثم احتلت جيوشه نيسابور (سنة ٢٥٩هـ) قاعدة الدولة الطاهرية، مخالفا أوامر الخليفة ومدعيا ان اهل خراسان قد بعثوا اليه لاستخلاصها من آل طاهر .

ولم يكن يعقوب بن الليث يرمي الى القضاء على الدولة الطاهرية ، بل عمل على ان يمد نفوذه على بلاد فارس وخراسان ، لذلك نراه يحارب الترك على تخوم سجستان فرهنته الملوك وأذعن له ملك المولتان ، وملك الرخج ، وملك الطبسين ،

وملك زابلستان ، وملك السند ومكران وغيرهم ، كما حارب الحسن بن زيد (٢٥٠ — ٢٧٠هـ) مؤسس الدولة العلوية في طبرستان وهزمه .

وفي سنة ٢٦١ هـ بدأت اطماع يعقوب بن الليث الواسعة تظهر ظهورا بينا ، وأدرك الخليفة العباسي المعتمد مدى الخطر الذى تستهدف له دولته من جراء ازدياد نفوذه ، فأضمر له العداء ، وجمع ببغداد حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان . وقرىء عليهم كتاب الخليفة بلعن يعقوب ، وأرسلت عشرات النسخ من هذا الكتاب الى الامصار لتذاع بين الناس .

وقد أثار الخليفة العباسي بعمله هذا حنق يعقوب ، فأعد عدته لقصد العراق ، ثم سار الى الاهواز ، وكاتب الخليفة وسأله ولاية خراسان وبلاد فارس ، وماكان مضموما الى طاهر بن الحسين الخزاعي من الكور ، وشرطتي بغداد وسر من رآى ، وان يعقد له على كرمان وسجستان والسند ، وان يحضر من قرئت عليهم الكتب التي نسخت في دار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، ويقرأ عليهم خلاف ماقرىء عليهم أولا . ليبطل ذلك الكتاب بهذا الكتاب . ففعل ذلك الموفق أخو الخليفة المعتمد على الله . . واجابه الى ماطلب ، وجمع الناس وقرأ عليهم ماأحبه الصفار ، وأجيب الى الولاية التي طلبها .

بيد ان اطماع يعقوب لم تقف عند حد ، فلم يقنع بتولية الخليفة العباسي له على هذه البلاد ، بل عمل على قصد بغداد نفسها وحمل الخليفة على الاذعان لمطالبه . ويظهر انه كان يعتمد على جيش قوى ، فقد ذكر ابن خلكان (جـ٢ ، ص ٣١٧) ان مساحة معسكره كانت ميلا في ميل ، وان دولته كانت في غاية الفراهية ، ولكن ذلك كله لم يغنه شيئا ، فقد ثار جنده عليه حين رأوا الخليفة المعتمد على رأس الجيش فحلت به الهزيمة .

على ان هذه الهزيمة لم تفت في عضد يعقوب بن الليث الذى لم يكتف بما استولى عليه من البلاد ، بل اخذ يحارب بعض ولاة الخليفة . وفي اواخر سنة ٢٦٣هـ ، استولى على جند يسابور ، ثم اخذ الاهواز من يد صاحب الزنج بعد حروب طاحنة .

وقد ذكر ابن خلكان (جـ٢ ص ٣٢٠) ان الخليفة المعتمد حاول ان يستميل اليه يعقوب بن الليث ليأمن جانبه ، فيقول : أرسل اليه رسولا يترضاه ويستميله ويقلد ، أعمال فارس ، فوصل الرسول ويعقوب مريض ، فجلس له ، وجعل عنده ، سيفا ورغيفا .. ومعه بصل ، وأحضر الرسول فأدى الرسالة ، وقال له : "قل للخليفة اني عليل ، فان مت فقد استرحت منك واسترحت مني ، وان عوفيت فليس بيني وبينك الا السيف هذا ، حتى آخذ بسيفي أو تكسرني وتفقرني فأعود الى هذا الخبز والبصل . وعاد الرسول فلم يلبث يعقوب ان مات" (في جند يسابور) . وكان موته لأربع عشرة ليلة خلت من شهر شوال سنة ١٦٥هـ .

اشتهر يعقوب بن الليث باليقظة وحسن التدبير ، فكان يحسن اختيار رجاله ، كما كان يحسن تنظيم جيوشه واعدادها بالعدة والسلاح . وامتلأت خزائنه بالاموال حتى قيل انه ترك خمسين ألف ألف درهم وثمانين ألف ألف دينار .

ويقول براون ، ان استقلال بلاد الفرس يمكن ان يقال انه بعث عن طريق هذه الاعمال الباهرة التي قام بها يعقوب بن الليث الصفار ، فانه على الرغم من انه لم يكن من بيت عريق ، نجح في تأسيس دولة استطاعت مع قصر عهدها ان تنشر نفوذها ، ليس في سجستان وحدها حيث قامت دولتها أول الامر ، بل في معظم أرجاء فارس والى اسوار بغداد تقريبا .

عمرو بن الليث الصفار (٢٦٥ـ ٢٨٧هـ) :

ولما توفي يعقوب بن الليث الصفار أقر أبو احمد الموفق اخو الخليفة العباسي المعتمد أخاه عمرو بن الليث على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد ، وخلع عليه . وبذلك قبض عمرو على ماكان بيد أخيه ، وأناب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عنه في شرطة بغداد وسامرا ، وبعث الى الموفق بعمود من الذهب .

ويقول ابن خلكان (جـ٢ ص ٣٢٠) ان عمرو بن الليث لما تولى ولايته أحسن التدبير والسياسة حتى قيل : ماأدرك في حسن السياسة للجنود والهداية

الى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث .

على ان العلاقة لم تلبث ان ساءت بين الدولة الصفارية والخلافة العباسية ، فقد عزل الخليفة المعتمد عمرو بن الليث عن البلاد التي ولاه اياها ، وأعلن هذا الخلع على ملأ من حاج خراسان ، ولعنه بحضرتهم ، وأخبرهم انه قلد محمد بن طاهر بن الحسين بلاد خراسان وأمر بلعن عمرو على المنابر ، بيد ان محمد ابن طاهر آثر البقاء بحاضرة الخلافة وأناب رافع بن هرثمة في ادارة ولاية خراسان . وانتصرت جيوش المعتمد على عمرو بن الليث ، وخرج ابو احمد الموفق في سنة ٢٧٤هـ لحربه ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على كرمان وسجستان وعاد أدراجه .

ولما ولي المعتضد الخلافة (٢٧٩هـ) ، عزل رافع بن هرثمة الذي كان محمد بن طاهر قد أنابه عنه في ولايتها ، وأعادها الى عمرو بن الليث . ولكن رافعا لم يذعن لأمر الخليفة وشق عصا الطاعة ، وحارب عمرا الذي قتله في سنة ٢٨٣ هـ وبعث برأسه الى المعتضد ، ففرح لذلك غاية الفرح ، وأرسل اليه الخلع واللواء دليلا على رضاه عنه . ولكن عمرا اعتذر عن قبول هذه الخلع وأصر على طلب ولاية بلاد ماوراء النهر ، وكانت بيد اسماعيل بن احمد الساماني . ولم يجد الخليفة بدا من اجابة عمرو الذي لم تقف اطماعه عند حد وكتب اليه اسماعيل : "انك قد وليت دنيا عريضة ، وأنا في يدي ماوراء النهر ، وأنا في ثغر ، فاقنع بما في يدك ، واتركني مقيما بهذا الثغر ، فأبى اجابته الى ذلك ، وذكر له من أمر نهر بلخ وشدة عبوره ، فقال عمرو : لو شئت أن أسكره ببدر الاموال وأعبره لفعلت ".

ولكن عمرا لم يقدر الصعاب التي قد تقف في سبيله وتحول دون تحقيق أمنيته برغم قيادته الجيوش بنفسه ، فحلت به الهزيمة ووقع أسيرا في قبضة اسماعيل ابن احمد الساماني ، وتشتت شمل جيشه الذي بلغ سبعين ألفا أيدي سبأ . وكانت هذه الموقعة من المواقع الحاسمة ، لانها كانت من أهم العوامل التي أدت الى سقوط الدولة الصفارية وقيام الدولة السامانية على أنقاضها .

ولما علم الخليفة المعتضد بهزيمة عمرو بن الليث فرح فرحا شديدا وأشاد

بذكر اسماعيل بن احمد الذى سيّر عمرا الى الخليفة ، وألبس عمرو دراعة ديباج وبرنس السخط ، وحمل على جمل له سنامان — يقال له اذا كان ضخما على هذه الصورة "الفالج" — في غاية الارتفاع ، وكان عمرو قد أهداه فيما أهدى للخليفة . وقد ألبس الجمل الديباج وحلي بذوائب وأرسان مفضفضة ، وأدخل بغداد فاشتقها في الشارع الاعظم الى دار الخليفة بقصر الحسنى ، وعمرو رافع يديه يدعو ويتضرع دهاء منه ، فرقت له العامة ، وأمسكت عن الدعاء عليه . ثم أدخل الى الخليفة ، وقد جلس له ، واحتفل به ، فوقف بين يديه ساعة وبينهما قدر خمسين ذراعا وقال له : هذا مايبغيك ياعمرو . ثم أخرج من بين يديه الى حجرة قد أعدت له . ومات عمرو في غد ذلك اليوم ، ودفن ، وقيل انه قتل .

"وكان عمرو — كما يقول ابن الاثير (ج ٧ ص ١٧٨ — ١٧٩) — عظيم السياسة قد منع أصحابه وقواده ان يضرب أحد غلاما الا بأمره ، او يتولى عقوبة الغلام نائبه او احد حجابه . وكان يشترى المماليك الصغار ويربيهم ويهبهم لقواده ، ويجرى عليهم الجرايات الحسنة سرا ليطالعوه بأحوال قواده ، ولا يكتم عنه من أخبارهم شيء ، ولم يكونوا يعلمون من ينقل اليه عنهم ، فكان أحدهم يحذره وهو وحده".

ولما أسر عمرو ، آل حكم الدولة الصفارية الى حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث (صفر سنة ٢٨٨هـ) ، الا انه لم يكن له من الامر شيء ، لاستبداد سبك السبكرى غلام عمرو بن الليث بالسلطة ، حيث قبض عليه وعلى اخيه يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث في سنة ٢٩٦هـ وبعث بهما الى بغداد . وتغلب على بلاد فارس الى ان طرده منها الليث بن علي بن الليث الصفار ، فاستنجد السبكرى بالخليفة المقتدر ، فأمده بجيش بقيادة مؤنس الخادم (٢٧٩هـ) وحلت الهزيمة بالليث الصفارى وأسر . ولكن الجو لم يصف للخلافة بسبب عصيان السبكرى وامتناعه عن ارسال الاموال الى بيت المال .

وقد بعثت الخلافة العباسية الجيوش تلو الجيوش للقضاء على السبكرى ، ولكنها لم تستطع القبض عليه حتى تمكن احمد بن اسماعيل السامانى من الاستيلاء على سجستان والقبض على محمد بن علي بن الليث الصفارى . ثم على السبكرى ،

وبعث بهما الى بغداد في شوال سنة ٢٩٨ هـ. ومن ثم زالت الدولة الصفارية التي لم يقتصر خطرها على انتزاع ذلك الجزء الكبير من أراضي الدولة العباسية ، بل حاول يعقوب فتح بغداد ، واقتفى أخوه عمرو أثره ، ولكنهما لم يصلا الى بغيتهما .

ويرجع ضعف الدولة الصفارية وزوالها الى موقف الخلافة العباسية العدائي منها ، وما بذلته من الجهود المتصلة للقضاء عليها . أضف الى ذلك موقف السامانيين من هذه الدولة ، فقد هزم اسماعيل بن احمد السامانى جيوش عمرو بن الليث الصفار وأرسله الى بغداد ، وقضى ابنه احمد بن اسماعيل عليها نهائيا . هذا الى مناوأة بعض قوادهم ولا سيما سبك السبكرى غلام عمرو بن الليث الصفار الذى كان لثورته أثر كبير في ضعف هذه الدولة وزوالها في النهاية .

٢ــ الدولـــــة السامانيـة

(٢٦١ــ ٣٨٩هـ ٨٧٤ ــ ٩٩٩م)

البيـت السامانى

	هجريـة	ميلاديـة
أ ــ نصر الاول بن احمد	٣٦١	٨٧٤
٢ ــ اسماعيل بن احمـد	٢٧٩	٨٩٢
٣ ــ احمد بن اسماعيـل	٢٩٥	٩٠٧
٤ ــ نصر الثاني بن احمد	٣٠١	٩١٣
٥ ــ نوح الاول بن نصـر	٣٣١	٩٤٢
٦ ــ عبد الملك الاول بن نوح	٣٤٣	٩٥٤
٧ ــ منصور الاول بن نوح	٣٥٠	٩٦١
٨ ــ نوح الثاني بن منصور	٣٦٦	٩٧٦
٩ ــ منصور الثاني بن نوح الثاني	٣٨٧	٩٩٧
١٠ــ عبد الملك الثاني بن نوح الثاني	٣٨١	٩٩٩

(خانات تركستان: الغزنويون)

تسلسل آل سامان

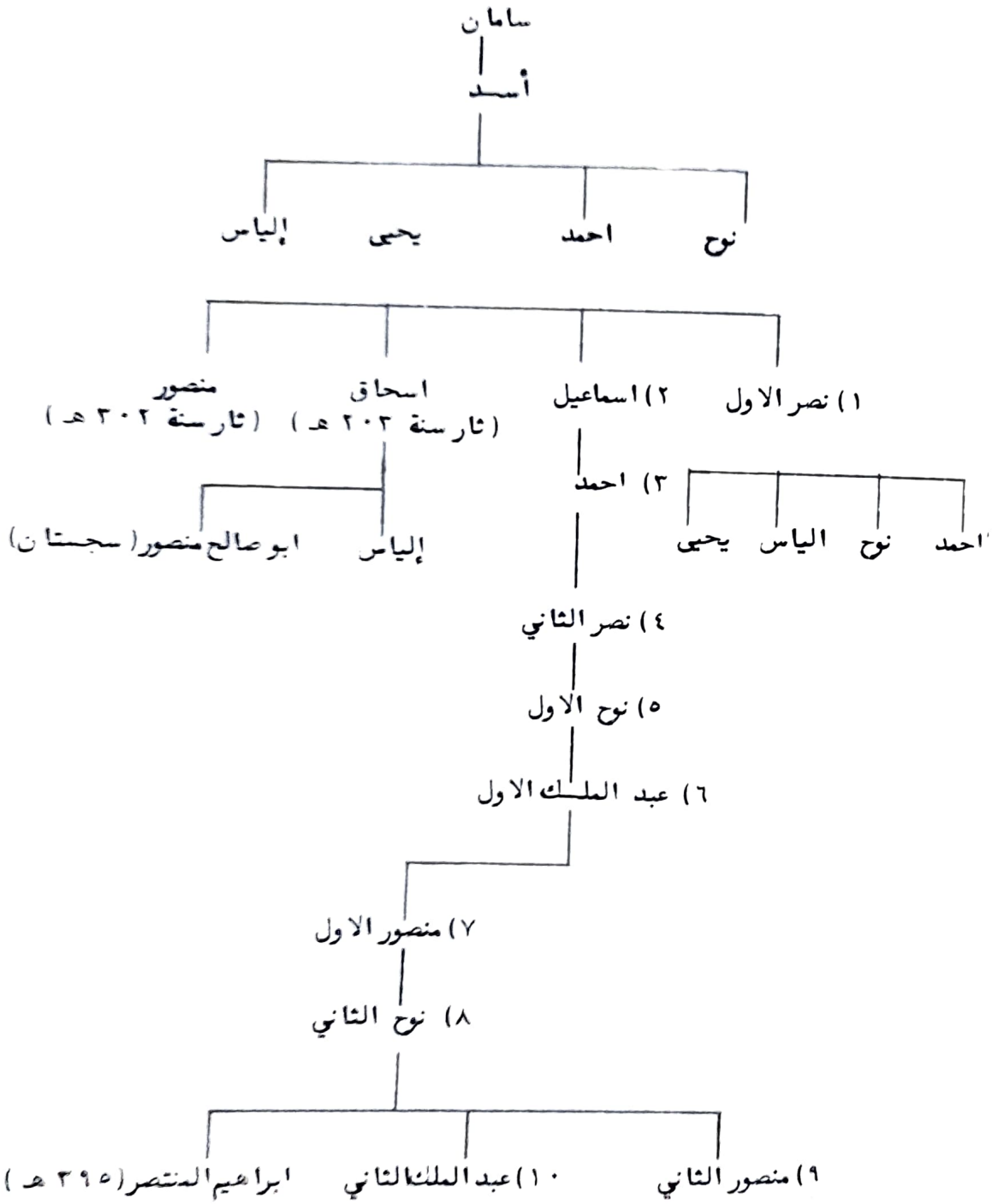

اسماعيل بن احمد (٢٧٩ــ ٢٩٥هـ) :

تنسب هذه الدولة الى أسرة فارسية عريقة في المجد يرجع أصلها الى بهرام جور . وقد نال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون ، فولاهم بلاد ماوراء النهر ورفع من شأنهم .

وقد ارتد سامان عن مذهب زرادشت واعتنق الاسلام ، وسمى ابنه باسم أسد ابن عبد الله القسرى والي خراسان في اواخر عهد الامويين . وظهر اولاد اسد ابن سامان في عهد الخليفة المأمون ، فولى نوح بن أسد سمرقند في سنة ٢٠٤هـ ، واحمد بن اسد فرغانة ، ويحيى بن اسد الشاش واشروسنة ، والياس بن اسد هراة . ولما ولى ظاهر بن الحسين بلاد خراسان أقرهم في هذه الاعمال .

وكان لاحمد بن أسد سبعة اولاد ، اشتهر منهم اسماعيل ونصر الذى خلف أباه على سمرقند ومايليها من قبل الطاهريين حتى ولاه الخليفة العباسي المعتمد بلاد ماوراء النهر سنة ٢٦١هـ . ومن ثم تأسست الدولة السامانية ، واصبح نصر بن احمد الساماني من القوة بحيث استطاع ان يولي اخاه اسماعيل على بخارى (٢٦١هـ) . ولكن النزاع لم يلبث ان دب بينهما بسبب اثارة خصومهما العداوة والبغضاء بينهما ، حتى ان نصرا قصد اخاه اسماعيل لحربه في سنة ٢٧٢هـ ، ولكنهما تصالحا مدة ، ثم ساءت العلاقة بينهما من جديد وقامت الحرب بينهما في سنة ٢٧٥هـ ، وظفر اسماعيل بأخيه نصر . فلما حمل اليه ترجل له اسماعيل وقبل يديه ، ورده من موضعه الى سمرقند ، وناب عنه في ولاية بخارى . ولما مات نصر في سنة ٢٧٩هـ آلت زعامة السامانيين الى اخيه اسماعيل . وفي عهد اسماعيل ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة ، وقامت بدور خطير في ازالة الدولة الصفارية كما تقدم .

وقد تمكن اسماعيل بن احمد الساماني من فتح بلاد طبرستان من يد أميرها محمد بن زيد الذى كان ينازع السامانيين السلطة في خراسان . على ان القائد الذى تم على يديه فتح هذه البلاد لم يلبث ان ثار عليه ، واتخذ البياض شعارا له ، مناوئا بذلك العباسيين الذين اتخذوا السواد شعارا لهم . وسار اسماعيل بن احمد على رأس جيش كبير ، وأحل الهزيمة بهذا القائد ، وضم الرى

وقزوين الى سلطانه ، وبذلك أمد حدود بلاده من ناحية الغرب (سنة ٢٨٩هـ) .

وفي سنة ٢٩١ هـ صد اسماعيل جيوش الترك الذين أغاروا على حدود بلاده الشرقية ، ومات اسماعيل في مدينة بخارى سنة ٢٩٥هـ ، ولا يزال قبره حتى اليوم في مدينة بخارى التي ارتقت في عهد اسماعيل حتى اصبحت من اهم الحواضر الاسلامية . على انه ليست هناك نقوش تدل على ان هذا القبر هو قبر اسماعيل ، كما يستدل من الكتابات التي نقشت على القبر نفسه او على الابنية المحيطة به .

وقد وصف ابن الاثير (جـ٧ ص ١٠٠) اسماعيل بن احمد الساماني فقال : "انه كان خيرا يحب اهل العلم والدين ، ويكرمهم" . وقال في موضع آخر (جـ ٨ ص ٢ ـ ٣) "انه كان عاقلا عادلا ، حسن السيرة في رعيته ، حليما . حكى عنه انه كان لولده احمد مؤدب يؤدبه ، فمر به الامير اسماعيل يوما ، والمؤدب لا يعلم به ، فسمعه وهو يسب ابنه ويقول له : لا بارك الله فيك ولا فيمن ولدك . فدخل اليه ، فقال له : يا هذا ؟ نحن لم نذنب ذنبا لتسبنا ، فهل ترى ان تعفينا من سبك ، وتخص المذنب بشتمك وذمك ؟ فارتاع المؤدب ، فخرج اسماعيل من عنده ، وأمر له بصلة جزاء لخوفه منه" .

احمد بن اسماعيل وابنه نصر (٢٩٥ ـ ٣٣١هـ) :

لما توفي اسماعيل بن احمد الساماني سنة ٢٩٥هـ أقر الخليفة المكتفي ابنه أبا نصر احمد بن اسماعيل على ولاية أبيه وخلع عليه . وقد تم زوال الدولة الصفارية على يديه . فأسر غلامه سيمجور ، سبك السبكرى غلام عمرو بن الليث الصفارى ، كما أسر الليث ابن علي الصفارى . وفي المحرم من هذه السنة استولى السامانيون على سجستان من يد المعدل بن علي بن الليث الصفارى وأسر أخاه محمد بن الليث ، وبعث بسبك ومحمد الى بغداد . على ان هذه البلاد لم تلبث ان خلعت طاعة احمد بن اسماعيل ، ودعا أهلها لعمرو بن يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار فأرسل السامانيون الجيوش لاخضاعها ، واستمرت الحرب بين الفريقين نحوا من سنة حتى تم النصر للسامانيين ، وقبض على الصفارى ، وتولى سيمجور سجستان من قبل السامانيين .

ولم تطل ولاية احمد بن اسماعيل حيث قتل في سنة ٣٠١هـ . وقد ذكر ابن الاثير (جـ ٨ ص ٢٧) انه كان مولعا بالصيد ، فخرج متصيدا ، وانه أتاه كتاب نائبه بطبرستان يخبره بظهور الحسن بن علي العلوى الاطروش وتغلبه عليها ، وانه أخرجه عنها ، فخرج احمد لذلك وعاد الى معسكره ، وكان قد أحرقه قبل خروجه للصيد ، فنزل عليه فتطير الناس من ذلك . وكان له أسد يربطه كل ليلة على بابه ، فلا يجسر أحد ان يقربه ، فأغفلوا احضار الاسد تلك الليلة ، فدخل اليه جماعة من غلمانه فذبحوه على سريره وهربوا ، وذلك لسبع بقين من شهر جمادى الآخرة سنة ٣٠١هـ فحمل الى بخارى فدفن بها ولقب بالشهيد .

كان ابو الحسن نصر بن احمد الساماني في الثامنة من عمره حين قتل أبوه ، فاستصغر الناس سنه واستضعفوه ، واعتقدوا ان أمره لا ينتظم مع وجود عم أبيه ، وهو اسحاق بن احمد بن اسد صاحب سمرقند الذى استمال اهالي بلاد ماوراء النهر - عدا بخارى - اليه والى اولاده ، وارسل هو وبعض امراء البيت الساماني الى الخليفة العباسي المقتدر يسأله كل منهم امرة ناحية من نواحي خراسان . ولكن الخليفة أقر نصرا على بلاد أبيه ، وأقر اللقب الذى تلقب به وهو السعيد ، وضبط بلاد ، ابو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني .

وقد ذكر ابن الاثير في حوادث سنة ٣٠١ هـ ان اسحاق بن احمد بن اسد الساماني وابنه الياس ابن اسحاق ، ثارا على السعيد نصر وسارا نحو بخارى . ولكن الهزيمة حلت بهما غير مرة ، واستولت جيوش نصر على سمرقند ، واختفى اسحاق ، ثم أسره وهرب ابنه الياس الى فرغانة ، وخرج ابنه الثاني ابو صالح منصور على نصر في السنة التالية ، وانضم اليه بعض قواد نصر وعملوا على الاستيلاء على سجستان على ان يتولوها نيابة عنه ، وأقاموا الخطبة له على منابر نيسابور ، واستمرت الحروب بين جيوش نصر وجيوش ابن عمه منصور زهاء أربع سنين (٣٠٢ - ٣٠٦هـ) ، وانتهت بعودة نيسابور وغيرها الى نفوذ نصر .

اخذ الياس بن اسحاق بن احمد بن اسد الساماني الذى كان قد ثار مع ابيه يعد العدة لمحاربة نصر حتى اجتمع حوله ثلاثون الف فارس ، ثم قصد سمرقند

مناوئا نفوذ السعيد نصر بن احمد الذى انتصرت جيوشه عليه في سنة ٣١٠هـ، وأرغمته على الهرب الى فرغانة والاختفاء بها، ثم اخذ يعد العدة من جديد بمعونة صاحب الشاش، ولكن الهزيمة حلت به وأسر صاحب الشاش ومات.

وكانت العلاقة بين السامانيين والخلافة العباسية تقوم على اساس المودة، حتى ان الخلفاء كانوا يعتمدون على امراء البيت السامانى في اقرار سلطانهم في بلاد المشرق. ولما دعا الخليفة المقتدر يوسف بن ابي الساج الى واسط لانفاذه لمحاربة القرامطة، كتب الى السعيد نصر الثاني السامانى بولاية الرى، وأمره بقصدها والاستيلاء عليها من فانك غلام يوسف بن ابي الساج، فاستولى عليها نصر وولى عليها سيمجور وعاد الى بخارى.

وفي سنة ٣٣٢ هـ ثار ابو علي محمد بن الياس على نصر بن احمد السامانى واستولى على كرمان، فسير اليه نصر ماكان بن كالي على رأس جيش كثيف أحل الهزيمة بابن الياس، واستولى على كرمان ووليها من قبل السامانيين. على ان ماكان ابن كالي خرج على السامانيين في جرجان سنة ٣٢٨ هـ. فأرسل اليه نصر بن احمد جيشا هزمه واستولى على هذه البلاد وأعادها الى نفوذ السامانيين، كما انتزعت جيوشهم الرى من يد وشمكير بن زيار (اخي مرداويج بن زيار) بعد ان هرب الى طبرستان ثم دخل في طاعة السامانيين، ومن يد ماكان بن كالي الذى قتل. ثم اخذت انتصارات جيوش السامانيين تتتابع، فاستولت على أبهر وقزوين وزنجان وهمذان ونهاوند والدينور حتى بلغت حدود حلوان.

كان السعيد نصر بن احمد على جانب عظيم من حسن الخلق. وقد وصفه ابن الاثير فقال انه كان حليما كريما عاقلا. حكى عنه انه خرج عليه أخوه ابو زكريا ونهب خزانته وأمواله. فلما عاد السعيد الى حاضرة ملكه، قيل له ان جماعة انتهبوا ماله، فلم يعرض لهم وأخبروه ان بعض السوقة اشترى منها سكينا نفيسا بمائتي درهم، فأرسل اليه وأعطاه مائتي درهم وطلب السكين، فأبى ان يبيعه الا بألف درهم، فقال: ألا تعجبون من هذا؟ أرى عنده مالي فلم أعاقبه وأعطيته حقه فاشتط في الطلب؟ ثم أمر باسترضائه. وطال مرضه فبقي به ثلاثة عشر شهرا، فأقبل على

الصلاة والعبادة ، وبنى له في قصره بيتا سماه بيت العبادة . فكان يلبس ثيابا نظافا ويمشي اليه حافيا ويصلي ويدعو ويتضرع . وكان ذلك في سنة ٣٣١هـ ، بعد ان ولى امرة السامانيين ثلاثين سنة وشهرا وثلاثة ايام ، وملت وله من العمر ثمان وثلاثون سنة .

وقد خالف نظام الملك ماذكره ابن الاثير عن نهاية السعيد نصر بن احمد الساماني فقال انه دان بعقائد الاسماعيلية وان القواد دبروا مؤامرة لاغتياله . فلما أدرك نصر الخطر المحدق به ، نزل عن الامارة لابنه نوح الذى عمل على القضاء على المذهب الاسماعيلي وأنصاره في بلاده . وذكر المقريزى ان نصر بن احمد الساماني أمير خراسان بعث الى عبيد الله المهدى بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بامداده بالرجال .

نوح بن نصر (٣٣١ـ ٣٤٣هـ) :

تولى نوح بن نصر الساماني بلاد خراسان وماوراء النهر في شهر شعبان سنة ٣٣١هـ ، واستهل امارته بالعفو عن بعض الامراء الذين كان يحقد عليهم في حياة أبيه ليتألف القلوب حوله ويأمن خروجهم عليه ، وولاهم بعض الولايات ، وقد بدأ الصراع بين السامانيين وبني بويه في ايام نوح بن نصر الذى عمل على استرداد الرى من يد ركن الدولة بن بويه ، وتفاقم النزاع بينهما ، وانتهى بهزيمة جيوش نوح بسبب انضمام جنده الى البويهيين . بيد ان نوحا أعد العدة من جديد لمحاربة ركن الدولة والاستيلاء على الرى ، وتمكنت جيوشه من الاستيلاء عليها وعلى بلاد الجبل في شهر رمضان سنة ٣٣٣هـ .

وقد تعرضت بلاد نوح بن نصر لخطر جسيم بسبب خروج قائده ابي علي بن محتاج الذى أخلص له ولأبيه من قبل .

وقد كاتب الجند ابراهيم بن احمد بن اسماعيل عم نوح بن نصر الساماني ـ وكان قد انضم الى ناصر الدولة بن حمدان ـ يطلبون اليه الحضور لمبايعته ، فلبى دعوتهم . وقامت الحرب بينه بمساعدة ابي علي وبين نوح بن نصر ، واستولى على

نيسابور ومرو وبخارى في سنة ٣٣٥هـ وخطب فيها لابراهيم بن احمد بن اسماعيل ، على ان أبا علي لم يلبث ان خرج على ابراهيم الذى مال الى خلع نفسه والاتفاق مع نوح على ان يتقلد امرة جيوشه ، وعمل على تولية ابي جعفر محمد بن نصر بن احمد أخي الامير نوح بن نصر ، وبايع له ، وأقام الخطبة باسمه في كثير من نواحي خراسان وبلاد ماوراء النهر . واستمرت الحروب بين ابي علي ونوح بن نصر من سنة ٣٣٤ الى ٣٣٧ هـ ، وانتهت بعقد الصلح بينهما .

واستطاع نوح بن نصر ان يسترد الرى وبلاد الجبل من ركن الدولة بن بويه الذى كان له أثر كبير في اثارة ابي علي (٣٣٩هـ) .

وقد أسند نوح قيادة جيوش خراسان الى ابي علي الذى استطاع بمساعدة وشمكير بن زيار ان يرغم ركن الدولة بن بويه على ان يدفع لنوح بن نصر جزية سنوية مقدارها مائتا ألف دينار . على ان نوحا لم يلبث ان ساورته الريب في اخلاص ابي علي . فعزله عن قيادة الجيوش في خراسان ، فراسل ركن الدولة وسار اليه في الرى حيث أكرمه ، وتدخل لدى الخليفة العباسي المطيع ، فأقره على ولاية خراسان بمساعدة معز الدولة بن بويه ، وذلك سنة ٣٤٣هـ ، وهي السنة التي توفي فيها الامير نوح بن نصر .

عبد الملك ومنصور ابنا نوح (٣٤٣ـ ٣٦٦هـ) :

لما تولى عبد الملك بن نوح امرة السامانيين سنة ٣٤٣هـ ، قلد بكر بن مالك قيادة الجيوش في خراسان ، وسيره من بخارى لاخراج ابي علي بن محتاج ، الذى انضم جنده الى عبد الملك وبقي هو في مائتي رجل من أصحابه ، واضطر الى الهرب ولجأ الى ركن الدولة في الرى فأحسن وفادته .

على ان ايام عبد الملك بن نوح لم تطل بسبب كبوة فرسه في شهر شوال سنة ٣٥٠هـ ، فآلت السلطة من بعده الى اخيه ابي صالح منصور بن نوح ، وافتتنت خراسان بعده ، كما يقول مسكويه (جـ٢ ص ١٨٩) ، ودب الضعف في جسم الدولة السامانية .

وفي عهد منصور شق أهل سجستان عصا الطاعة على اميرهم خلف بن احمد، وولوا مكانه رجلا من اصحابه يدعى طاهر بن الحسين. ولكن منصور بن نوح، أمد خلف بجيش استرد به هذه البلاد، لكنه لم يلبث ان طرد منها، ثم استردها بمعونة السامانيين. بيد ان علاقته بالسامانيين لم تلبث ان ساءت، "فقطع ماكان يحمله الى بخارى من الخلع والخدم والاموال التي استقرت القاعدة عليها"، فبعث منصور بن نوح الجيوش لمحاربته بسجستان، واستمرت هذه الحروب سبع سنين انتهت بعقد الصلح بينهما واعادة الخطبة لمنصور بن نوح. وان دل هذا على شيء فانما يدل على مبلغ الضعف الذى دب في البيت السامانى. وقد احسن ابن الاثير (جـ ٨، ص ٢٠٢) بقوله: "وكان هذا أول وهن دخل على الدولة السامانية، فطمع اصحاب الاطراف فيهم لسوء طاعة أصحابهم لهم".

وفي سنة ٣٥٦هـ قامت الحرب في جهات الرى بين منصور بن نوح وركن الدولة ابن بويه، ولم ينته العداء بين السامانيين والبويهيين الا في سنة ٣٦١هـ، حيث تم الصلح بين الامير منصور بن نوح السامانى وبين عضد الدولة، على ان يحمل كل من ركن الدولة في كل سنة مائة الف دينار. وحمل اليه ابنه عضد الدولة خمسين ألف دينار. وتزوج نوح بابنة عضد الدولة، وحمل اليه من الهدايا والتحف، وكتب بينهم كتاب الصلح وشهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق.

نوح بن منصور (٣٦٦ـ ٣٨٧ هـ):

ولما مات منصور بن نوح سنة ٣٦٦ هـ، تولى بعده ابنه نوح الثاني وتلقب المنصور وكان في الثالثة عشرة من عمره. وقام بأمر الدولة السامانية في مستهل امارته وزيره ابو الحسن العتبي، ولكن محمد بن ابراهيم بن سيمجور قائد الجيش في خراسان من قبل السامانيين استبد بالأمر في هذه البلاد، واتخذ من صغر سن الامير الجديد فرصة لتحقيق مطامعه، فعزل الوزير العتبي، وولى ابا العباس تاش امرة الجيش. كما قامت الحرب في هذه السنة بين الامير نوح بن منصور السامانى وبين عضد الدولة بن بويه الذى استولى على جرجان، ولا سيما بعد ان اتصل بهم نبأ قتل الوزير ابي الحسن العتبي الذى يرجع اليه الفضل في متابعة هذه الحروب.

أضف الى ذلك ثورة احد امراء البيت السامانى على نوح بعد ان حلت الهزيمة بجيوشه.

على ان الوزير الجديد عبد الله بن عزيز الذى كان يضمر العداوة والبغضاء للوزير العتبي، عمل على عزل ابي العباس تاش عن خراسان واعادة ابي الحسن بن سيمجور اليه، فامتنع ابو العباس عن تنفيذ اوامر الوزير الجديد وطلب العون من فخر الدولة بن بويه الذى أمده بجيش به ابن سيمجور، واستولى على نيسابور، ثم كتب الى الامير نوح يستميله ويستعطفه. ولكن ابن عزيز تشدد في عزله ووافقته على ذلك أم الامير نوح التي كان لها الامر والنهي في دولة ولدها، حتى كانوا يصدرون عن رأيها، فقال بعض اهل ذلك العصر:

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما ... رأى النساء وإمرة الصبيان
أما النساء فميلهن الى الهوى ... وأخو الصبا يجرى بغير عنان

وفي عهد نوح بن منصور تعرضت الدولة السامانية للزوال، ففي سنة ٣٨٣ هـ، ثار عليه اثنان من اكبر قواد السامانية هما ابو الحسن بن سيمجور، وفائق الخاصة غلام نوح بن نصر، واتصلا بشهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف ببغراخان التركي، وكانت بلاده تمتد من حدود الدولة السامانية شرقا حتى تتاخم حدود الصين، وأطمعاه في الاستيلاء على بلاد ماوراء النهر، وتمكن إيلك في هذه السنة من الانتصار على جيوش نوح بن منصور والاستيلاء على بخارى. على ان نوحا لم يلبث ان استرد حاضرة امارته على اثر موت بغراخان وثورة اهالي بخارى عليه.

وفي سنة ٣٨٤هـ استعان نوح بن منصور بسبكتكين صاحب غزنة لحرب الامراء الثائرين عليه. وانتصرت جيوشهما بالقرب من هراة على الامراء الذين استعانوا ببني بويه وفروا الى جرجان. كما استعاد نوح نيسابور، واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين، ولقبه سيف الدولة، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة. وعاد نوح الى بخارى، وعاد سبكتكين الى هراة. وأقام محمود بنيسابور. على ان هؤلاء الثائرين لم يلبثوا ان انتصروا على محمود.

ومع ان ايام نوح بن منصور الساماني طالت حتى أربت على احدى وعشرين سنة ، فقد كان عهده مليئا بالثورات والحروب الاهلية بسبب صغر سنه ، وتدخل النساء والوزراء في الحكم ، وطمع امراء الاطراف واستئثارهم بالسلطة ، وطمع بني بويه والاتراك في بلادهم وقيام المنافسة بين أفراد البيت الساماني نفسه .

زوال الدولة السامانية :

لما توفي نوح بن منصور الساماني سنة ٣٨٧هـ ، قام بعده ابنه منصور بن نوح ، فعمل على تأليف القلوب حوله ، باغداق الاموال على انصاره وقواده ، على ان إيلك المعروف ببغراخان التركي ، الذى كان قد استولى على بخارى سنة ٣٨٣هـ ، اتخذ من موت نوح بن منصور فرصة للاستيلاء على سمرقند . وانضم اليه فائق الخاصة الذى تمكن من الاستيلاء على بخارى ، متظاهرا بأنه يسعى لخدمة الامير منصور ، ورعاية لحق أسلافه عليه اذ هو مولاهم ، وارسل اليهم مشايخ بخارى ومقدمهم في العود الى بلده وملكه ، وأعطاه من نفسه مايطمئن اليه من العهود والمواثيق ، فعاد اليها ودخلها ، وولى فائق أمره وحكم في دولته ، وولى بكتوزون امرة الجيش بخراسان . وفي السنة التالية بدأ النزاع بين الامير منصور بن نوح ومحمود الغزنوى الذى أثار سخطه تولية بكتوزون على خراسان ، وطلب اعادتها اليه ، فلم يجب الى طلبه وساءت العلاقة بينهم . وسرعان ماقبض بكتوزون وفائق الخاصة على منصور ابن نوح وسملا عينيه ولم يمض عليه في الامارة غير سنة وسبعة اشهر ، ووليا أخاه الصغير عبد الملك ابن نوح . واتخذ محمود الغزنوى من اضطراب حبل الامور في الدولة السامانية فرصة للاستيلاء على نيسابور وبخارى ، واستقر ملكه بخراسان وأزال نفوذ السامانيين عنها وخطب فيها للخليفة القادر بالله . ووقعت بلاد ماوراء النهر في يد إيلك بغراخان الذى قصد بخارى وأظهر التودد لعبد الملك بن نوح ، ولكنه لم يلبث ان قبض على قواد السامانيين ثم على عبد الملك نفسه ، وحبس معه أخاه منصور بن نوح الذى ولى ادارة السامانيين من قبله ، كما حبس أخويه ابا ابراهيم واسماعيل وابا يعقوب ابني نوح ، وحبس من أعمامه ابا زكريا وأبا سليمان ، وأفرد كل واحد منهم في حجرة .

وان من يستقصي تاريخ السامانيين ليرى ان زوال دولتهم يرجع الى عوامل عدة ، نذكر من بينها وقوع النزاع بين افراد هذا البيت وخروج القواد وعمال الاطراف عليهم واستعانتهم ببعض امراء هذا البيت على نوح بن نصر (٣٣١ ـ ٣٤٣ هـ) ، كما استعان بعض هؤلاء القواد وعمال الاطراف ببني بويه ، مما أضعف الدولة السامانية وأدى الى زوالها في النهاية . أضف الى ذلك تدخل النساء والوزراء في الحكم بسبب صغر سن بعض الامراء .

وهكذا زالت الدولة السامانية على أيدى الغزنويين وخانات تركستان واصبحت "كأن لم تكن بالأمس ، كدأب الدولة قبلها ، ان في ذلك لعبرة لأولي الابصار" .

ولامراء السامانيين فضل كبير في تشجيع الادب ، وبخاصة الادب الفارسي الذى بدأ ينتعش منذ القرن الثالث ، حتى ان الفرس اخذوا يؤلفون بلغتهم الفارسية . وقد بدأ الروح الفارسي يظهر في الادب الفارسي منذ ذلك الوقت . ومن ذلك كتاب الشاهنامه للفردوسي ، ومختصر الطبرى للبلعمي وزير منصور الاول بن نوح (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) .

أما الطب والفلك والفلسفة فقد كان الفرس يؤلفون فيها باللغة العربية بدلا من الفارسية اذ لم يكن لهذه العلوم كبير علاقة بالادب الفارسي . ومن اشهر كتب الطب في ذلك العصر الكتاب المنصورى الذى ألفه ابو بكر الرازى واهداه الى ابي صالح منصور بن اسحاق الساماني الذى ولى سجستان نيابة عن السامانيين . وقد روى لنا ابن سينا الفيلسوف المشهور الذى قامت علاقته بالسامانيين منذ حداثة سنه على اساس متين بعد ان أسعده الحظ بشفاء الامير نوح بن منصور على يديه مع انه قد ناهز السابعة عشرة من عمره ـ روى انه رأى في مكتبة مدينة بخارى حاضرة الدولة السامانية من طرائف الكتب ما لم يسمع بمثله من قبل (١) .

---

(١) انظر، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ج ٣ ، ص ٦٥ ـ ٨٢ .

الفصل الثاني

١ـ الدولة الطولونية في مصر والشام

(٢٥٤ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ـ ٩٠٥م)

	هجرية	ميلادية
١ـ احمد بن طولون	٢٥٤	٨٦٨
٢ـ خمارويه بن احمد	٢٧٠	٨٨٣
٣ـ ابو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢	٨٩٥
٤ـ هارون بن خمارويه	٢٨٣	٨٩٦
٥ـ شيبان بن احمد	٢٩٢ ـ	٩٠٤ ـ
	٢٩٢	٩٠٥

احمد بن طولون (٢٥٤ـ٢٧٠هـ) :

ظلت مصر بعد قيام الدولة الاموية في حالة ضعف وجمود في كل ناحية من نواحي الحياة ، الا في فترات قليلة عمل فيها ولاة هذه البلاد على تقدمها ورقيها ، كمسلمة بن مخلد (٤٧ـ ٦٢هـ) ، وعبد العزيز بن مروان (٦٥ـ٨٦ هـ) ، وموسى ابن عيسى الذى ولى مصر ثلاث مرات (في سني ١٧١، ١٧٥، ١٧٩هـ) على ان هذه البلاد اخذت تنتعش منذ قامت الدولة الطولونية التي استقلت بحكمها استقلالا يكاد يكون تاما . وعلى الرغم من ان عمر هذه الدولة لم يزد على ثمان وثلاثين سنة، اخذت مصر بقسط موفور من التقدم والاصلاح .

كان احمد بن طولون مؤسس هذه الدولة تركيا ، وكان ابوه احد الاتراك الذين كان يرسلهم الولاة من بلاد ماوراء النهر الى الخلفاء العباسيين ضمن هداياهم . وقد كثر هؤلاء الاتراك منذ ولى المعتصم الخلافة (٢١٨هـ) اذ كانت أمه تركية ، فاعتمد على العنصر التركي ، واتخذ من الاتراك حرصا له ، وأسند اليهم

مناصب الدولة ، كما كان يفعل الخلفاء العباسيون من قبله من تولية الفرس مناصب الدولة . فولى المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر صلاتها وخراجها (٢١١ـ ٢١٣هـ) ، وولى المعتصم آشناس التركي مصر (٢١٩ـ ٢٢٩هـ) ، وقلد الواثق إيتاخ (٢٣٤ـ ٢٣٥هـ) . وكان هؤلاء الولاة يستخلفون عنهم نوابا يحكمون البلاد باسمهم ، ويدعون لهم على المنابر بعد الخليفة ، وينقشون اسمهم على السكة ، اذ لم يكن من السهل عليهم ان يتركوا دار الخلافة ومافيها من نعيم وترف ويأتوا الى مصر للاقامة فيها . ولما أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء ، واعتمد على الاتراك ، انتشر العرب في ريف مصر ، واحترفوا الزراعة وغيرها طلبا للرزق ، واخذ العنصر العربي يضعف شيئا فشيئا ، وبدأ ظل الولاة من العرب يزول باحلال ولاة من الاتراك محلهم . ولم يل مصر بعد ذلك عربي الا عنبسة بن اسحاق (٢٣٨ـ ٢٤٢هـ) .

تقلد " باكباك " التركي مصر ، فاستخلف عليها ابن طولون وجعله على حاضرتها ، وضم اليه جيشا فدخلها في شهر رمضان سنة ٢٥٤هـ . وكان ولاة مصر في ذلك العصر لا ينيبون عنهم شخصا واحدا في هذه البلاد ، وانما كانوا يقسمون اعمالها بين عدة اشخاص ليكون كل واحد منهم عينا على الآخر ، فلا يتطلع احدهم الى الاستقلال بها في يده خشية اتفاق الآخرين عليه . وكان هؤلاء الاتراك يسندون القضاء والخراج لغير هؤلاء الولاة ، وبذلك كانت اعمال مصر عندما دخلها احمد بن طولون مقسمة بين عدة اشخاص : فكان على الاسكندرية اسحاق بن دينار ، وعلى برقة احمد بن عيسى الصعيدى ، وعلى القضاء بكار بن قتيبة ، وعلى البريد شقير الخادم غلام قبيحة أم المعتز ، وعلى الخراج احمد بن المدبر .

من ذلك نرى ان ولاية مصر لم تصف لابن طولون ، لانه انما تقلد قصبة هذه البلاد دون غيرها ، اذ كان يحكمها باسم واليها باكباك ، وفي استطاعته ان يعزله اذا لم يحز رضاه . هذا فضلا عما كان من منافسة ابن المدبر عامل الخراج في مصر ومثابرته على الايقاع به عند الخليفة ، ومن قيام الثورات التي أضرم نارها الخوارج في مصر ومن بينهم ابنه العباس ، الى ماكان من سخط ابي احمد طلحة ولي العهد عليه وعمله على صرفه عن هذه البلاد فلم يكن بد من ان يعمل ابن طولون على

التغلب على هذه الصعاب وتثبيت قدم أولاده من بعده .

قتل باكباك فتولى مصر يارجوخ صهر احمد بن طولون ، فكتب اليه " تسلم من نفسك لنفسك " . وبذلك أقره على ما بيده ، وزاد في سلطته بأن استخلفه على مصر كلها . وزاد قلق ابن المدبر عامل الخراج ، الذى أثار سخط المصريين بزيادته الضرائب ، واستعماله القسوة في جبايتها ، وعمل على عزل ابن طولون ، وخشي عاقبة أمره في مصره فطلب صرفه عن خراجها ، وتقلد خراج دمشق وفلسطين والاردن في سنة ٢٥٧هـ ، وتقلد خراج مصر من بعده احمد بن خالد .

وفي شهر رمضان سنة ٢٥٩هـ مات يارجوخ صاحب اقطاع مصر الذى كان ابن طولون يحكمها نيابة عنه ويدعو له على منابرها بعد الخليفة ، فتوطدت قدمه في هذه البلاد واصبح واليا عليها من قبل الخليفة مباشرة . وفي سنة ٢٦٣هـ كتب الخليفة المعتمد (٢٥٦–٢٧٩هـ) الى ابن طولون يستحثه على ارسال الخراج ، فرد عليه : " لست أطبق ذلك والخراج في يد غيرى " ، فقلده خراج مصره وولاه الثغور الشامية ، وبذلك اصبحت جميع اعمال مصر الادارية والقضائية والعسكرية والمالية في يده .

بعد ان قضى ابن طولون على الصعاب التي قامت في وجهه في مصره اعترضته صعوبة كادت تقضي على آماله ، لولا ما أوتيه من حسن السياسة وعلو الهمة ورباطة الجأش . وكان مصدر هذا الشر ابو احمد الموفق طلحة ، الذى غلب أخيه الخليفة حتى انه لم يبق له من الخلافة الا اسمها . كما ان ثورة الزنج الطاحنة أثارت عداء الموفق لابن طولون والي مصر ، الذى وقف على مدى الخطر الذى هدد سلامة الدولة العباسية من ناحية الزنج ، فبعث الى الموفق بمليون ومائتي ألف دينار استقل هذا المال ، وبعث الى ابن طولون بكتاب ينطوى على الجفاء والشر ، فرد عليه بكتاب شديد اللهجة .

وعلى الرغم من ان الخليفة العباسي كان يميل الى ابن طولون ، أرغم على عزله من ولاية الثغور الشامية ، لكنه لم يلبث ان رد ها اليه بعد ان اضطربت احوالها . ووجد ابن طولون الفرصة سانحة لاخذ بلاد الشام بعد وفاة واليها ماجور

لاشتغال الموفق بحرب صاحب الزنج ، وخشي ضياع ولاية الثغور منه بسبب وقوع بلاد الشام بينها وبين مصره وسار بجيشه نحو بلاد الشام ، فدانت له أمهاتها مدنها ، ودعي له على منابرها (٢٦٤ــ ٢٦٥هـ) ، ولكنه اضطر الى العودة الى مصر لقمع ثورة ابنه العباس . ثم خرج ابن طولون الى الشام (جمادى الاولى سنة ٢٦٩هـ) بعد ان اتصل به نبأ خروج لؤلؤ والي الرقة عليه وانضمامه الى الموفق ، واستخلف على مصر ابنه خمارويه . وبينما هو في طريقه اليها ، بلغه خروج اهل طرسوس عليه فعول على المسير اليها . ولكنه لما وصل الى دمشق جاءه كتاب الخليفة العباسي ينبئه فيه بالمسير اليه والاحتماء به . ورحب ابن طولون بهذه الفكرة لما تنطوي عليه من تقوية شأنه في مصر . ولكن ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة قبض على الخليفة المعتمد وساقه الى سامرا ، وكوفيء بولاية مصر .

وقد فعلت سياسة الموفق فعلها في الناس ، فقد كان من أثر لعن الخليفة ولعن ابنه المفوض واخيه الموفق لابن طولون ، وانضمام لؤلؤ ومن معه من القواد ومنافسة ابن كنداج له وتوليته على مصر والشام ، ان ضعف نفوذه الادبي في البلاد التي دانت لسلطاته . فحلت الهزيمة بجيشه في مكة ، ولعن في المسجد الحرام . وكان من أثر هذه الدعاية الواسعة التي نشرها الموفق ضد عدوه ابن طولون ، ان حلت به الهزيمة لأول مرة في طرسوس ومات اكثر جنده من البرد بسبب غرق أمتعتهم .

وسار ابن طولون بعد ذلك الى المصيصة واقام بها ثلاثة أيام . وهنا عرضت له علته التي أودت بحياته .

قال الكندي : وتزايدت علة احمد بن طولون ، فأمر الناس بالدعاء له فغدا الناس بالدعاء له الى مسجد محمود بسفح المقطم يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة سبعين ومائتين . وحضر معهم القصاص فدعوا له ، ثم غدوا ايضا بالدعاء له . وحضرت اليهود والنصارى معتزلين عن المسلمين ، وحضروا ايضا اليوم الثالث مع النساء والصبيان ، واقاموا على ذلك اياما . ثم توفي ليلة الاحد لعشر خلت من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين وله من العمر خمسون سنة وشهر وسبعة عشر يوما ، ودفن باليحموم بسفح المقطم بعد ان حكم نيفا وستة عشر سنة ، وترك من الاولاد ثلاثة

وثلاثين ، منهم سبعة عشر من الذكور وستة عشر من الاناث .

كان ابن طولون بعيد النظر عالي الهمة قوى البأس شديد المراس . اتسع ملكه حتى امتد من العراق الى برقة ومن النوبة الى آسيا الصغرى ، وخشي بأسه امبراطور الروم ، على مابين بلاديهما من بعد الشقة ووعورة الطريق ، فأهدى اليه عدة مصاحف للقرآن الكريم ، وأرسل اليه من تحت يده ، من المسلمين .

وكان ابن طولون سياسيا محنكا ، وقائدا ماهرا ، خبيرا بأساليب الحروب وتعبئة الجيوش ، كما كان اداريا حازما ، وقف على موارد الثروة على اختلافها ، وعرف كيف يستغلها لمصلحة دولته من غير ان يرهق الاهلين بالمكوس والضرائب ، وعمل على ترفيههم ونشر العدل بينهم ، فاستتب الامن واستقرت الامور وسادت الطمأنينة بين الناس . وشمل الرخاء البلاد في عهده ، حتى بيع عشرة الأرادب من القمح بدينار واحد .

هذا ، الى تحصينه الثغور والاحتفاظ بجيش كامل العدد والعدة . كما ضرب بسهم وافر في سبيل الاصلاح ، فاهتم بالزراعة وعنى باقامة الجسور وحفر الترع .

أما اخلاقه وصفاته ، فقد كان مضرب الامثال في الكرم والجود ، وفي الشجاعة والبسالة ، وفي صدق الفراسة ، وفي العدل والتواضع . وكان يقرب اليه العلماء ، ويجزل لهم العطاء ، كما كان يتصدق على الفقراء . فقد أثر عنه انه كان يتصدق كل شهر بألف دينار . وكان — الى جانب ذلك — يبذل في اعمال الخير الف دينار في كل يوم .

قال المقريزى (خطط جـ ١ ص ٣١٦) : " وكانت صدقاته على اهل المسكنة والستر من الضعفاء والفقراء واهل التجمل متواترة . سوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصداقات في داره وغيرها ، ويذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع على كل قدر او قصعة اربعة ارغفة ، في اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران على القدر . وكانت تعمل في داره وينادى : من أحب ان يحضر دار الامير فليحضر وتفتح الابواب ويدخل الناس ، وابن طولون ينظر ويتأمل فرحهم

بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته .

ويعد ابن طولون من حفظة القرآن المعدودين ، ولذلك كان من اكثر الولاة احتراما لحفاظه .

خمارويه (٢٧٠ـ ٢٨٢هـ) :

بعد وفاة ابن طولون ، اجتمع الجند ـ على ماقضت به العادة في ذلك الوقت ـ وولوا مكانه ابنه خمارويه : ولم يستطع الخليفة العباسي الا الموافقة على تعيين الوالي الجديد وله من العمر عشرون سنة . ولم تكن ولاية مصر قد توطدت اركانها لآل طولون ، واصبح خمارويه امام عدة صعاب لا سبيل الى التغلب عليها الا بالقوة حينا وبالدهاء حينا آخر .

ولا غرو ، فقد ظلت مصر في عهد خمارويه كما كانت في عهد أبيه ، محط اطماع المتنافسين من القواد الاتراك ، ومثار حسد ابي احمد الموفق ، فواصل لعن الموفق على المنابر ، وبعث الواسطي كاتب ابيه بجيش كثيف ، وعززه من البحر بأسطول قوى : وخرج الموفق من بغداد ، وانضم اليه ابن كنداح والي الموصل ، ومحمد ابن ابي الساج والي ارمينية والجبال ، واستولوا على دمشق . فلم ير خمارويه بدا من الخروج بنفسه ، فدخل دمشق سنة ٢٧٣هـ ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداح في اعماله ، وتم الصلح بين والي مصر ودار الخلافة ، وكتب الموفق والخليفة المعتمد وابنه المفوض كتاب الصلح بأيديهم ـ ويتضمن تولية خمارويه وأولاده ، من بعده ، على مصر والشام ثلاثين سنة . هنا أمر خمارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر والدعاء له مع الخليفة .

وكان من اثر هذا الانتصار ان استولى خمارويه على الرقة ، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة ، ودعي له على منابرها ، كما اخضع ابن ابي الساج (٢٧٦ هـ/ ٨٨٩م) ، وطارد جيوشه الى مدينة (بلد) على نهر دجلة ، حيث بنى على شاطئه سريرا من الذهب ليجلس عليه ، اشارة بما حازه من نصر مؤزر . كما كان من اثر هذا الانتصار ان اعترف بسلطانه والي طرسوس (٢٧٦هـ) ، بعد ان كان قد نبذ طاعة

الطولونيين سنة ٢٧٠هـ . ولم تقتصر اعمال خمارويه الحربية على ماتقدم، بل اتسع نفوذ مصر في عهده الى ماوراء ولاية طرسوس ، فغزت جيوشه الولايات الرومانية عدة مرات (٢٧٧ــ ٢٧٩هـ) .

وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج (سنة ٢٧٨هـ) والخليفة المعتمد (سنة ٢٧٩هـ) على توطيد سلطان خمارويه الذى استطاع ان يكسب رضا الخليفة المعتضد بهداياه ، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة ، وجعلها لاولاده من بعده . وكان من أثر سياسة حسن التفاهم ان عرض خمارويه زواج ابنته اسماء التي تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة العباسي ، ولكن الخليفة اختارها لنفسه .

توفي خمارويه في سنة ٢٨٢هـ وكان محبا للترف يبذل الاموال الضخمة على أبهة بلاطه ومبانيه الفخمة ومتنزهاته وغير ذلك . وقد بلغت نفقات جيشه تسعمائة الف دينار كل سنة ، وكانت رواتبهم وأرزاقهم تدفع اليهم بانتظام . هذا الى ماعرف عن خمارويه من كثرة انفاقه على مطابخه ، حتى بلغت نفقاته كل شهر ثلاثة وعشرين الف دينار (٢٧٦٠٠٠ دينار في السنة) . ولا شك ان كثرة هذا المبلغ وتسمية مطبخه مطبخ العامة يدلان على انه نسج على منوال ابيه في حبه للجود والكرم ، وشغفه بمد يد المساعدة الى الفقراء والمعوزين ، هذا الى ماأطلقه من الارزاق لجواريه واولاده ومن يقوم بخدمتهم .

زوال الدولة الطولونية (٢٨٢ــ٢٩٢هـ) :

ولى مصر بعد خمارويه ثلاثة من آل طولون لم يزد حكمهم على عشر سنين ، لم تستفد البلاد فيها شيئا غير انتشار الفوضى ، وتألب الجند وتنازع السلطة بين المتنافسين ، وانتصار الجند لفريق دون فريق . ذلك انه لما توفي خمارويه بدمشق (ذو القعدة ٢٨٢هـ) عاد ابنه ابو العساكر جيش الى مصر، حيث اخذ الناس عليه امورا أثارتهم عليه ، فاستوحش من كبار الجند وتنكر لهم، فعملوا على الكيد له والخلاص منه ، وفر بعضهم الى الخليفة العباسي ، وخلع طاعته طغج بن جف (ابو محمد الاخشيد موسس الدولة الاخشيدية بمصر) عامل دمشق . وقد آل جيش على

ولى اقليم طبرية وجبل الشراة نيابة عن تكين ، وذلك على اثر بلائه وايقاعه بجماعة من لخم وجذام كانوا قد دهموا حاج الشام وجماعة من اهل العراق ، منهم جارية أم الخليفة المقتدر . وقد سار الاخشيد بالاسرى الى دمشق ، فحمد له تكين هذا العمل ، وكتب اهل العراق بما كان من خلاصهم على يد الاخشيد ، فاشتهر أمره ، وكتب اليه الناس يشكرون له فعله ويحمدون مروءته .

ولا غرو فقد كان من اثر انتصار محمد بن طغج على جند الفاطميين الذين غزوا مصر (٣٢١ـ ٣٢٤هـ) ، ان أمر الخليفة العباسي بزيادة " الاخشيد " على اسمه ، وهو اللقب الذى كان يطلق على ملوك فرغانة ، ودعي له بهذا اللقب على منابر مصر والشام في شهر رمضان سنة ٣٢٧هـ .

وقد أعاد الاخشيد النظام والسكينة ، ووطد مركزه في مصر والشام ، وصد غزوات الفاطميين الذين ارسلوا الى مصر حملة استمرت ثلاث سنوات (٣٢١ـ٣٢٤هـ) حدثت فيها مناوشات بين جند الفاطميين والمصريين ، وانتهت بمعاهدة الصلح .

ويخبرنا الكندى انه حدثت في عهد ولاية الاخشيد الثانية (رمضان سنة ٣٢٣ـ جمادى الثانية سنة ٣٢٤) عدة مواقع انتهت بعقد الصلح بين الفريقين ، وانضمام بعض الزعماء المصريين الى جيش المغاربة الذى دخل الاسكندرية ، فأرسل اليهم الاخشيد جيشا هزمهم وأرغمهم على العودة الى بلادهم .

وكتب القائم الفاطمي الى الاخشيد بيده كتابا دوّنه ابن سعيد في كتابه " المغرب في حلى المغرب " . وانما فعل القائم ذلك رغبة منه في ان تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لا تفعله سياسة العداوة والحرب التي أخفق فيها هو وأبوه من قبل .

وقد سادت صلة الوفاق بين الاخشيد والخلافة العباسية الى سنة ٣٢٨هـ ، حين تبدلت هذه الصلة بمسير محمد بن رائق الخزرى الى الشام يريد مصر بتقليد من الخليفة ، مما حدا بالاخشيد الى الغاء الخطبة للخليفة العباسي وذكر اسم الخليفة الفاطمي محل اسمه في الخطبة ، اوعلى الاقل الى وقف الدعوة للخليفة

رأى هارون انه لا طاقة له بهزيمة الجيش العباسي ، فصمم على الفرار ، ولجأ الى العباسة ، ومعه اهله واعمامه ونفر يسير من جنده . وفي هذا المكان قتله عماه شيبان وعدى ابنا احمد بن طولون ، وهو منشغل باللهو ثمل بالخمر (صفر سنة ٢٩٢هـ) ولم يناهز حينذاك الثانية والعشرين من عمره .

هكذا انتهت ولاية هارون الذى قتل بيد عميه ، فكان طبيعيا اذا ان يؤول امر هذه الولاية الى احد قتلته . وقد آلت فعلا الى عمه شيبان الذى لم يلبث ان سار الى الفسطاط ليتسلم مقاليد هذه الولاية . بيد ان هذا العمل لم يرض الجند ، بل أغضبهم بمقدار ما اغضبهم قتل مضر بن احمد بن طولون على يد ابن اخيه جيش ابن خمارويه من قبل . وانكر القواد جميعا ، ما أتاه شيبان واخوه ، ولم يعترفوا بولاية شيبان ، وكاتبوا محمد بن سليمان وطلبوا منه المسير الى مصر ، فسار حتى نزل العباسة حيث لقيه طغج بن جف في جمع كثير من القواد ، وصحبوه الى الفسطاط . وهنا انضم اليهم اصحاب شيبان الذى لم يجد بدا من طلب الامان من محمد بن سليمان . وفي شهر ربيع الاول من سنة ٢٩٢هـ خرج شيبان ، ولم يكن قد مضى على ولايته غير اثنى عشر يوما ، ودخل القائد العباسي مدينة القطائع ، والقى فيها النار ، ونهبت رجاله الفسطاط وكسروا ابواب السجون واخرجوا اولاد ابن طولون وانصارهم من القواد . وهكذا زالت الدولة الطولونية بعد ان حكمت هذه البلاد ثمانيا وثلاثين سنة .

على ان الاضطرابات استمرت في هذه البلاد ، بسبب ضعف الخلفاء العباسيين ، وعجزهم عن المحافظة على سلطانهم فيها ، ثم لاستبداد الاتراك بالسلطة ، وضعف مصر نفسها وقيام المنافسة بين الولاة وعمال الخراج . هذا الى ان مصر قد تعرضت في ذلك الوقت لغزوات الفاطميين ، الذين أسسوا دولتهم في بلاد المغرب سنة ٢٩٦هـ ، وحاولوا الاستيلاء على مصر مرات لاتخاذها مركزا لنشر دعوتهم ، ومقرا لخلافتهم وبسط نفوذهم في الشرق ، وظلت مصر على هذه الحال ، الى ان ولاها محمد بن طغج الاخشيد ، فدخلت في عهده في طور جديد من التقدم والاصلاح .

٢ــ الدولة الاخشيدية في مصر والشام

(٣٢٣ــ ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ ــ ٩٦٩م)

	هجرية	ميلادية
١ ــ محمد الاخشيد بن طغج	٣٢٣	٩٣٥
٢ ــ ابو القاسم أنوجور بن الإخشيد	٣٢٤	٩٤٦
٣ ــ ابو الحسن علي بن الاخشيد	٣٤٩	٩٦٠
٤ ــ أبو المسك كافور	٣٥٥	٩٦٦
٥ ــ ابو الفوارس احمد بن علي	٣٥٧	٩٦٧
		٩٦٩

محمد بن طغج الاخشيد (٣٢٣ــ٣٣٤هـ) :

كان ابو بكر محمد بن طغج بن جف من اولاد ملوك فرغانة ، وكان كل من ملوكها يلقب بالاخشيد ، كما يلقب ملك الفرس بكسرى ، وملك الروم بقيصر، وملك الحبشة بالنجاشي .

سار جف جد الاخشيد الى الخليفة المعتصم، فأكرمه ، وأقام معه الى ان توفي هذا الخليفة ، فاتصل بابنه الواثق ثم بأخيه المتوكل ، وظل على ذلك الى ان توفي في نفس الليلة التي قتل فيها المتوكل .

ولما سار جف الى بغداد بمن بقي معه من الطولونيين وانصارهم، سار معه ابنه طغج ، فنقم على الوزير العباس بن الحسن ، لانه ترفع عن النزول له والترجل،

فأوقع به الوزير عند الخليفة وحبسه مع ابنيه محمد وعبيد الله .

وقد ظل طغج وابناه في الحبس الى ان توفي سنة ٢٩٤هـ على ماتقدم ، فأطلق الوزير ابنيه ، فلزما خدمته ، وكانا يركبان معه اذا ركب ويقفان بين يديه اذا جلس ، وظلا على ذلك الى اليوم الذى ضرب فيه الحسين بن حمدان الوزير العباس بن الحسن بالسيف على عاتقه . ولم يكن ولدا طغج نسيا الاخذ بثأر ابيهما كما لم يكن ابن حمدان يجهل مافعله الوزير بطغج . فلما سقط الوزير عن جواده ، صاح ابن حمدان بولدى طغج ليثأرا لقتل ابيهما ، فضربا العباس بالسيف . وهرب ابن حمدان الى ديار ربيعة ، وهرب عبيد الله بن طغج الى شيراز حيث دخل في خدمة اميرها .

اما طغج بن جف فقد زودنا ابن زولاق بشيء ذى غناء عن سيرته ، فذكر لنا انه ولد له سبعة اولاد من الذكور ، احدهم محمد الاخشيد الذى ولد في منتصف شهر رجب سنة ٢٦٨هـ بشارع باب الكوفة ببغداد ، ووصفه بالثراء وسعة العيش . اتصل محمد بن طغج بخدمة ابن بسطام عامل بلاد الشام ، وقد ذكر ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق ان عبيد الله بن طغج عاد الى بغداد في ايام الخليفة المقتدر ، واتصل بخدمته ، وحاز من علو المرتبة ماجعله يفتخر على اخيه الاخشيد ، فكان يخرج معه للصيد . ولما ولى ابن بسطام مصر صحبه الاخشيد اليها وبقي معه الى ان توفي سنة ٢٩٧هـ ، فانضم بخدمة ابنه ابي القاسم علي ، ثم حارب تحت قيادة تكين ، في الموقعة التي دارت بين الجند المصريين وجند حباسة بن يوسف الكتامي قائد عبيد الله المهدى الفاطمي في بلاد المغرب . وفي هذه الموقعة أبلى الاخشيد بلاء حسنا ، وتوثقت الصلة بينه وبين تكين ، فكان يتنقل معه بين الشام ومصر . وقد ولى عمان وحبل الشراة شمالي العقبة سنة ٣٠٦ هـ نيابة عن تكين الذى كان يلي بلاد الشام اذ ذاك ، ثم ولاه الاسكندرية في ولايته الثانية على مصر (٣٠٧ــ ٣٠٩هـ) ، واشترك في غزوة الفاطميين الثانية على مصر بقيادة القائم ابن المهدى وولي عهده .

اشتهر أمر محمد بن طغج في الدولة العباسية منذ سنة ٣٠٦هـ ، حين

ولى اقليم طبرية وجبل الشراة نيابة عن تكين ، وذلك على اثر بلائه وايقاعه بجماعة من لخم وجذام كانوا قد دهموا حاج الشام وجماعة من اهل العراق ، منهم جارية أم الخليفة المقتدر . وقد سار الاخشيد بالاسرى الى دمشق ، فحمد له تكين هذا العمل ، وكتب اهل العراق بما كان من خلاصهم على يد الاخشيد ، فاشتهر أمره ، وكتب اليه الناس يشكرون له فعله ويحمدون مروءته .

ولا غرو فقد كان من اثر انتصار محمد بن طغج على جند الفاطميين الذين غزوا مصر (٣٢١ـ ٣٢٤هـ) ، ان أمر الخليفة العباسي بزيادة " الاخشيد " على اسمه ، وهو اللقب الذى كان يطلق على ملوك فرغانة ، ودعي له بهذا اللقب على منابر مصر والشام في شهر رمضان سنة ٣٢٧هـ .

وقد أعاد الاخشيد النظام والسكينة ، ووطد مركزه في مصر والشام ، وصد غزوات الفاطميين الذين ارسلوا الى مصر حملة استمرت ثلاث سنوات (٣٢١ـ٣٢٤هـ) حدثت فيها مناوشات بين جند الفاطميين والمصريين ، وانتهت بمعاهدة الصلح .

ويخبرنا الكندى انه حدثت في عهد ولاية الاخشيد الثانية (رمضان سنة ٣٢٣ـ جمادى الثانية سنة ٣٢٤) عدة مواقع انتهت بعقد الصلح بين الفريقين ، وانضمام بعض الزعماء المصريين الى جيش المغاربة الذى دخل الاسكندرية ، فأرسل اليهم الاخشيد جيشا هزمهم وأرغمهم على العودة الى بلادهم .

وكتب القائم الفاطمي الى الاخشيد بيده كتابا دوّنه ابن سعيد في كتابه " المغرب في حلى المغرب " . وانما فعل القائم ذلك رغبة منه في ان تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لا تفعله سياسة العداوة والحرب التي أخفق فيها هو وأبوه من قبل .

وقد سادت صلة الوفاق بين الاخشيد والخلافة العباسية الى سنة ٣٢٨هـ ، حين تبدلت هذه الصلة بمسير محمد بن رائق الخزرى الى الشام يريد مصر بتقليد من الخليفة ، مما حدا بالاخشيد الى الغاء الخطبة للخليفة العباسي وذكر اسم الخليفة الفاطمي محل اسمه في الخطبة ، اوعلى الاقل الى وقف الدعوة للخليفة

العباسي ردحا من الزمن .

وفي هذه السنة وقعت الحرب في العريش بين الاخشيد وابن رائق ، الذي استولى على دمشق من قبل ، فمضى ابن رائق منهزما الى الرملة ، وعلى الرغم من قتل عبيد الله بن طغج أخي الاخشيد ، عقد الصلح على مايحب ابن رائق ، فتقلد ولاية الاراضي الشامية الواقعة شمالي الرملة ، وتعهد الاخشيد بأن يدفع اليه ١٤٠ر٠٠٠ دينار جزية سنوية ، مما حدا ببعض المؤرخين الى ان يعد عقد الاخشيد للصلح على هذه الصورة مع انتصاره على خصمه دليلا على ضعف سياسته .

على اننا نرى في عمله هذا مايبرره نظرا للاحوال التي كانت تربط به ، لانه كان يخشى ان تواصل الخلافة العباسية الحملات عليه ، على الرغم من انتصاره في هذه المرة ، ولانه كان يخشى خصما آخر يهدده من ناحية مصر الغربية ، وهو الخليفة الفاطمي .

بيد ان وفاة ابن رائق بعد الصلح بسنتين أعادت الى حوزة الاخشيد كل بلاد الشام من غير حرب ، ودخلت مكة والمدينة تحت سيادة مصر ، واصبح الاخشيد من القوة بحيث يستطيع ان يأمر عماله وقواده بالاعتراف بولاية ابنه أنوجور .

غير ان الامر لم يكن قد استتب للاخشيد بعد ، لخروج العلويين عليه في مصر ، ومناوأة الحمدانيين الذين استولوا على قنسرين والعواصم سنة ٣٣٢هـ فولاها ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان . ثم سار الاخشيد الى الشام ، فانتهز ابن السراج العلوى هذه الفرصة وسار الى الصعيد ونهب بعض بلاده . ولكن قوته لم تكن بالتي تديل دولا وتقيم أخرى ، فسرعان ماسار الى برقة ودخل في سلطان الخليفة .

وقد ساءت العلاقة بين الاخشيديين وسيف الدولة الحمداني على اثر استيلائه على حلب واضطر الاخشيد الى عقد الصلح الذى يقضي بترك حلب ومايليها من بلاد الشام شمالا للحمدانيين ، وتعهد بأن يدفع لهم جزية سنوية كفاء احتفاظه بدمشق .

وصاية كافور على أولاد الاخشيد :

ولما شعر الاخشيد بدنو أجله ، عهد الى كافور بالوصاية على ولده ابي القاسم انوجور . وقد مات الاخشيد بدمشق في ٢٤ ذى القعدة سنة ٣٣٩هـ (يوليه سنة ٩٤٦م) ، وهو في السادسة والستين من عمره ، ونقل الى بيت المقدس ، ودفن بها بعد ان ولى مصر احدى عشرة سنة وثلاثة اشهر ويومين . فخلفه ابنه ابو القاسم أنوجور ثم ابو الحسن علي . ولا نستطيع الحكم عليهما ، اذ لم تترك لهما الفرصة الكافية لاظهار كفايتهما حتى ماتا في غموض تام لم يشعر بولايتهما احد . وكان أنوجور في ذلك الحين لا يزال طفلا لم يجاوز الرابعة عشرة من عمره ، فقام بتدبير امره كافور الاخشيد ، الذى بقيت علاقته بهذا الوالي الجديد على ماكانت عليه من قبل ، وهي علاقة الاستاذ بالتلميذ ، واصبح كافور بذلك صاحب السلطان المطلق في ادارة الدولة الاخشيدية . " وبقي الاسم لأبي القاسم والدست لكافور".

وقام في وجه كافور في مبدأ حكمه بعض المشاكل الداخلية والخارجية ، فنجح في القضاء على ثورة قام بها اهل مصر ، فارتفع شأنه عند الناس على اختلافهم . وبعد ذلك بقليل وردت الانباء باضطراب الامور في الشام واستيلاء سيف الدولة الحمداني صاحب حلب على دمشق وبأنه عول على المسير الى الرملة لغزو مصر ، فحاربه كافور وانتصر عليه انتصارا حاسما بالقرب من مرج عذرا بجوار دمشق ، ودخل الجيش المصرى مدينة حلب ، وعقدت بين الفريقين معاهدة الصلح ، بنفس الشروط التي عقدت بها في اواخر ايام الاخشيدى ، ماعدا الجزية التي وقف دفعها .

وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسي على تولية الامير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، كما ضم الى حكم مصر فيما بعد كل بلاد سورية حتى مدينتي حلب وطرسوس . وبذلك عظم شأنه وزادت شهرته ، واستطاع ان يقبض على زمام الاحكام من غير ان تكون له سلطة شرعية . وخاطبه علية القوم بالاستاذ ، وذكر اسمه في الخطبة ، ودعي له على المنابر في مصر والبلاد التابعة لها ، وأتيح له بما أغدقه من العطايا والهبات ان يكتسب محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين .

على ان أنوجور لما كبر وشعر بحرمانه من سلطته ظهرت الوحشية بينه وبين كافور. وانقسم الجند فريقين : الاخشيدية ، وهم مماليك الاسرة الاخشيدية وانصارها، والكافوريون وهم انصار كافور الذين رقاهم الى المناصب العالية في الدولة. ومع ذلك ظل كافور على ما هو عليه يصرف لابن سيده راتبا سنويا قدره اربعمائة الف دينار.

ولا شك ان كافورا كان مشغولا بالامارة ولوعا بالسلطة ، فانه لما تولى ابو الحسن علي بن الاخشيد بعد اخيه أنوجور ، ظل يباشر الامور بنفسه ، على الرغم من ان الوالي الجديد قد ناهز الثالثة والعشرين من عمره ، بل انه حرمه كل عمل، ومنع الناس من الاجتماع به ، فأصبح ابو الحسن أسيرا في قصره لا عمل له الا الصلاة او اللهو. وعيّن له كافور — كما عيّن لاخيه من قبل — اربعمائة الف دينار في كل سنة ، وبقي ابو الحسن على ذلك الى ان مات سنة ٣٥٥هـ بالعلة التي مات بها أخوه من قبل.

وكان الوارث للعرش ولدا صغيرا يدعى احمد بن ابي الحسن علي، فحال كافور دون تعيينه بحجة انه غير صالح للحكم لصغر سنه ، وبقيت مصر بغير امير نحوا من شهر. وفي المحرم سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتابا من الخليفة العباسي بتقليده على ولاية مصر، وأظهر الخلع التي وصلت اليه من الخليفة ، فنودي به واليا على مصر وما يليها من البلاد ، فلم يتغير لقبه "الاستاذ" ودعي له بعد الخليفة على المنابر.

ظل كافور على رأس الحكومة المصرية زهاء سنتين واربعة اشهر (١٠ صفر ٣٥٥ — جمادى الاولى سنة ٣٥٧هـ) . ويصف المؤرخون عهده بأنه كان عهدا أسود ، توالت فيه المصائب على مصر، فقد تعرضت بلاد الشام لغارات القرامطة الذين نهبوها وقبضوا على قافلة مصرية كبيرة تتألف من عشرين الف جمل كانت ذاهبة الى مكة لأداء فريضة الحج (سنة ٣٥٥هـ) ، ووقعت بمصر زلازل مروعة ، وشبت نيران هائلة دمرت ١٧٠٠ منزل من منازل الفسطاط ، وأغار ملك النوبة على مصر فجأة ، وعاث فسادا في البلاد الواقعة بين الشلال الاول وأخميم ، فأحرق بعض المدن وقتل اهلها بالسيف ونهب اموالهم . وكان أشد هذه الاهوال انخفاض ماء النيل.

وفي عهد كافور حاول المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين العودة لغزو مصر، وسار بجيشه الى حدود هذه البلاد الغربية، ووصل الى الواحات. فجهز اليه كافور جيشا أوقف تقدمه وطرده، ولكنه تلقى بالقبول الدعاة الفاطميين الذين قدموا عليه من قبل المعز يدعونه الى طاعته والاعتراف بسيادته، ووجد كثير من رجال بلاط وكبار موظفي دولته بتقديم الولاء للخليفة الفاطمي.

روى ابو المحاسن عن الذهبي: "وكان كافور يدني الشعراء ويجيزهم، وكانت تقرأ عنده في كل ليلة السير وأخبار الدولة الاموية والعباسية، وله ندماء. وكان عظيم الحرمة، وله حجاب، وله جوار مغنيات، وله من الغلمان الروم والسود مايتجاوز الوصف. زاد ملكه على مولاه الاخشيد. وكان كثير الخلع والهبات، خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا، جيد العقل داهية. كان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله اليه وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس، ويداري ويخادع هؤلاء وهؤلاء، وتم له الامر".

وقد نبغ بمصر في عهد كافور الاخشيد كثير من الفقهاء والادباء والمؤرخين ومن أشهرهم القاضي ابو بكر بن الحداد، وتلميذه محمد بن موسى المعروف بسيبويه المصري، وابو عمر الكندي، والحسن بن زولاق.

توفي كافور بمصر في شهر جمادى الاولى سنة ٣٥٧هـ، وعاش بضعا وستين سنة، وكذلك امارته على مصر ثلاثا وعشرين سنة، استقل منها بالملك سنتين وأربعة شهور، خطب له فيها على منابر مصر والشام والحجاز والثغور، مثل طرسوس والمصيصة وغيرهما، وحمل تابوته الى القدس فدفن به، وكتب على قبره:

مابال قبرك ياكافور منفردا	بالصّحصح المرت بعد العسكر اللجب
يدوس قبرك آحاد الرجال وقد	كانت أسود الشرى تخشاك في الكتب

ولما توفي كافور، اختار رجال البلاط ابو الفوارس احمد حفيد الاخشيد واليا على هذه البلاد، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من عمره، فعينوا الحسن بن عبيد الله بن طغج — والي الشام — وصيا عليه. غير انه لم يلبث ان استبد بالأمر وأساء معاملة الاهلين، فسخط عليه المصريون، واضطر اخيرا الى العودة الى

بلاد الشام ، وقد انتهز المعز لدين الله الفاطمي فرصة هذا الاضطراب الـــذى فشا في مصر ، وضعف بغداد عن الدفاع عنها ، لاشتغالها بصد غارات البيزنطيين الذين توغلوا في بلاد الدولة العباسية ، فبعث جيشا لغزو مصر بقيادة جوهـــر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ [١] .

---

(١) انظر، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ج ٣ ، ص ١٢٦ — ١٤٢ .

الفصل الثالث

قيـــام دولـــة الاغالبـــة

فـــي القيـــروان

ولاية ابراهيم بن الاغلب :

مؤسس دولة الاغالبة هو ابراهيم بن الاغلب بن سالم بن عقال التميمي ووالده الاغلب قد عهد اليه المنصور بولاية افريقية في أواخر سنة ١٤٨ هـ ومات بضرية سهم في سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧ م (١) .

أما ابراهيم فيذكر عنه الكتاب أنه أمضى صباه في طلب العلم في فسطاط مصر وانه كان يختلف كثيرا الى مجالس الليث بن سعد فقيه مصر الاشهر . وتذكر الرواية أن الليث قال يوما عنه : " ليكونن لهذا نبأ وشأن " (٢) ويفهم من رواية الرقيق أنه خرج من مصر شابا رحاله الى افريقية حتى وصل الزاب وكان والي افريقية في ذلك الوقت عمر الفضل ابن روح " فلقي من تعصبه وسوء مجاورته عظيما " (٣) . وولى ولاية الزاب وتدخل لنصرة محمد بن مقاتل العكي كما سبق أن رأينا .

ويفهم من الرواية ان ولاية ابراهيم لافريقية لم تتم بسهولة ، وانه حدث بينه وبين الوالي السابق محمد بن مقاتل العكي صراع مرير . فهناك رواية في تاريخ افريقية الرقيق تقول : انه بعد ان أعاد ابن الاغلب الى الولاية محمد بن مقاتل العكي كتب صاحب البريد في افريقية يحيى بن زياد الى هارون الرشيد بخبر ابن العكي وتمام ، وما كان من أمورهم ، فلما قرأ الرشيد الكتاب على اصحابه وعرفهم ما فعل ابراهيم بن الاغلب وشاورهم في الامر ، واستشار على وجه الخصوص عرثمة بن أعين والي المغرب السابق ، الذى اكد له انه ليس بافريقية " أحد أفضل طلعة ولا أبعد صيتا ولا أرضى عند الناس من ابراهيم " (٤) فكان ذلك سببا في ان كتب الرشيد عهده على افريقية الى ابراهيم بن الاغلب (٥) .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٧٤ ـ ٧٥ .

(٢) الرقيق ، تاريخ افريقية ، ص ٢١٢ . وقارن ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢ ، حيث يقول النذر " ليكونن لهذا الفتى شأن " .

(٣) الرقيق ، ص ٢١٣ .

(٤) الرقيق ، تاريخ افريقية ، ص ٢٢٠ .

(٥) الرقيق ، ص ٢٢٠ .

وهناك رواية اخرى في كتاب الكامل لابن الاثير تقول ان ابن الاغلب كان قد كتب الى الرشيد بناء على طلب اهل البلد يطلب منه ولاية افريقية وانه عرض على الرشيد الاستغناء عن المعونة السنوية التي كانت تحمل الى افريقية من مصر وتقدر بمائة الف دينار وانه تعهد ان يحمل كل سنة أربعين ألف دينار الى بيت مال الخلافة[١]. وكما يقول الدكتور سعد زغلول يمكن التوفيق بين الروايتين اذا اعتبرنا أن اتصال ابن الاغلب بالرشيد كان عن طريق عمال الخليفة مثل صاحب البريد »[٢].

ونستشف من الرواية ان ابن مقاتل نما اليه خبر الاتصالات التي كان يقوم بها ابن الاغلب فحاول بدوره القيام بعمل يكفل له الاستمرار في الولاية.

فعندما وصل عهد الرشيد لابن الاغلب أرسل ابراهيم الى ابن مقاتل يقول له: "أقم ماشئت حتى تتجهز ولكن ابن مقاتل أقام اياما ثم رحل الى طرابلس وهناك لقي رسولا قدم من بغداد (حماد السعودى) برسالتين الى ثغر افريقية، فزيف أو افترى ابن العكي رسالة ثالثة تتضمن عزل ابراهيم وأرسل بها مع الكتابين الى القيروان كما بعث برسالة أخرى الى أحد أعوانه وهو سهل بن حاجب يستخلفه فيها على القيروان لحين قدومه[٣]. فلما قرئت الرسالة مع الكتابين على الناس اجتمع الناس الى ابراهيم وطلبوا منه أن يظل في مكانه وأن يكتب الى أمير المؤمنين يبيّن له فعل ابن العكي، ورغم ان ابن الاغلب وافقهم على صحة اختلاق ابن العكي للرسالة وانه انما فعل ذلك واجترأ على ثغر افريقية اعتمادا على مكانته القوية لدى جعفر بن يحيى الا انه حشد رجاله يريد الخروج الى الزاب ولايته الاولى[٤].

وكتب صاحب البريد بالخبر كله الى الرشيد فغضب وكتب الى ابن العكي يعنفه على فعاله وختم خطابه بقوله: "فاذا نظرت في كتابي فأقدم غير محمود الفعال" فعاد ابن مقاتل الى المشرق "وكتب في نفس الوقت الى ابراهيم ابن الاغلب بتجديد ولايته فقدم الرسول بالكتاب الى القيروان وابراهيم بالزاب فسار اليه في الزاب فعاد ابراهيم الى القيروان في ١٢ جمادى الاخرة سنة ١٨٤ هـ[٥].

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٦، ص ١٥٥، أحداث سنة ١٨١ هـ.

(٢) أ.د سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٣٦٢.

(٣) الرقيق، تاريخ افريقية، ص ٢٢٠ — ٢٢١.

(٤) الرقيق، ص ٢٢١.

(٥) الرقيق، ص ٢٢١.

ولما ولى ابراهيم افريقية انقمع الشر بها وضبط أمرها وأحسن الى من بها من أهل الخير (١) .

بناء العباسية (القصر القديم) وجعلها حاضرة افريقية :

بدأ ابراهيم عهده بتشييد مدينة أو عاصمة جديدة ويذكر ابن عذارى انه شرع في تخطيطها في سنة ١٨٥ هـ وانها صارت بعد ذلك حاضرة لامراء بني الاغلب (٢) . ووقع اختياره على قطعة من الارض تبعد ثلاثة أميال من القيروان وكانت ملكا لجماعة من بني طالوت فاشتراها منهم (٣) . أما عن السبب الذى دفعه الى الابتعاد عن القيروان فهو كما نستبين من رواية الرقيق ، علمه أنه لا سلطان له على وجوه الجند ، وحوفه من قيامهم عليه لان أكثرهم يرى أنه أحق بالامر منه ، ولذلك فقد رأى ان يبتعد عنهم (٤) وابتنى بالمدينة قصرا ، كما ابتنى مسجدا كما تنص رواية الرقيق كان يتولى الصلاة فيه بنفسه (٥) وبعد ان تم البناء اطلق ابن الاغلب على مدينته الجديدة اسم العباسية كما يقول ابن الاثير (٦) هذا كما أنها عرفت أيضا باسم القصر القديم كما ينص على ذلك الرقيق ومن نقلوا عنه (٧) .

وكان ابراهيم يعمل في خفية على تحقيق هدفه من انشاء القصر القديم وهو التحرر من سيطرة العسكر ولكي يحقق هدفه هذا ، أخذ يراعي "أمور أجناده ويصلح طاعتهم ويتفقد أمورهم ، ويصبر على جفائهم" (٨) . ثم أخذ في شراء العبيد وأظهر أنه يريد أن يتخذ من كل صناعة صنعة تغنيه عن استعمال الرعية في كل شيء من أمورهم ، ثم اشترى عبيد لحمل سلاحه وأظهر للجند أنه أراد بذلك اكرامهم عن حمل سلاحه . ولما تم له ماأراد انتقل من دار الامارة وصار الى القصر القديم بعبيده وأهله وحشمه وأهل بيته ، وكان انتقاله له بالليل ، وأسكن معه في حاضرته الجديدة من

---

(١) الرقيق ، ص ٢٢١ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(٣) الرقيق ، تاريخ افريقية ، ص ٢٢٢ . ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٩٢ — ٩٣ .

(٤) الرقيق ، ص ٢١٢ .

(٥) الرقيق ، تاريخ افريقية ، ص ٢٢٢ .

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٥٦ ، احداث سنة ١٨١ .

(٧) الرقيق ، تاريخ افريقية ، ص ٢٢٢ . ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(٨) الرقيق ، تاريخ افريقية ، ص ٢٢٢ .

يثق به من الجند [١] .

اقرار ابن الاغلب للامور في افريقية :

حدث ماكان يخافه ابن الاغلب من عسكر افريقية ففي سنة ١٨٦ هـ تعرض ابن الاغلب لثورة عظيمة تزعمها بتونس حمد يس بن عبد الرحمن الكندى ، الذى خلع السواد ، وجمع جموعا كثيرة من العرب والبربر [٢] .

ولما كثرت جموعه أرسل اليه ابراهيم ابن الاغلب عسكرا يضم وجوه القواد بقيادة عمران بن مخالد لقتاله ، وتم اللقاء بين عسكر الوالي وبين قوات الثوار في موضع يعرف بسبخة تونس واقتتلوا قتالا شديدا ، وانتهى القتال بكارثة بالنسبة لاصحاب حمد يس "وقتلوا مقتلة عظيمة "وقتل حمد يس ودخل عمران تونس وتتبع أنصار حمديس وقتلهم حتى أفناهم [٣] .

ولقد سببت مدينة طرابلس بدورها كثيرا من المتاعب لابن الاغلب كما ينص على ذلك ابن الاثير فقد كثر شغب أهل طرابلس على ولاتهم وكان ابراهيم بن الاغلب أمير افريقية قد ولى عليهم عدة ولاة فكانوا يشكون من ولاتهم فيعزلهم ويولي عليهم وفي سنة ١٨٩ هـ ثار أهل طرابلس ضد واليهم سفيان بن المضاء (وهي ولايته الرابعة) فاتفق أهل البلد على اخراجه عنهم واعادته الى القيروان فزحفوا اليه فأخذ سلاحه وقاتلهم هو ومن معه فأخرجوه من داره والجأوه الى المسجد الجامع ، فقاتلهم فيه فقتلوا أصحابه ثم سمحوا له بالخروج بالامان ، بعد ولاية استمرت سبعة وعشرين يوما [٤] .

ويفهم من رواية ابن الاثير الذى ينفرد بذكر خبر انتفاض طرابلس — ان جند طرابلس وليس أهلها هم الذين قاموا بتلك الثورة اذ الجند هم الذين ولوا على البلد ابراهيم بن سفيان التميمي . ويقول ابن الاثير ان الخلاف وقع بعد ذلك بين الابناء بطرابلس وبين قوم من بني أبى كنانة وبنى يوسف حتى فسدت طرابلس . والظاهر أن المقصود بالابناء كما يقول الدكتور سعد زغلول هم الجند الاغلبي أو المماليك الذين كان يشتريهم ابن الاغلب [٥] . فعندما بلغت ابراهيم أخبار تلك الفتنة أرسل جمعا من

---

(١) الرقيق ، تاريخ افريقية ، ص ٢٢٢ .

(٢) الرقيق ، تاريخ افريقية ، ص ٢٢٤ .

(٣) الرقيق ، تاريخ افريقية ، ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ص ١٩٢ — ١٩٣ ، أحداث سنة ١٨٩ .

(٥) تاريخ المغرب العربي ، ص ٣٦٨ .

الجند وأمرهم ان يحضروا الابناء وبني ابي كنانة وبني يوسف ، فأحضروهم عنده بالقيروان في ذي الحجة سنة ١٨٩ هـ فلما قدموا عليه سألوه العفو عنهم في الذي فعلوه فعفا عنهم وعادوا الى بلدهم (١) .

أما أشد الثورات خطرا فهي تلك الثورة التي قام بها قائد ابن الاغلب وهو عمران ابن مخالد الذي قضى على فتنة حمديس — بالاشتراك مع قريش بن التونسي وذلك سنة ١٩٤ هـ (٢) ، واجتمع معهما خلق كثير ونجح في الاستيلاء على القيروان التي صارت هي وأكثر بلاد افريقية معه كما يقول ابن الاثير (٣) .

وخندق ابراهيم على العباسية وامتنع فيها ودامت الحرب بين عمران وابن الاغلب سنة كاملة وأخيرا وصلت ابن الاغلب الاموال التي أنفذها أو أرسلها اليه الرشيد ولما صارت اليه الاموال أمر مناديا ينادي ، من كان من جند أمير المؤمنين فليحضر لاخذ العطاء ، ففارق عمران اصحابه وانفضوا عنه ، فوثب عليهم اصحاب ابراهيم وتمكنوا من هزيمتهم ثم نادى ابراهيم بالامان والحضور لاخذ العطاء فحضروا اليه فقتلهم ودخل ابراهيم القيروان فخلع أبوابها وهدم سورها (٤) .

أما عمران فسار حتى وصل الى الزاب فأقام بها حتى مات ابراهيم سنة ١٩٦ هـ وولى ابنه عبد الله فأمن عمران وحضر عنده واسكنه معه في القصر القديم ولكنه قتله بعد ذلك (٥) .

ولما انهزم عمران سكن الشر بافريقية وأمن الناس فبقي كذلك الى ان توفي ابراهيم بعد امارة دامت اثنتا عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام (٦) .

وتذكر رواية ابن الاثير ان ابراهيم بن الاغلب بدأ يتطلع الى المغرب الاقصى لما بلغه ان ادريس بن ادريس العلوي قد كثر جمعه ونجح في استمالة القائم بأمر ادريس من المغاربة وهو بهلول بن عبد الواحد حتى فارق ادريس وأطاع ابراهيم وتفرق جمع ادريس ، فكتب الى ابراهيم يستعطفه ويسأله الكف عنه ويذكر له قرابته

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٩٣ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٣٥ ، احداث سنة ١٩٤ هـ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٥٦ ، أحداث سنة ١٨١ هـ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٥) ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ١٥٧ .

(٦) ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ١٥٧ .

من رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] .

وتوفي ابراهيم بن الاغلب في أواخر شوال سنة ١٩٦ هـ / أوائل يوليه ٨١٢م. وعمره ست وخمسون سنة بعد ولاية استمرت أكثر من اثنتا عشرة سنة ، بدأت بعهد الرشيد اليه بولاية افريقية سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠م ، واقرار الخليفة المأمون له في سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٩م .

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٥٦ .

ولايـة عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب (١٩٦ـ٢٠١هـ)

(٨١٢ — ٨١٧م)

بعد ان اقر الخليفة المأمون ابراهيم بن الاغلب في ولاية افريقية ، وطدت الأسرة الاغلبية أقدامها . ومنذ ذلك الوقت اصبحت افريقية ملكية وراثية في أبناء ابراهيم ابن الاغلب ، الذى ولي بعده ابنه عبد الله .

وكان ابو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب غائبا بطرابلس ، التي كان قد عهد اليه أبوه بامارتها بعد اضطراب أحوالها نتيجة لاضطراب الجند الاغلبي بها من جهة وتهديد الخوارج من بربر هوارة اتباع عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم من جهة أخرى . ويفهم من رواية ابن الاثير ان ابراهيم بن الاغلب كان قد اضطر الى اعادة ابنه عبد الله الى طرابلس مرة ثانية بعد ان كان قد عهد بامرتها الى سفيان بن المضاء الذى وضح عجزه عن مقاومة البربر ، فهزمهم عبد الله واستقر في المدينة وبنى سورها (١) وهذا يعني انه أثبت كفاءته ، وكانت وصية ابراهيم أن تكون الامارة له بعد وفاته . وبينما كان عبد الله في طرابلس قام أخوه زيادة الله بأخذ البيعة له من الجند وكتب اليه يعلمه بموت أبيه وبالامارة ، فعقد عبد الله الصلح مع أبناء عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم حيث اعترف لهم بأن "يكون البلد والبحر لعبد الله ، وماكان خارجا عن ذلك يكون لعبد الوهاب" وعاد عبد الله الى القيروان وتسلم مقاليد الأمور (٢) .

وأتته موافقة الخليفة المأمون على ولايته على افريقية في سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣م كما تقول رواية ابن عذارى (٣) .

أهم أعمال عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب :

اساءته الى أخيه واصلاحه المالي :

واستمرت ولاية أبى العباس لمدة خمس سنوات وشهرين ، ويورد له الكتّاب

---

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ط. تورنبرج ، ج ٦، ص ٢٦٩ — ٢٧٠، حوادث سنة ١٩٦ (ذكر الفتنة بافريقية مع أهل طرابلس) .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٧٠ ، ص ١٥٧ .

(٣) انظر، ابن عذارى، البيان المغرب، طبعة ليدن ، ١٩٤٨م، ج ١، ص ٦٥ .

عملين اولهما اساءته الى أخيه زيادة الله الذى يرجع اليه الفضل في أخذ البيعة له من كبار الجند عند وفاة والدهما ابراهيم والذى ساس شئون الدولة الى حين رجوعه من طرابلس اذ تقول الرواية ان عبد الله "حمل في امارته على اخيه زيادة الله حملا شديدا ، وكان ينتقصه ، ويأمر ندماءه باطلاق ألسنتهم بسبه ، وزيادة الله مع ذلك يظهر له التعظيم والتبجيل والصنع الجميل ، ولا يظهر له تغيرا ، ولا يظهر عليه منه أثر" (١) .

وثانيهما خاص باصلاح نظام الضرائب . وكانت الضريبة المعتادة هي العشر من الحب الذى تغله الارض ، فجعل عبد الله الضريبة ثمانية دنانير على كل زوج تحرث من البقر .

معارضة الاصلاح المالي من قبل الفقهاء:

اعتبر الفقهاء المالكية هذا الاصلاح المالي خروجا على السنّة ، مما أدى الى سخط الناس وتذمرهم من تلك الضريبة التي كانت تعتبر بدعة ، ومطالبتهم بالغائها والعودة الى نظام العشر المعروف .

ويفهم من الروايات انه كان للفقهاء والعباد دورهم في القيام بالاحتجاج على ذلك الاجراء المالي الجديد فتقول الرواية ان حفص بن حميد صالح افريقية ومعه قوم صالحون من الجزيرة (جزيرة شريك) قدموا الى القيروان لملاقاة الامير الاغلبي الذى كان مقيما في القصر القديم . فقابلوه ووعظوه في أمر الدين ومصالح المسلمين (٢) . وقال له حفص بن حميد: "اتق الله أيها الامير في شبابك ، وارحم جمالك ، واشفق على بدنك الجميل من النار بازالة الجور عن رعيتك وخذ فيهم بسنّة الله ورسوله ، فان الدنيا زائلة عنك كما زالت عمن كان قبلك" (٣) .

وتقول الرواية ولكن الامير المغتر بجماله استخف بجماعة الصالحين واستهان بهم ، فلم يستمع الى نصحهم . وعاد حفص بن حميد وصحبه نحو القيروان في أول ذى الحجة سنة ٢٠١هـ / ٩ يونيه ٨١٧م ساخطين على لقاء الامير فما أن وصلوا الى وادى القصارين حتى قال لهم حفص بن حميد: "قد يئسنا من المخلوق فلا نيأس من

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٩٥ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٩٥ — ٩٦ .

(٣) انظر: ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، تحقيق احمد مختار العبادى ، محمد ابراهيم الكتاني ، طبع الدار البيضاء ، ١٩٦٤ ، قسم ٣ ، ص ١٥ .

الخالق ! فاسألوا المولى واضرعوا اليه في زوال ظلمه عن المسلمين فان فتح في الدعاء ، فقد اذن في الاجابة " (١) .

فتوضأوا جميعهم واتجهوا الى مصلى رق حيث دعوا الله بعد الصلاة أن يكف عن المسلمين جور ابي العباس ، ويريحهم من أيامه . واستجيبت دعوة العباد الصالحين ، فأصيب الامير بقرحة خرجت له تحت اذنه ، قتلته في اليوم السادس وقيل انه عندما كشفت عنه ثيابه للغسيل ، ظن أنه عبد أسود بعد جماله " وان ذلك حدث نتيجة لسوء فعاله "(٢) .

وكانت وفاته في ٦ من ذى الحجة سنة ٢٠١ هـ / ٢٤ يونيه ٨١٧ م . بعد ولاية استمرت خمسة أعوام وشهرين (٣) .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٩٦ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ١٥ ــ ١٦ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٩٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٨٦ . ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ ، سنة ٢٠١ .

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٩٦ .

زيـــادة اللـــه بـــن ابراهيم بن الاغلـب

(٢٠١ـ ٢٢٣ هـ/ ٨١٧ ـ٨٣٧م)

بعد وفاة عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب ، بويع لاخيه زيادة الله يوم الجمعة ٢٢ من ذى الحجة سنة ٢٠١ هـ . وهو أول من اسمه زيادة الله ممن ولي من بنـــي الاغلب كما يقول ابن عذارى . وبعد توليته مقاليد الامور خشي أخاه الاغلب بـــن ابراهيم من انتقامه وكان شقيق أبي العباس عبد الله بن ابراهيم ، فخرج مستأذنـــا لاداء فريضة الحج سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٨م ، وبرفقته ابنا أخيه الراحل وهما : ابو فهـر محمد ، أبو الاغلب ابراهيم وكانا صغيرين . وبعد اداء الفريضة استوطن مع ابنـــي أخيه مصر ، ولكن زيادة الله كما يستشف من الروايات كتب اليه فعاد مع ولدى أخيـه الى القيروان ، حيث صار مقربا من زيادة الله كما يقول النويرى (١) .

وهناك ذكر في الحوليات التاريخية لعدد من الاضطرابات الداخلية ، مـــن جانب الجند ومن جانب العامة ، وتنص الروايات على أنه لم يكن في سلطان زيـــادة الله في بعض الاحيان سوى العاصمة القيروان وبعض الاقاليم القليلة ، ونستشف مـــن الروايات ان أسباب الاضطراب كانت ترجع الى السياسة العنيفة المتشددة التـــي انتهجها الامير اذ استبد بالناس واستخف بالجند ، وخشي على نفسه منهم فاعتصـــم بالقصر القديم وحصنه .

ثورة ابن الصقلبية ، وتمرد عمرو القيسي :

تذكر الروايات انه في سنة ٢٠٧ هـ ، نتيجة لسوء سيرته في الجند ، قامت ضده ثورة تزعمها احد قوادهم واسمه زياد بن سهل ، ويعرف بابن الصقلبية كما يقول ابـــن الاثير ، الذى خرج في موضع يعرف بفحص أبي صالح غير بعيد من مدينة باجـــة التي حصرها . لكن ثورة ابن الصقلبية انتهت سريعا على يدى قائد زيادة الله ، سالـــم بن سوادة ، الذى تمكن من فك حصار باجة ، وقتل كثيرا من أصحابه الذين خالفوا معـــه وغنم أموالهم (٢) .

---

(١) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١١١أ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٩٧ . ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ٣٢٦ ، سنة ٢٠١ ، وقارن ، ابن خلدون ، العبر ، طبعة بولاق ، ج ٤ ، ص ١٩٧ حيث يسميه ابـــن الصقلية وهي التسمية التي أخذ بها استاذنا الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في كتابه تاريخ المغرب العربي ، ع ٢ ، ص ٤٤ .

وفي حوليات سنة ٢٠٨ هـ يذكر لنا ابن عذارى ، ثورة الزعيم القيسي عمرو بن معاوية ، الذى كان عاملا لزيادة الله على منطقة القصرين ، فخرج عليه وتغلب على الناحية وكان للقيسي ولدان أحدهما يسمى حباب والاخر سجمان ، ويفهم من الرواية ان ابنه حباب نصحه وقال له : انك دخلت في أمر عظيم وعرضت نفسك للهلاك ، ولست من رجال هذا الامر ، ولا ينفعك عدد ولا عدة .. فما كان من والده الا أن ضربه مائتي سوط كما تقول الرواية "وتمادى على الخلاف" (١) .

ولم تستمر ثورة القصرين طويلا اذ قبل القيسي وولداه الاستسلام على الامان وذلك عندما أرسل اليهم زيادة الله قواته وجيء بهم الى زيادة الله الذى أمر بحبسهم في قصر وزيره غلبون حتى يرى فيهم رأيه ، وقد ذهب الثلاثة ضحية للاقاويل من جانب وجوه أهل بيت الامير ، فقد ترددت الاقوال بان الامير لم يقتنع من عمرو بن معاوية لانه قيسي وان العصبية القيسية قوية بمصر حتى خاف زيادة الله ان يثبوا على عمه بمصر ان قتل قائده الخارج عليه ، وأثارت تلك الشائعات زيادة الله الذى تخلص من السجناء بطريقة فظيعة (٢) .

ثورة الطنبذى :

أدت تلك القسوة التي اتبعها الامير في التنكيل بالثائر القيسي الى ثورة كبرى كادت تعصف بالدولة الاغلبية . وكان قائد تلك الثورة أحد كبار زعماء الجند الاغلبي واسمه منصور بن نصر الطنبذى ، الذى خرج على زيادة الله في السنة التالية أى سنة ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م . ومنصور هذا كما يقول ابن الابار ، في ترجمته له في "الحلة السيراء" من قبيلة هوازن ، من ولد دريد بن الصمة ، ويعرف بالطنبذى نسبة الى قصر كان له في قرية طنبذة من اقليم المحمدية بالقرب من تونس (٣) .

وكان منصور عاملا على مدينة طرابلس ، فلما وصلته أخبار قتل زيادة الله عمرو بن معاوية وولديه ثار لابناء عصبيته وامتعض ، ودعا بني تميم في طرابلس الى مؤازرته للأخذ بالثأر (٤) .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٣) انظر ابن الابار ، الحلة السيراء ، تحقيق د . حسين مؤنس ، طبع القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ ، ترجمة رقم ٢١٢ .

(٤) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ .

وكان كما تقول الرواية الى جانب اتصافه بالشجاعة فصيحا بليغا ، وعندئذ كتب صاحب الخبر (صاحب البريد) الى زيادة الله بالكلام الذى قاله الطنبذى، فما كان من الامير الا أن عزله ، وأمره بالقدوم اليه ثم صفح عنه ، وعاد الطنبذى الى منازله بتونس (١) .

ولكن الطنبذى لم يخلد الى الهدوء والسكينة بل أخذ يراسل الجند ويذكر لهم مايلقوه من زيادة الله ومافعل بعمرو بن معاوية وولديه (٢) . وعندما تأكد زيادة الله من نوايا الطنبذى حتى أرسل اليه سرية حوالي ثلاثمائة فارس بقيادة محمد بن حمزة (المعروف بالعرون) نحو تونس لمباغتة منصور ، والقبض عليه ، والعودة به مصفدا الى القيروان .

وعندما وصل محمد بن حمزة الى تونس ، لم يجد منصورا لأنه كان غائبا في قصره بطنبذة . فنزل ابن حمزة دار الصناعة في تونس ، وأرسل الى منصور قاضي تونس شجرة بن عيسى على رأس أربعين شيخا من شيوخ تونس يقبحون له الخلاف ، وينهونه عنه ويعرفونه "بما له في ذلك من الحظ في دينه ودنياه" (٣) .

ونستبين من الروايات أن الطنبذى أراد أن يحتال على قائد الامير فاظهر للقاضي شجرة ومن معه من الشيوخ أنه لم يخرج على طاعة الامير ، ووعدهم أن يسير معهم الى محمد بن حمزة في تونس ، ومنها الى الامير في القيروان ولكنه طلب منهم أن يقيموا معه تلك الليلة حتى يقوم بواجب الضيافة ازاءهم . فاقاموا معه ، وأرسل الطنبذى الى ابن حمزة والذين معه من العسكر ببقر وغنم وعلف وغير ذلك من أنواع مايؤكل ، وكتب اليه رسالة يقول فيها: انني قادم اليك مع القاضي والجماعة ، فمركن (أى اطمأن) محمد بن حمزة الى قول منصور ، وذبح البقر والغنم ، وأكل هو والناس الذين معه وشربوا الخمر . وما أن حل المساء حتى قبض الطنبذى على القاضي ومن معه ، وحبسهم في قصره ، وأخذ دوابهم فحمل عليها أصحابه ، وجمع خيله وشيعته، وزحف الى تونس ، وأمر أصحابه "الا يسمع لهم حس ولا حركة حتى يصيروا الى دار الصناعة" وما أن اقترب من دار الصناعة حتى أمر بالطبول ، فضربت ، وأمر أصحابه فكبروا ، وانقضوا على ابن حمزة ومن معه . ودارت رحى معركة رهيبة بين الجند من

---

(١) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

(٢) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

(٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٣٠، أحداث سنة ٢٠١ ، ابن عذارى ، البيان، ج ١، ص ٩٨ — ٩٩ .

أصحاب ابن حمزة ، ومن انضم اليهم من عامة الناس ، وبين أصحاب منصور الطنبذى . وانجلت المعركة بقتل معظم رجال ابن حمزة ، ولم يسلم منهم الا من سبح في البحر وذلك في ٢٥ من صفر (١) .

وقام الطنبذى بقتل والي تونس وولده . ويفهم من الروايات أنه قام بهذا العمل تحت ضغط أصحابه الذين قالوا له : " .. ان احببت أن نقوم بنصرك ، فاخضب يدك في دماء أصحاب السلطان وأهل بيته " (٢) .

ولما وصل الخبر الى زيادة الله حتى أرسل عسكرا كثيفا على مقدمته وزيره غلبون ابن عمه " واسمه الاغلب بن عبد الله بن الاغلب ، الى منصور الطنبذى ، وودعهم وهددهم بالقتل ان انهزموا .

استفحال ثورة منصور الطنبذى :

وخرج غلبون على رأس جيشه الكثيف هذا في العاشر من ربيع الاول من سنة ٢٠٩ هـ/ يوليه ٨٢٤ م (٣) .

ولما وصلوا الى سبخة ... ، خرج اليهم منصور في رجاله ، " فاقتتلوا مليا " وحاقت الهزيمة بغلبون ورجاله نتيجة حملة قوية قادها الطنبذى ، لم يستطع غلبون ورجاله الوقوف أمامها وذلك في ٢٠ ربيع الاول (٤) . وانفض رجال غلبون من حوله خوفا من أن ينفذ زيادة الله ما كان قد توعدهم به من القتل ، بعد أن وعدوه بالرجوع الى القيروان ، اذ أخذ لهم الامان من زيادة الله وعاد غلبون الى القيروان ، واعتذر لزيادة الله عن الهزيمة ، مبيّنا له أنهم اجتهدوا " ولكن قضاء الله لا يرد " (٥) . وانصرف بعض القواد الى أعمال افريقية كل قائد على بلد يضبطها ويعتصم فيها من عقوبة زيادة الله التي توعدهم بها كما انضم آخرون الى منصور الطنبذى وأعطوه " أزمة

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٩٩ . قارن ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٣٠ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ٣٨٣ ، ج ١ ، ص ٩٩ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٣١ . وقارن الحلة السيراء حيث يقول : " وقتل عامل زيادة الله عليها اسماعيل بن سفيان ابن سالم بن عقال وولده الاكبر واستبقى الاصغر " .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٩٩ . قارن ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٣١ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

أمورهم وولوه على أنفسهم "كما يقول نص ابن عذارى (١) .

وأمام نصائح غلبون لابن عمه زيادة الله ، رأى زيادة الله ان يحاول استعادة ثقة قواده الثوار ، فكتب اليهم صكوك الامان وبعث بها اليهم ولكنهم لم يثقوا به واستمروا في خلع الطاعة (٢) . وخرجت كثير من المدن عن سلطان زيادة الله ، وامتنع بها القواد الذين انضموا الى الطنبذى مثل: باجة ، والجزيرة ، وصطفورة ، والاربس وغيرها (٣) .

وقوى الطنبذى بمن قدم عليه من كل مكان وكثرت جموعه ، واجتمع الجند كلهم اليه "أطاعوه لسوء سيرة زيادة الله معهم "كما يقول ابن الاثير (٤) . فلما كثر جمعه سار الى القيروان حيث وصل اليها في ٥ جمادى الاولى سنة ٢٠٩ هـ/ ٢ سبتمبر ٨٢٤ م . وتقول الرواية ان القاضيين أبا محرز وأسد بن الفرات ركبا الى منصور ودار بينه وبينهما كلام لم ينته الى اتفاق (٥) ، وعسكر منصور قرب القيروان وخندق حول معسكره (٦) ، بينما زحف زيادة الله على رأس قواته من القصر القديم (العباسية) حيث اتخذ موضعا له بين القيروان والقصر . وخندق هو الاخر حول معسكره .واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين وأثناء ذلك انضم أهل القيروان الى جانب الطنبذى ضد أميرهم . وأصلح منصور سور القيروان حتى تصمد في المقاومة . ودامت الحرب بين منصور وبين عسكر زيادة الله على القيروان أربعين يوما (٧) .

" ولم يبق في سلطان زيادة الله من افريقية كلها كما تقول رواية ابن عذارى ، الا قابس والساحل ونفزاوة وأطرابلس ، فانهم تمسكوا بطاعته ولم ينقصوه شيئا من جبايته "، وملك منصور جميع عمل زيادة الله الى حد ان ضرب السكة باسمه (٨) .

ولم تغل تلك الهزائم المتكررة من عزيمة زيادة الله بل زادته صلابة فبينما كتب الجند من المتمردين الى زيادة الله : "ارحل عن افريقية ،ولك الامان في نفسك ومالك"،

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٣١ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٣١ .
(٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .
(٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
(٧) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
(٨) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠١ .

كان عو يستعد لمواصلة القتال .

وجمع زيادة الله جمعا عظيما من أصحابه ، منهم الفارس والراجل ، وزحف بهم نحو منصور ، فكانوا خلقا كثيرا . فلما رآهم منصور ارتاع من زيادة الله ولكنه تقدم للقاء العسكر الاغلبي . وانتهى القتال العنيف بانهزام منصور ومن معه الى قصره بتونس ، وقتل الكثير من أصحابه . وذلك في منتصف جمادى الاخيرة سنة ٢٠١ هـ / ١٢ أكتوبر ٨١٦ م (١) .

واكتفى زيادة الله بهدم سور القيروان ، الذى كان الطنبذى قد أصلحه حتى سواه بالارض (٢) . ولكنه عفا عن أهل القيروان وصفح عنهم .

وهكذا فشل الطنبذى في الاستيلاء على افريقية نتيجة لتلك الهزيمة الساحقة التي نزلت به أمام القيروان ، وظهر الانشقاق في صفوف أتباعه أمثال عبد السلام بن المفرج وعامر بن نافع . وحاول زيادة الله أن يستغل الفرصة ، فبدأ بالقضاء على أقوى أنصار منصور وهو عامر بن نافع ، فعبأ جيشا كبيرا جعل على مقدمته ابن عمه محمد بن عبد الله بن الاغلب ، وبرفقته بعض أفراد الاسرة الاغلبية ، وعدد من كبار القواد . وتم اللقاء قرب سبيبة في العشرين من المحرم سنة ٢١٠ هـ / ٤ مايه ٨٢٥ م . وانتهى اللقاء بهزيمة منكرة لجيش زيادة الله ، اذ قتل قائده محمد بن عبد الله بن الاغلب . وتمادت هزيمة الرجال حتى القيروان (٣) . وأثارت تلك الهزيمة الغم في نفس زيادة الله وتشجع منصور على العودة مرة ثانية من تونس الى القيروان ، أمام الحاح الجند الذين كانوا يرغبون في نقل عيالاتهم عن القيروان . وتقول الرواية ان زيادة الله أخذ في جمع الرجال ، وبذل في ذلك الكثير من الاموال ، وفي نفس الوقت كان الطنبذى يسير نحو القيروان حيث قام بضرب الحصار على زيادة الله في قصره بالعباسية نحو ستة عشر يوما ، دون قتال ، وفي هذه الاثناء استرجع الجند من الثوار نساءهم وأولادهم من القيروان ثم ان الطنبذى عاد بعسكره الى تونس (٤) .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٠٠ . ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٠٠ . ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ٣٣٢ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠١ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠١ . ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ٣٣٢ .

حركة عامر بن نافع في الجنوب التونسي :

وأثناء ذلك الحصار تأزم موقف زيادة الله ، وخاصة بعد أن عاد قواد الجند من الثائرين وألحوا عليه في الخروج من افريقية بالامان على نفسه وماله ، وبدأ زيادة الله في مشاورة أقاربه وخاصته في الامور ، فقال له سفيان بن سواده مكني من عسكرك لاختار منهم مائتي فارس وأسير بهم الى نفزاوة . وكان ابن سواده يهدف ألا يحارب بفرسانه الذين اختارهم فقط ، بل ان يكونوا نواة لجيش يستنفره من البربر والعرب للوقوف أمام عامر بن نافع الذى كان ينوى قصد نفزاوة . ووصل ابن سواده على رأس فرسانه الى نفزاوة ، ودعا أهل الاقليم من البربر اليه فأجابوه .

ونجح سفيان بن سواده في فتح الاقليم حتى وصل الى حدود قسطيلية حيث كان عامر بن نافع قد وصل كما تقول رواية ابن الاثير (١) . وفي قسطيلية حشد عامر بن نافع السودان ، حتى جمع منهم ألف أسود ومعهم الفؤوس والمساحي ، وضمهم الى رجاله . واتجه بهم عامر نحو نفزاوة حيث اتخذ من مدينة نقيوس منزلا له كما تقول رواية ابن عذارى (٢) . وخرج سفيان بن سواده بقواته الى لقاء عامر بن نافع ، وانتهى القتال العنيف بهزيمة الجند المتوثبين أصحاب عامر ومقتل الكثير منهم . وانسحب عامر الى قسطيلية حيث قام بجباية أموالها دون عوادة لمدة ثلاثة أيام ، وخرج منها بأحمال المال ، بعد أن ترك بها من يضبطها من رجاله (٣) .

وما أن خرج عامر بن نافع من قسطيلية حتى استصرخ أهلها ابن سواده الذى سار اليهم برجاله ، فملكه ، وأقر الامن فيه (٤) . وعاد عامر بن نافع الى اقليم تونس ، وقام الصراع بينه وبين منصور الطنبذى .

الصراع بين منصور الطنبذى وعامر بن نافع في تونس :

وكما يفهم من الروايات كان ابن نافع يعتبر نفسه ندا لمنصور ، وكانت المحاسدة تظهر بينهما ، وهما في مجالس الشراب ، وأثر توعد منصور لعامر ، رأى الاخير أن يبدأ بالتخلص من منصور ، ونجح في استمالة الجند الى جانبه ، وخرج من تونس ، لمفاجأة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٣٣ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠١ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٣٣ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠١ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٣٣ .

منصور وهو بالمحمدية ، وحاصره واشتد حصاره له حتى خلص من كان في الحصن من الماء ، وجرت المفاوضات بين الطرفين ، وانتهت بأن عرض منصور أن يسمح له بالخروج على الامان على أن يتوجه في سفينة الى المشرق . وأجابه عامر الى ذلك (١)

ولكن الطنبذى خرق اتفاقه مع عامر ولجأ الى مدينة الاربس ، حيث له كثير من الاعوان ، فخرج من طنبذة مستخفيا أثناء الليل الى الاربس ، وامتنع بها ، ولما عرف عامر في سبل اليوم التالي بنبأ تلك الخدعة سار في اثر منصور الى الاربس وضرب عليه الحصار . وضج أهل المدينة وطلبوا من منصور الخروج من مدينتهم فطلب منهم أن يمهلوه بعض الوقت حتى ينظر في أمر خلاصه (٢) .

وأرسل منصور الى أحد كبار قواد ابن نافع ، وهو عبد السلام بن المغرى ، يطلب الاجتماع به ، فقدم اليه . وعندما حضر عبد السلام حدثه الطنبذى من أعلى السور ، وبيّن له أفعاله الحسنة تجاه الجند ، وطلب منه أن يسعى في أمانه وخلاصه على أن يخرج عنهم الى المشرق . ونجح عبد السلام في الحصول على الامان لمنصور من عامر بن نافع على ان يخرج برفقة بعض فرسان عامر الى تونس حيث يأخذ أهله وحاشيته ويسير بهم الى المشرق (٣) .

ويفهم من الروايات ان عامر عندما أعطى الطنبذى الامان كان يضمر الغدر به ، وذلك ان عامرا أمر صاحب خيله الذى رافق منصورا في السفينة من تونس بأن يسير به سرا الى جزيرة جربه ، ويسجنه بها ، ففعل ذلك وسجن معه أخاه حمدون (٤) .

فلما علم عبد السلام بذلك استعظم الامر ، وكتب عامر الى أخيه وعوواليه على جربه يأمره بقتل منصور وأخيه حمدون ، "ولا يراجع فيهما" ، فأحضرهما عنده ، وقرأ عليهما كتاب عامر ، وعندما طلب منصور دواة وقرطاسا ليكتب وصيته ، ولكنه لم يستطع الكتابة . وتم قتلهما وأرسل برأسيهما الى عامر (٥) .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٠٥ ، احداث سنة ٢١١ (ذكر الفتنة بين عامر ومنصور وقتل منصور بافريقية) .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٠٥ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٠٥ .

ظهور منافسون جدد لعامر بن نافع :

وهكذا كانت نهاية منصور الطنبذى بيدى أكبر أعوانه عامر بن نافع ، الذى اعتقد ان الامور استقرت له في تونس ، بعد التخلص من الطنبذى ، الا انه ظهر له منافس عو قائده ، عبد السلام بن المفرج الذى استقل باقليم باجة .

ويفهم من الروايات ان زيادة الله ماأن علم بمقتل منصور حتى كتب الى عامر بن نافع يدعوه الى الدخول في الطاعة ويبذل له الامان ومن معه "وبانه معيده الى ماكان عليه مع أبيه ابراهيم بن الاغلب وأخيه عبد الله بن ابراهيم" . ورد عليه عامر برسالة بليغة ، يعدد له فيها مساوئ أفعاله كما يقول ابن الابار (١) .

ولم يمر مقتل الطنبذى وأخيه حمدون دون ردود فعل بين الجند الاغلبي المتمرد ، وخاصة المشرقية منهم ، الذين حاربوا عامر ، وانضموا الى جانب منافسه عبد السلام ابن المفرج الذى رفع راية الاخذ بالثأر للمقتول المظلوم ، وانتهى الامر بخروج ابن المفرج من باجة ، نحو تونس لقتال عامر ، وانتهى اللقاء بانتصار عبد السلام وهزيمة عامر الى جربة ، واعتل عامر اثر ذلك ، ولما أيقن بالموت دعا بنيه وأوصاهم باللحاق بزيادة الله فعملوا برأيه وقدموا الى زيادة الله مستأمنين — بعد وفاته في سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م (٢) ، كما قدم الجند اليه يطلبون الامان ، فأمنهم وأحسن اليهم كما يقول النويرى (٣) .

انتهاء الفتنة :

وعندما بلغ زيادة الله نبأ وفاة عامر بن نافع قال : "اليوم وضعت الحرب أوزارها" كما يقول ابن عذارى ، ولكن ابن الابار في "الحلة السيراء" ، يعلق على مقالة زيادة الله عن نهاية الحرب بنهاية عامر ، بقوله : "فكان كذلك : لم يزل أمر الجند مدبرا حتى انقضت الحرب ، وطفئت الثائرة ، وصفت له افريقية" (٤) .

---

(١) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ ، ترجمة رقم ٢١٣ .

(٢) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ ، ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

(٣) النويرى ، المخلوط ، ج ٢٢ ، ص ١١١ أ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج أ ، ص ١٠٣ ، ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ .

هذا ولم يتطلب القضاء على عبد السلام بن المفرج وقتا طويلا من العسكر الاغلبي الذى ضيق عليه الحصار في باجة حتى انتهى الامر بموته عطشا كما يقول النويرى (١) .

وهناك ذكر في حوليات سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٢ — ٨٣٣ م في ابن الاثير الى مقتل عبد السلام بن المفرج في هذه السنة بعد اشتراكه في ثورة جزيرة شريك التي قام بها الفضل بن ابي العنبر (٢) .

وهكذا انتهت بوفاة عامر الفتنة التي استمرت أكثر من ثلاثة عشر عاما ، وتوطدت الامور لزيادة الله الذى بدأ في غزو صقلية .

اضطرابات بين الجند في تونس:

وفي سنة ٢١٨ هـ هناك ذكر في حوليات ابن الاثير وابن عذارى ، الى قيام الاضطرابات من جديد في تونس ، وذلك عندما ثار قائد من قواد الجند يدعى فضل بن أبى العنبر بجزيرة شريك ، وتمكن من هزيمة العسكر الاغلبي الذى وجههم اليه زيادة الله وغلب على المنطقة ، وأعلن الاستقلال بها (٣) . وطلب الفضل المعونة من عبد السلام بن المفرج ، الذى خرج من باجة الى جزيرة شريك . ولكن القائدين لم يتمكنا من غلبة العسكر الاغلبي ، وانتهى الامر بمقتل ابن المفرج ، وانهزام الفضل الى تونس وامتناعه بها . وسيّر زيادة الله جيشا كثيفا الى تونس بقيادة ابن عمه محمد بن عبد الله بن الاغلب ، ففر الفضل من تونس ، واقتحم عسكر زيادة الله المدينة وقتلوا الكثير من اهلها وهرب آخرون (٤) .

العفو عن متمردى تونس:

وفي سنة (٢١٩ هـ/ ٨٣٤ م) ، أعلن زيادة الله العفو عن كل من شارك في تلك الثورة ، وركنت البلاد الى الدعة والسكينة (٥) .

---

(١) النويرى ، المخطوط ، ص ١١١ أ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٤٠ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٤٠ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٥ .
(٤) ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ٤٤٠ ، ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٠٥ .
(٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

أهم أعمال زيادة الله العمرانية :

رباط سوسة :

تذكر الروايات أنه في سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م بدأ بناء رباط سوسة الذى يعد من أكبر حصون المرابطين من العباد المجاهدين ، والذى أصبح بعد سنوات قليلة قاعدة لاكبر عملية غزو بحرية قام بها العرب فيما وراء البحار ، وهي فتح صقلية وايطاليا . ويصفه البكرى بقوله وهو : "محرس عظيم كالمدينة ، مسور بسور متقن يعرف بمحرس الرباط وهو مأوى للاخيار والصالحين ، داخله حصن ثاني يسمى القصبة وهو بجوفي المدينة متصل بدار الصناعة بسفح الجبل .." (١) .

قنطرة باب أبي الربيع :

والى جانب بناء زيادة الله لرباط سوسة بنى قنطرة باب أبي الربيع في القيروان وهي ساقية كبيرة كانت تحمل الماء من الجبل القريب عبر الوادى .

مسجد القيروان الجامع :

تذكر الروايات أنه في شهر جمادى الاخر من سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦ م ، قام زيادة الله فأمر بهدم بناء المسجد العتيق — ماعدا المحراب — وأعاد زيادة الله البناء بالصخر والآجر والرخام ، تاركا محراب عقبة القديم ، بعد أن كساه كله بالرخام المخرم المنقوش بالكتابة وبغيرها من الزخرف ، من أسفله الى أعلاه (٢) .

وقد انفق زيادة الله في بنائه ست وثمانين ألف دينار (٣) .

وتوفي زيادة الله في ١٤ رجب سنة ٢٢٣ هـ/ ١١ يونيه ٨٣٨ م ، وهو يبلغ من العمر واحد وخمسون سنة ، بعد امارة حافلة بجلائل الاعمال . استمرت أكثر من ٢١ سنة (٤) ، وخلفه في ملك افريقية أخوه الاغلب أبو عقال .

---

(١) البكرى ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشر رسلان ، الجزائر ، ١٨٥٧ ، النسخة المصورة بالاوفست ، طبع المثنى ، بغداد ، ص ٣٥ .

(٢) الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ١٦٣ ، وقارن البكرى ، المغرب ، ص ٢٣ .

(٣) المغرب ، ص ٢٤ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٠ .

ابو عقال الاغلبي بن ابراهيم بن الاغلب

(٢٢٣-٢٢٦هـ/ ٨٣٨-٨٤١م)

البدء على عهد الاغلب :

آلت مقاليد الامور في افريقية بعد موت زيادة الله الاول الى أخيه الاغلب ، وكانت أيام حكم الاغلب قصيرة ، فقد ولي سنتين وتسعة أشهر وأياما شهدت البلاد خلالها فترة من الامن والسكينة والاستقرار ، كما ينص على ذلك الكتاب ، باستثناء تلك الحملة التي يورد ذكرها ابن عذارى ، في سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م ، والتي أرسلها بقيادة عيسى ابن ربعان الازدي ، الى قبائل لواتة وزواغة ومكناسة ، فيما بين مدينتي قفصة وقسطيلية ، وقد انتهت تلك الحملة بقتل تلك القبائل ، اذ تنص الرواية على أن عيسى " قتلهم عن آخرهم " (١) .

ازالة المظالم :

تمتعت البلاد بالامن والاستقرار في خلال فترة حكمه القصيرة ، فابن عذارى يقول انه "غير احداثا كثيرة كانت قبله" (٢) . وابن الاثير ينص على انه "أزال مظالم كثيرة" (٣) ويمكن ان نفسر ذلك بأنه أعاد ضريبة العشر ، بدلا من الضريبة الثابتة التي قررها الامير عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب .

استمالة الجند والعمال :

تقول الروايات انه أحسن الى الجند بأن أفاض لهم في العطاء .

أما عن عماله وولاته على الاقاليم فقد أجرى عليهم الكثير من الرواتب (أي زاد في مرتباتهم) ، وبذلك منع أيديهم من التطاول على أموال الناس (٤) .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

(٢) انظر البيان ، ج ١ ، ص ١٠٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٦٣ ، احداث سنة ٢٢٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٦٣ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٧ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٠ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٦٣ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٧ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٠ .

منع النبيذ :

كما يذكر الكتّاب أن الاغلب قام بعمل كان فيه ترضية لمشايخ القيروان وعلمائها وعبادها ، وكان له أطيب الاثر في نفوس الناس ، وذلك أنه منع عمل النبيذ والخمر في القيروان (١) . بل وعاقب أيضا على بيعه وشربه (٢) .

وتوفي الاغلب بعد — امارة عادلة — في يوم الخميس ٢٢ ربيع الاخر سنة ٢٢٦هـ فبراير ٨٤١م ، وخلفه ابنه أبو العباس محمد (٣) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٦٣ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٩ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٧ ، ابن الخطيب ، قسم ٣ ، ص ٢٠ .

أبو العباس محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب

(٢٢٦ — ٢٤٢هـ/ ٨٤١ — ٨٥٦م)

مميزات عصره :

ولي بعد الاغلب في امارة افريقية ابنه أبو العباس محمد الذي حكم مدة زادت على خمس عشرة سنة ، كانت أهم أحداثها الداخلية مشاركة أخيه احمد له في تسيير أمور الدولة ثم قيامه بانقلاب ضده استمر أكثر من سنة ، تمكن محمد بعدها من استرجاع سلطانه .

أما عن احوال البلاد فتميزت بالهدوء والامن ، اللهم الا بعض القلاقل التي قام بها قواد الجند في المناطق التي عرفت بالثورة دائما وهي : الزاب ، وتونس . ومن الناحية الدينية ، كان عهد أبي العباس محمد بن الاغلب عهد عظماء العلماء أمثال : أبي محمد عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (توفي سنة ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م) — والامام سحنون بن سعيد (الذي ولي القضاء سنة ٢٣٣هـ/ ٨٤٧م وتوفي سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) . أما عن السياسة الخارجية فقد استمرت الفتوح في صقلية .

صفات محمد بن الاغلب :

تصفه رواية ابن عذارى بأنه كان " قليل العلم " ، ضعيف في العربية[1] ، ويعلق على ذلك ابن الخطيب بقوله : " لكن الامور لا ترجع الى شكل حسن ، ولا تتوقف على فصاحة ولا لسن ، انما هو رزق مكتوب ، وقدر معتوب ، وظفر ورسوب ، وعمل محسوب ، ولا حول ولا قوة الا بالله "[2] .

وتمتعت البلاد في السنوات الاولى من حكمه بالهدوء والاستقرار ، اذ أشرك أخاه احمد بن الاغلب في الحكم ، وعهد الامير محمد بالوزارة الى الاخوين : محمد بن علي ابن حميد ، واحمد بن علي بن حميد . ويفهم من الروايات ان ابنا حميد غلبا على أمره واستبدا بالامور دونه ، مستغلين فرصة انشغاله " بلهوه ولذته " ، مما أثار حقد أخيه أحمد[3] .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٠ .

(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢١ .

ثورة أحمد بن الاغلب على أخيه الامير محمد :

يفهم من الروايات ان احمد بن الاغلب اتفق مع عدد من أنصاره على مباغتة قصر الامير محمد في مدينة القصر القديم ، وقت الظهيرة أحد أيام الصيف في سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٤ م ، عندما يكون باب القصر خاليا من الحرس ، ونجح المتآمرون من صحابة احمد في اقتحام أبواب القصر ، وعقب أن أغلقوها خلفهم ، عجموا على الوزير ابن حميد فقتلوه بأمر احمد ، ودار القتال بين رجال محمد بن الاغلب وبين رجال أحمد بن الاغلب ولما بلغ الخبر محمد الامير اعتصم في "علية من القصر مرتفعة" ولما صعب الامر على رجال أحمد ، أعلنوا أنهم لم يخلعوا طاعة الامير محمد ، وأنهم قاموا بعملهم هذا من أجل تخليصه من استبداد بني حميد الذين استأثروا دونه السلطان والمال (١) .

وازاء ذلك الموقف اضطر الامير محمد الى النزول الى مجلس العامة ، وأذن لاخيه احمد ورجاله بالدخول عليه ، فدخلوا بسلاحهم وتعاتب الاخوان ، واصطلحا وتعاهدا " على ألا يغدر أحد منهما بصاحبه " (٢) .

استبداد أحمد بالامور :

انتهى الامر بتغلب أحمد على أمر أخيه ، "وتصرف في الملك بما شاء ولم يبق لاخيه رسم " (٣) .

محمد يسترجع سلطانه :

لم يهنأ احمد بن الاغلب طويلا باستبداده بحكم افريقية ، ففي السنة التالية (٢٣٢هـ) اختلفت الامور عليه ، اذ كان محمد يكاتب سرا قواده وأهل ثقته الى أن تمكن من اعداد الرجال للقيام ضد أخيه . ووصلت الى أحمد أخبار تدبير محمد للاطاحة به ، ولكنه كان واثقا من نفسه ، بل ومطمئنا الى فشل أخيه .

واختار محمد وقت الغروب لتنفيذ تدبيره ، فما ان حلت صلاة المغرب حتى أرسل خادما من قبله الى حرس أخيه الموجودين ببابه يدعوهم الى مأدبة يقيمها لهم الامير . وعندما قدموا قدم لهم الطعام والشراب ، فلما عمل فيهم الشراب احتال على

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢١ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٨ ، ابن الخطيب ، قسم ٣ ، ص ٢١ .

(٣) ابن الخطيب ، ص ٢١ .

أخذ سيوفهم بحجة أنه يصقلها لهم . ومع آذان المغرب وهو وقت اغلاق أبواب القصر ، أتاهم رجاله فقتلوهم عن آخرهم . ثم أمر محمد بالطبول فضربت — وهو العلامة — فأقبل أصحابه من جهة "قصر الماء" ومن كل ناحية ، ودارت بين الفريقين حرب عظيمة انتهت بانهزام أصحاب أحمد ، ولجأ أحمد الى داره فاعتصم بها ، ثم طلب الامان من أخيه فأمنه . ثم جيء به اليه فعاتبه على مابدر منه من قتل وزيره ، ثم نفاه الى مصر بأهله وولده فمات بها (١) .

اضطراب بلاد الزاب :

انتهت الفتنة بين الاخوين ، واستتبت الامور للامير محمد بن الاغلب من جديد ، ولكن نتج عن ذلك الاضطراب ، فلاقل في بعض الاقاليم ، ففي اقليم الزاب ، انتهز سالم بن غلبون ، الذى كان عاملا على الاقليم من قبل الامير محمد ، فرصة النزاع بين الاخوين وخرج على الطاعة . وبعد استقرار الامور لمحمد ظل سالم رافعا راية العصيان ، مما جعل الامير محمد يعزله عن ولايته في سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٥م . ولكن سالم خرج في السنة التالية (٢٣٣هـ / ٨٤٦م) يريد دخول القيروان ، ولكنه عدل أثناء الطريق وسار الى مدينة الاربس "مظهرا الخلاف" ، ولكن أهلها منعوه من دخولها ، فسار الى باجة ، وتمكن من دخولها وسيطر عليها وحينئذ سيّر اليه الامير محمد جيشا كثيفا بقيادة خفاجة بن سفيان الذى حاصره ، وشدد عليه الخناق ، حتى اضطره الى الهرب ليلا ، واتبعه خفاجة في صباح اليوم التالي ولحقه ، وقتله وحمل رأسه الى محمد ، وأمر محمد بضرب عنق ابنه زعموا كذلك وكان محبوسا عنده في القصر (٢) .

ثورة عمرو بن سليم (القوبع) :

يذكر ابن عذارى في حوليات سنة ٢٣٤ هـ/ ٨٤٨م ثورة عمرو بن سليم التجيبي المعروف بالقوبع في تونس ، ولم يتمكن خفاجة بن سفيان بن سواده من القضاء عليه (٣) . وفي سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م أرسل الامير محمد بن الاغلب قائده محمد بن موسى المعروف بعريان بجيشه الى تونس لقتال "القوبع" وانتهى القتال بمقتل ابن موسى بعد أن

---

(١) النويري ، المخطوط ، ص ١١٤ ب ، ١١٥ أ ؛ ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٩ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢١ — ٢٢ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٠٦ — ١١٠ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٠ .

انكسرت رجله ، وقتل كثير من أصحابه ، وعاد بقية الجيش الى ابن الاغلب مذلولين (مهزومين) الى القيروان .

وهكذا قوى سلطان القويع ، ولكنه في سنة (٢٣٦ هـ/ ٨٥٠ م) خرج اليه في جيش كثيف خفاجة بن سفيان وقاتله قتالا شديدا ، وقتل أصحابه مقتلة عظيمة ، وانتهى اللقاء بانهزام القويع ، الذى قبض عليه ، وضربت عنقه ، وحز رأسه وحمل الى الامير محمد ، الذى كافأ قاتله وأحسن اليه .

ولم تستسلم مدينة تونس بسهولة بل تطلب الامر من خفاجة دخولها بالسيف (أى عنوة) في يوم السبت ١٠ ربيع الاول ، وسبى فيها ثم عاد بالجيش الى القيروان فكساه الامير ابن الاغلب (١) .

أهم أعمال الامير محمد العمرانية :

أهم الاعمال العمرانية التي تعزى الى الامير محمد هي : بناؤه للقصر الذى كان بسوسة في سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م كما ينص على ذلك النويرى (٢) .

ويمكن ان نستشف من رواية ابن الاثير التي تقول ان الامير محمد قام ببناء مدينة قرب تاهرت سماها العباسية ، ان العلاقة بين الاغالبة والرستميين الخوارج كانت قد توترت الى حد كبير . لان العباسية هذه التي أسست قرب تاهرت كانت بمثابة قاعدة عسكرية يمدد منها الدولة الرستمية ، ولذلك فقد دبر الرستميون تخريب المدينة فالرواية تقول " فأحرقها أفلح بن عبد الوهاب الاباضي "(٣) . ثم تضيف الرواية أن أفلح كتب يعلم الامير الاموى صاحب الاندلس (عبد الرحمن بن هشام) بذلك ، وأنه بعث اليه مائة ألف درهم جزاء له على فعله (٤) .

ازدهار المذهب المالكي على أيام محمد بن الاغلب :

الى جانب عناية الامير برباطات العباد ، كان معاصرا لعدد من أئمة المالكية من أهل افريقية مثل : عبد الله بن أبي حسان اليحصبي .

ومن مفاخر الامير محمد كما يقول ابن الخطيب انه عمد بقضاء القيروان الى اسد

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(٢) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١١١أ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٩٦ ، أحداث سنة ٢٢٦ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٩٦ .

المالكية في أفريقية والمغرب سحنون بن سعيد التنوخي (١) .

وتوفي الامير محمد وعمره ٦٣ سنة في ٢ محرم سنة ٢٤٢ هـ / ١١ مايه ٨٥٦ م ، بعد امارة استمرت خمس عشرة سنة (٢) وخلفه من بعده ابن أخيه أحمد بن محمد بن الاغلب .

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٢

(٢) انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٢ ، ابن الخطيب ، ص ٢٢ — ٢٣ .

أحمد بن محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب

(٢٤٢–٢٤٩هـ/ ٨٥٦–٨٦٣م)

خلف أحمد عمه في امارة افريقية وهو ابن عشرين سنة ، ولم تطل مدة حكمه الا اقل من ثماني سنوات ، اتصفت بالهدوء والسكينة ، لم يكدرها الا اضطراب منطقة طرابلس لفترة .

اما عن الجهاد في صقلية ؛ ففي عهده سقطت قصريانة ، وهي من أهم مدن الجزيرة . وكان الامير حسن السيرة ، شهير الفضل ، رفيقا بالرعية ، كما تنص على ذلك الروايات (١) .

اضطراب طرابلس :

كان على ولاية طرابلس عبد الله بن محمد بن الاغلب ، والظاهر أن مثيري القلاقل في الاقليم كانوا من قبائل البربر الاباضية في تلك النواحي ، من هوارة ولواتة . ويفهم من رواية ابن الاثير ، انهم امتنعوا على الوالي ، ولم يؤدوا ماكان عليهم من العشور والصدقات . وأن الوالي عبد الله (أخا الامير) قام بقتلهم بمن معه من الجند ، واستمد الامير أحمد الذى سيّر اليه الكثير من العساكر مع أخيه زيادة الله .

ودارت رحى حرب عنيفة بين قوات القيروان وبين الخوارج من البربر ، انتهت بقتل الكثيرين منهم . كما أحرق ماكان في معسكرهم من الامتعة والعتاد . وبذلك خضع ثوار طرابلس من القبائل البربرية وأعطوا الرهائن لابن الاغلب ، وأدوا ماكان عليهم من الاموال (٢) .

أهم أعمال الامير التي تتصف بالورع :

يفهم من الروايات ان الامير الشاب صرف اهتمامه الى أعمال البر والخير . ومن ذلك عهده بقضاء القيروان الى أبي الربيع سليمان بن عمران بن أبي هاشم الملقب بخروفة . كما تذكر الرواية أنه كان يركب في ليالي شعبان ورمضان وبين يديه الشمع ،

---

(١) انظر ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٢ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٣ .

(٢) انظر ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٩١ ، احداث سنة ٢٤٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٢٠١ .

فيخرج من القصر القديم ويمشي حتى يدخل القيروان من باب أبي الربيع ومعه ثواب تحمل الدراهم ، وكان يلفل الضعفاء والمساكين حتى يصل الى المسجد الجامع بالقيروان " فيخرج الناس اليه ، يدعون له " (١) .

أعمال الامير أحمد العمرانية :

بناء مواجل الماء — توسيع جامع القيروان — بناء جامع سوسة :

وجه الامير الشاب نشاطه الى اعمال العمران ذات المنافع العامة للناس مثل بناء صهاريج الماء التي عرفت في افريقية باسم "المواجل" ، وتجديد المساجد ، منذ سنة ٢٤٥ هـ كما تنص رواية ابن عذارى (٢) .

فقد زاد أحمد في مسجد القيروان ، والمسجد الجامع بتونس (٣) ، كذلك حظيت سوسة بعناية الامير فقد بنى سورها في سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م (٤) .

وفي سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م بدأ في حفر الماجل الكبير على باب تونس ، بمدينة القيروان كما تنص رواية ابن عذارى ، واستمر العمل فيه الى أن كمل في سنة ٢٤٨ هـ/ ٨٦٢ م كما أمر باصلاح قنطرة باب أبي الربيع التي كسرت نتيجة للسيل العظيم الذى تعرضت له القيروان في شتاء سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م (٥) .

وكانت آخر أعمال أحمد بن محمد بن الاغلب بن ابراهيم ، كما تنص رواية ابن الخطيب هو حفر وبناء الماجل الكبير بالحاضرة ، وهي القصر القديم ، وذلك أنه اعتل علته التي مات فيها ، فكان يسأل : ان كان الماء قد دخل الماجل . وعندما دخله الماء وعرف ذلك سر به وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوءة منه فشربها وقال: "الحمد لله الذى لم أمت حتى تم أمره" ثم مات على اثر ذلك (٦) .

وتوفي أحمد في ١٣ من ذى القعدة سنة ٢٤٦ هـ/ ٢٨ ديسمبر سنة ٨٦٣ م ، وله من العمر ٢٨ سنة بعد امارة استمرت سبع سنين وعشرة أشهر وخمسة عشر يوما (٧) . وخلفه في الامارة أخوه زيادة الله الثاني .

---

(١) انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٢ .
(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٣ .
(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٣ .
(٤) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٣ .
(٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٣ .
(٦) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٣ — ٢٤ .
(٧) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٣ ، ابن الخطيب ، ص ٢٤ .

زيادة الله بن محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب

(٢٤٩ـ٢٥٠هـ/ ٨٦٣ـ٨٦٤م)

ولى في اليوم الذى توفي فيه أخوه أحمد ولم تطل مدة امارته اذ ولى سنة واحدة واسبوع، ويقول عنه الكتّاب انه كان عاقلا حليما، حسن السيرة، جميل الافعال، ذا رأى وجود وشجاعة (١) .

أما عن وفاته فكانت يوم السبت ١٩ من ذى القعدة سنة ٢٥٠هـ/ ٢٣ ديسمبر ٨٦٤م . وقد ولى بعده ابن أخيه ابوعبد الله محمد بن الامير الاسبق أبي ابراهيم أحمد (٢) .

محمد بن احمد بن محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب، ابو الغرانيق

(٢٥٠ـ٢٦١هـ/ ٨٦٤ـ ٨٧٥م):

يصف الكتّاب الامير الشاب بأنه كان غاية في الجود والسخاء مسرفا في العطاء، مع حسن سيرة في الرعية (٣) الى جانب ولعه بالصيد والشراب والطرب . وبسبب هوايته للصيد لقب بـ (ابو الغرانيق) .

هذا، ويذكر ابن خلدون أن أبا الغرانيق بنى حصونا ومحارس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشر يوما من برقة الى جهة المغرب (٤) .

الانتصار في صقلية، والقلاقل في الزاب:

وعلى أيامه كللت الحروب في صقلية بالظفر بقيادة خفاجة (ابن سفيان بن سواده) وهناك اشارات الى اضطراب بلاد الزاب، وكانت الزاب تدخل ضمن نفوذ قبائل البربر التي تدين بالولاء لابانية الرستميين في تاهرت، وأرسل محمد (ابو الغرانيق) الى بلاد الزاب جيشا عظيما جعل قيادته الى قائده محمد بن اسماعيل الذى سار في المنطقة، وكانت قبائل البربر تتبدد أمامه حتى وصل الى مدينة تهودة، ثم الى مدينة

---

(١) ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ١١٣ـ١١٤، ابن الخطيب، ص ٢٤ـ ٢٥ .

(٢) ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ١١٤، ابن الخطيب، ص ٢٥ .

(٣) ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ١١٤، ابن الخطيب، اعمال الاعلام، قسم ٣، ص ٢٥ .

(٤) ابن خلدون، العبر، طبعة بولاق، ج ٤، ص ٢٠١ .

بسكرة ، وأعلن أهل تلك المناطق الخضوع اليه ، ومن بسكرة اتجه الى طبنة، قاعدة بلاد الزاب ، ولحقه القائد حي بن مالك البلوى ، ومن طبنة قرر محمد بن اسماعيل المسير الى مدينة "ابسة" ونزلها بعساكره وقدم اليه رؤساء القبائل يعلنون طاعتهم وخضوعهم ، ولكنه لم يقبل منهم لان زعيم بني كملان من هوارة لم يقدم بنفسه . وقرر ابن اسماعيل المسير اليه ، ودار القتال بين قوات الاغالبة وبين بني كملان من هوارة ، وانتهى بكارثة لجيش القيروان ، وبمقتل محمد ابن اسماعيل وجماعة من كبار قواده وكثير من جنده الذين انهزموا حتى أبواب طبنة ، الى البلوى وأهل بلزمة ، كما تقول رواية النويري (١) .

فتح مالطة:

ويخفف من وقع تلك الهزيمة النكراء ، ذلك الانتصار العظيم الذى حققه جند الامير الاغلبي بفتح جزيرة مالطة وأسر ملكها ، في جمادى الاولى سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م كما تنص رواية ابن الخطيب (٢) .

وفاة أبي الغرانيق :

وتوفي أبو الغرانيق في ٦ جمادى الاولى سنة ٢٦١هـ/ ١٦ فبراير ٨٧٥م وهو في الرابعة والعشرين من العمر بعد ولاية استمرت عشر سنين وخمسة أشهر ونصف شهر (٣) .

ابراهيم بن احمد بن محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب

(٢٦١–٢٨٩هـ/ ٨٧٥–٩٠٢م)

اقصاء أبي عقال بن أبي الغرانيق:

كان ابو الغرانيق محمد قد عهد بالامارة من بعده لابنه الطفل ابي عقال ، على أن يكون ابراهيم عمه الذى كان واليا على القيروان ، وصيا عليه ولكي يتأكد وهو على فراش المرض ان ابراهيم أخاه سيفي لابنه الطفل ، جعل ابراهيم – كما تنص الروايات يحلف خمسين يمينا في جامع عقبة المبارك بالقيروان بأن يفي لولي العهد الصغير والا ينازعه

---

(١) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١١١٦أ .

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٦ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٦ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٦ .

في مقدمه . وذلك في وجود مشايخ الاسرة من بني الاغلب . وأمام قضاة القيروان وفقهائها من أهل الحل والعقد [١] .

ولكن ما أن مات ابو الغرانيق حتى قام أهل القيروان الى واليهم ابراهيم ، الذى عرف بحسن سيرته وطلبوا اليه ان يتولى الامارة . فاعتذر بما سبق من العهد فقالوا له : " نحن كارهون لولايته ومبايعون لك ، وليس في أعناقنا له بيعة " . ولازموه حتى ركب وحارب من في القصر القديم ، حتى دخله ، وفيها بايعه مشايخ أهل القيروان ثم وجوه أهل افريقية "وجميع بني الاغلب" [٢] .

عهد الاستبداد :

وهكذا آلت مقاليد الامور في دولة الاغالبة الى ابراهيم بن أحمد الذى ولي أكثر من ثمانية وعشرين عاما ونصف . ولابراهيم الكثير من الحسنات منها : منعه الظلم ونشر العدل ، وله سيئاته من أعمال العنف والقسوة التي تصل الى سفك الدم لأتفه الاسباب . ولم يسلم منها أهل الامير من بني عمومته واخوته وحتى أبنائه وبناته .

أما عن السياسة العامة للدولة فالحرب في صقلية مظفرة وفي أيامه يتم فتح سرقوسة وطبرمين . ومن الاعمال العمرانية بناء المدن والمحارس ، الى جانب الاضطرابات في طرابلس ، وتونس ، وبلاد الزاب التي نجح الامير في اخمادها بشيء من العنف والشدة .

وقد قسم ابن عذارى سيرة ابراهيم الى فترة طيبة استمرت لسبع سنوات ، اتسمت بحسن السيرة ، تلتها فترة تغيرت فيها أحواله الى قرب نهاية حكمه عندما مال الى الزهد والتنسك ، وترك الملك لابنه ابي العباس . وخرج للجهاد في صقلية [٣] .

بناء رقادة :

من أهم الاعمال العمرانية التي تنسب اليه بنائه مدينة رقادة . ففي سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م ، بدأ ابراهيم بن احمد في بناء مدينة رقادة على أربعة أميال من القيروان .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ص ١١٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٧ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٦ ، ابن الخطيب اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٧ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٢ — ١٣٣ .

أما عن تسمية المدينة فقد قيل انها نسبة الى الرقاد أى النوم ، وذلك لطيب مناخ المنطقة التي اختيرت للبناء[١] . وبنيت بالمدينة القصور العجيبة ومسجد جامع . وكان أول القصور التي شيدت فيها هو القصر المعروف بالفتح ، الذى تم بناؤه في عام (٢٦٤هـ/ ٨٧٧م) ، فانتقل اليه ابراهيم بن احمد من القصر القديم[٢] ولم تزل رقادة دار ملك بني الاغلب الى ان خرب منها زيادة الله امام ابي عبد الله الشيعي .

وتنص الرواية الى انه عندما انتقل ابراهيم بن احمد من القصر القديم الى رقادة منع بيع النبيذ بمدينة القيروان ، وأباحه في رقادة ، التي صارت الى جانب كونها حاضرة للامير ومتنزها له وموضع فرجة حيث كان يقدم عليه فيها الندماء والمداحون والشعراء[٣] .

تخلص ابراهيم من الصقالبة واستخدامه الجند السودان:

استاء الصقالبة من موالي الاغالبة لخروج الحكم من القصر القديم الى رقادة ولكن ابراهيم قضى على حركتهم بعنف وقسوة . اذ يفهم من الرواية أنه عندما حل وقت دفع المرتبات الى الجند والخدم ، جلس ابراهيم في قصره الجديد المعروف بقصر الفتح في رقادة ، وحضر اليه جميع العبيد والموالي من القصر القديم ، فكان كلما تقدم رجل منهم نزع منه سيفه وقبض عليه ، حتى تم القبض عليهم جميعا ، وتقول الرواية ان ابراهيم فرقهم وشتتهم ، فأمر بقتل بعضهم ، كما أمر بحبس عدد منهم في سجن القيروان حتى الموت ، كما نفى عددا منهم الى صقلية[٤] .

وبعد ذلك اتجه ابراهيم الى الاستعانة بالعبيد من السودان ، فاشترى منهم أعدادا كثيرة ، ودربهم على أعمال الجندية . وصار يعتمد عليهم في الحروب . وقد ظهر منهم شجاعة وجلد[٥] .

---

(١) انظر، ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ١١٧، البكرى، المغرب، ص ٢٧ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١، ص ١١٧ .

(٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

(٤) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢، ص ١١٨ أ .

(٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢، ص ١١٨ أ .

قلاقل في طرابلس:

اللقاء بين الاغالبة والطولونيين:

منذ سنة (٢٦٥هـ/ ٨٧٨–٨٧٩م) بدأت المتاعب الحقيقية تواجه الامير. وذلك عندما قرر العباس بن أحمد بن طولون في الاستقلال عن والده بامارة يقتطعها لنفسه في برقة التي كانت في عمالة مصر وقتئذ ويضيف اليها مايمكن اضافته من طرابلس والاقاليم الشرقية من امارة الاغالبة . وفي الوقت الذى استقر فيه العباس في برقة حل القحط العظيم الذى أصاب افريقية سنة ٢٦٦ هـ/ ٨٧٩م ، مما أدى الى الغلاء الشديد .

مسير العباس الى برقة :

انتهز العباس فرصة غياب والده في الشام وقام بانقلاب آزره فيه عدد من كبار القواد ، فاستولى على ماكان في بيت المال في مصر ، وقبض على وزير والده أحمد بن محمد الكاتب ، وسيّره معه مقيدا في اتجاه برقة [١] التي وصل اليها في ثمانمائة فارس ، وعشرة آلاف راجل من السودان ، منهم خمسة آلاف جمل ، في شهر ربيع الاول سنة ٢٦٥ هـ/ نوفمبر ٨٧٨م [٢] .

وأخذ العباس يكاتب رؤساء القبائل البربرية في طرابلس ، وقد استجاب له بعضهم لانهم كانوا يقفون موقف المعارضة من الدولة الاغلبية لانهم كانوا يدينون بمذهب الخوارج الاباضية ، وامتنع بعضهم منه . وتقول رواية ابن الاثير ان العباس حاول التغرير بابراهيم بن أحمد فكتب اليه يقول: "ان امير المؤمنين قلدني أمر افريقية وأعمالها" [٣] وهو الامر الغريب .

ابراهيم يرسل قائده ابن قرهب الى طرابلس:

ونتيجة لاستجابة بعض زعماء البربر ، تشجع العباس على المسير نحو لبدة شرق طرابلس . وعندما وصل الى ابراهيم بن أحمد نبأ مسير العباس ، أسرع بارسال قائده أحمد بن قرهب ، في ألف وستمائة فارس ، "خيلا مجردة" لا رجل فيها "كما تقول رواية

(١) انظر ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(٢) انظر، ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ١١٨، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٣ ، ص ٤٠ ، احداث سنة ٢٦٥ .

(٣) ابن الاثير ، احداث سنة ٢٦٥ ، ج ٧ ، ص ٣٢٤ .

ابن عذارى ، وأمره بالاسراع ليلا نحو طرابلس ، التي دخلها قبل وصول العباس الى لبدة (١) ، وصل ابن قرهب في طرابلس على حشد مايمكنه حشده من جنده طرابلس ، ومن بربر المنطقة المجاورين ، وأسرع في اتجاه لبدة التي دخلها قبل أن تصلها مقدمة القوات الطولونية (٢) .

اللقاء بين الاغالبة والطولونيين:

خرج ابن قرهب بفرسانه من لبدة متجها نحو الشرق ، حيث ظهرت لديه طلائع قوات العباس بن أحمد بن طولون على بعد خمسة عشر ميلا من لبدة ، في موضع يسميه الرقيق الذى ينقله النويرى " ورداسة " ورغم ان العباس لم يزحف نحو لبدة الا بثمانمائة فارس فقط ، ومعهم خمسة آلاف راجل من السودان ، الا أن الخدعة التي قام بها عندما جعل نصف رجالته السودان وهم خمسة آلاف رجل يركبون الجمال ، وهم يحملون البنود التي صنعها في برقة ، ويزحفون وراء القطعة الرئيسية من الجيش ، نجحت في تحقيق هدفه .

فقد خلف ابن قرهب بعد مناوشة بسيطة ، وانهزم نحو طرابلس ، وهو يظن أن من بدأ قتلهم لم يكونوا سوى مقدمة الجيش المصرى (٣) .

الجيش الطولوني يدخل لبدة ويحاصر طرابلس:

وبذلك استمر العباس في سيره نحو افريقية ، وفتح حصن لبدة أبوابه له دون قتال في جمادى الاولى سنة ٢٦٦هـ/ديسمبر ٨٧١م - يناير ٨٨٠م ، ولكن رجاله أساءوا معاملة أهل لبدة ونهبوهم (٤) .

وفي لبدة تتبع العباس المنهزمين من عسكر ابن قرهب الى طرابلس ، فنزلها وضرب عليها الحصار ، ونصب عليها المجانيق كما تقول رواية ابن عذارى وضيق عليها الخناق ، ثلاثة وأربعين يوما ، وكان السودان من رجاله يغيرون في هذه الاثناء ، على أهل البوادى ، ويسيئون معاملتهم ، "حتى اعتدوا على الحرم وهتكوا

---

(١) انظر ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(٣) انظر النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١١٨أ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٢٤ ، احداث سنة ٢٦٥ .

الستر مما أثار بربر نفوسة الاباضية[١] . ورغم أن اباضية جبل نفوسة كانوا مستقلين بجبلهم ، ولا يعترفون بسلطان الاغالبة ، فقد غضب زعيمهم الياس بن منصور لما حل بجيرانه أهل طرابلس الذين استجاشوا به ، وقام على رأس اثني عشر ألف رجل من نفوسة زحف بهم ناحية العباس[٢] .

انسحاب العباس وقواته أمام الاباضية :

وهكذا فوجيء العباس بن أحمد بن طولون الذى كان يحارب الجند الاغلبي حول طرابلس ، بالاباضية من بربر نفوسة ، بقيادة زعيمهم الياس . ووقع العباس بين شقي الرحى ، واستعرت لهيب الحرب والعباس يحاول ان يجد طريقا للعودة الى برقة . وكان رجاله يسقطون من حوله ، وكاد العباس أن يؤسر وهو ينسحب لولا أن خلصه بعض مواليه من السودان[٣] .

وهكذا خلص العباس بفلول قواته الى برقة ، وانتهب أهل طرابلس جميع عسكره كما تقول رواية ابن عذارى[٤] . وفي أثناء ذلك كان ابراهيم بن أحمد يحاول حشد جند افريقية في القيروان وعندما خرج على رأس قواته يريد نجدة رجاله في طرابلس ، وصله خبر هزيمة العباس بن احمد بن طولون ، وهو في الطريق ، من ابن قرهب الذى أراد أن يبشره بالفتح كما تقول رواية النويرى[٥] ، وما أخذ من الاموال التي كان ابراهيم في أشد الحاجة اليها[٦] .

المجاعة والقلاقل الداخلية سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨١–٨٨٢م :

وتسبب القحط الذى حل بالبلاد في سنة ٢٦٨ هـ في كوارث أخرى ، فنتيجة لتلك الشدة امتنع قبائل اقليم الزاب عن دفع ماعليهم من الاموال ، ولقد فتك بهم ابراهيم ابن أحمد فتكا ذريعا ولم يرحم أطفالهم من القتل ، فرواية ابن عذارى تقول : "وقتل أطفالهم وحملوا على العجل الى الحفر

---

(١) انظر ، ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٩ .
(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٩ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٢٤ .
(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٩ .
(٥) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١١١٨أ .
(٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٩ .

فألقوا فيها" (١) .

وهنا اشارات في النويري الى غضب قبائل وزداجة في اقليم باجة ، وهزيمتهم لواليهم ، ولكن قائد ابراهيم تمكن من القضاء على حركتهم ، وانتهى الامر بدخولهم في الطاعة (٢) .

وقامت هوارة هي الاخرى بالعصيان ولكن حركتها انتهت بطلب الامان والركون الى الطاعة .

السلام يسود لمدة خمس سنوات :

ومنذ سنة ٢٦٩ هـ/ ٨٨٢-٨٨٣ م ، استقرت الامور في المملكة لابراهيم فلا نجد اشارة الا لحروب صقلية المظفرة .

الاصلاح المالي :

في سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨ م ، قرر ابراهيم بن احمد القيام باصلاح مالي قوبل بمعارضة شديدة من أهل القيروان ووصل الامر الى قيام الاضطراب وانتهى الى "هيجة تعرف بثورة الدراهم" كما يقول ابن عذارى (٣) فلقد قرر ابراهيم الغاء قطع النقود الصغيرة التي يتعامل بها أهل القيروان ، وقرر التعامل بالدراهم الصحاح من الفضة (٤) فأنكرت العامة في القيروان ذلك التغيير ، وأغلقوا حوانيتهم وتجمعوا في مظاهرة كبيرة وساروا الى رقادة ، وتصايحوا ضد الامير الذى أمر بحبسهم في الجامع وعندما وصل الخبر الى اهل القيروان ، تجمعوا بدورهم خارج باب المدينة ، وأعلنوا معارضتهم لابراهيم الذى وجه اليهم وزيره ابا عبد الله بن أبي اسحاق ، فرموه بالحجارة وسبوه فرجع الى الامير ابراهيم وأخبره بذلك . وعندئذ ركب ابراهيم بن احمد بنفسه الى القيروان ، وبرفقته صاحبه نصر بن الصمصامة في جمع من الجند فناصبه القيروانيون القتال .

وقرر ابراهيم ان يعامل أهل القيروان بالمداراة ، فتقدم الى المصلى ، ونزل فيه

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٢) النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١١٨ ب .

(٣) انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

وجلس ، وطلب من جنده الامتناع عن قتالهم . وعندما استقر به المقام ، وعداً الناس ، خرج اليه الفقيه الزاهد ابو جعفر احمد بن مغيث ، ودار بينهما حديث طويل ، انتهى بتهدئة الاحوال ، اذ تذكر الرواية ان الوزير دخل مع الفقيه الى المدينة واخترقا سماطها ، أي شارعها الكبير ، مما أدى الى سكون الناس . ورجع ابراهيم بن أحمد الى رقادة ، وأطلق المحبوسين بالجامع (١) .

وبذلك تم لابراهيم اقرار اصلاحه المالي ، " وانقطعت النقود والقطع الصغيرة من افريقية الى زمن صاحب الرواية التي ينقلها ابن عذارى في "البيان" (٢) ، وضرب ابراهيم بن أحمد دنانير ودراهم سماها العشرية ، اذ كان في كل دينار منها عشرة دراهم من الفضة (٣) .

تغلب ابراهيم بن احمد وتخلصه من كبار رجال الدولة :

القاضي :

تذكر الرواية ان ابراهيم بن احمد عزل قريبه والي القيروان ، عبد الله بن احمد ابن طالب التميمي ، وحبسه ، ثم أرسل اليه بطعام مسموم أكله في الحبس ، فمات بعد أكله مباشرة (٤) .

الكاتب :

وفي السنة التالية (سنة ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م) حبس ابراهيم كاتبه محمد بن حيون المعروف بابن البريدي ، وكان شاعرا ، فكتب اليه أبياتا يستعطفه فيها ، ولكن الامير لم يستجب له ، بل أمر به فجعل في تابوت حتى مات (٥) .

الحاجب :

ومما يدل على عنف ابراهيم العقوبة الشديدة التي أنزلها في العام التالي (٢٧٧ هـ/ ٨٩٠ م) بحاجبه نصر بن الصمصامة فقد ضربه خمسمائة سوط ، فلم ينطق

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٠ — ١٢١ .
(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢١ .
(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢١ .
(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢١ .
(٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

اليه نحو سبعمائة رجل من أبطالهم ، دعاهم الى القدوم عليه في رقادة ، وأنزلهم معه في دار كبيرة بناها لهم ، كما تقول رواية ابن عذارى ، وكانت تشتمل على عدد من الدور ترجع كلها الى باب واحد (١) .

وبعد ان أحس ابراهيم ان القوم اطمأنوا ، جمع أهل الثقة من رجاله ، لاخذ أرزاقهم ، ثم أمرهم لمصاحبة ابنه عبد الله للقضاء على البلزميين في دارهم الكبيرة ، وأحاط الجند بدار البلزميين الذين دافعوا عن أنفسهم الى وقت العصر . ولكن القتال انتهى بمقتلهم جميعا (٢) .

ويعلق ابن عذارى على ذلك الحدث بقوله ، "وكان ذلك من أسباب انقطاع دولة بني الاغلب ، اذ كان أهل بلزمة في نحو ألف رجل من أبناء العرب والجند الداخلين الى افريقية عند افتتاحها وبعده ، وكان أكثرهم من قيس ، وكانوا يذلون كتامة ، فلما قتلهم ابراهيم ، استطالت كتامة ، ووجدت السبيل للقيام مع الشيعي على بني الاغلب" (٣) .

مخالفة البلاد على ابراهيم بن الاغلب :

نستشف من رواية ابن عذارى ان البلاد خرجت على سلطان ابراهيم بن الاغلب عقب تلك المذبحة . ففي سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م تنص الرواية على ان البلاد تحولت الى دولة ملوك فتن فقد انتشرى في كل مدينة قائد من القواد . فلقد خالفت على ابراهيم كل من تونس ، والجزيرة والاربس وباجة ، وقمودة ، وقدموا على أنفسهم رجالا من الجند وغيرهم ، "وصارت افريقية عليه نارا موقدة" ولم يبق بيده من أعمالها الا الساحل والشرق الى اطرابلس . وازاء هذا الموقف الصعب اتخذ ابراهيم خندقا حوالي رقادة ، ونصب عليه أبواب حديد ، وجمع حوله أهل الثقة من جنده ، واستعان بحرسه السودان ، وكانوا خمسة آلاف أسود (٤) .

الجزيرة :

ومع بداية سنة ٢٨٠ هـ/ ٨٩٣ م بدأ ابراهيم ينفرد بأهل كل منطقة على حدة ،

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٣ .
(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٣ .
(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٣ .
(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

وبدأ بمنطقة الجزيرة ، جزيرة شريك ، وعطفورة ، حيث أرسل عسكره الذى انتقم من أهلها فقتل منهم خلقا كثيرا ، وأتى برئيسهم أسيرا فأمر به الامير ابراهيم فقتل وصلب .

قمودة :

ثم وجه فتاه الحبشي ميمون ، على رأس السودان الى أهل قمودة ، فقاتلهم حتى انهزموا ، وقتل جماعة منهم (١) .

تونس :

وأخيرا وجه الى تونس جيشا كثيفا ، على رأسه فتاه ميمون ، وانتهى القتال ، بانهزام أهل تونس ، ودخول تونس نفسها عنوة ، في ٢٠ من ذى الحجة سنة ٢٨٠هـ/ ٢ مارس ٨٩٤م . "وانتهبت الاموال وسبيت الذرية" (٢) .

وفي سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م وجه ابراهيم بن احمد ميمونا الحبشي الى تونس ، فقتل بها جماعة من بني تميم وغيرهم ، وصلبهم على باب المدينة . وعاد ميمون وبصحبته وفد من أكابر أهل تونس يقدمون الطاعة والولاء . وخلع ابراهيم على ميمون وكساه "الخز والوشى والديباج ، وطوقه بالذهب ، وحمله على فرس" ، ثم أعاده الى تونس كنائب له (٣) .

استيطان ابراهيم تونس :

في سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م ، خرج ابراهيم بن الاغلب كما تقول رواية ابن عذارى الى تونس ، واستوطنها (٤) .

تقديم أبنائه على بلاد افريقية :

وقد عمل ابراهيم على توطيد الامن والاستقرار في ربوع البلاد ، فقرر في سنة ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م ، أن يعهد بولاية أقاليم افريقية الى أبنائه ، كما تقول

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

رواية ابن عذارى [١] .

العودة الى رقادة :

ولم يستمر المقام بابراهيم في تونس الا اقل من سنة ونصف السنة ، وذلك انه عاد الى رقادة في بداية سنة ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م [٢] .

احتجاج الخلافة على سياسة ابراهيم القاسية في تونس ونذر الفتنة في اقليم طرابلس :

اخر ابراهيم ابنه أحمد الى طرابلس ليكون عاملا عليها . وذلك بدلا من ابن عمه ، محمد بن زيادة الله بن الاغلب ، الذي كان "اديبا ظريفا له تواليف" وكان مرشحا من قبل الخلافة العباسية لتولي الامارة في افريقية بدلا من ابراهيم . فالرواية تقول ان الخليفة المعتضد العباسي ، كان من بين ماكتبه لابراهيم — بعد تعنيفه له على جوره وسوء فعله بأهل تونس — "ان انتهيت عن أخلاقك هذه ، والا ، فسلم العمل الذي بيدك لابن عمك محمد بن زيادة الله" [٣] .

وقوف قبائل نفوسة في طرابلس ضد ابراهيم :

خرج ابراهيم بن احمد من رقادة في سنة ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م ، بعسكره متتبعا ابنه احمد الذي كان قد سبقه الى هناك من تونس . وفي منتصف الطريق بين قابس وطرابلس في موضع يعرف بمانو اعترضته قبائل نفوسة ، وكانوا في جموع كبيرة حوالي عشرين ألف رجل ، لا فارس معهم ومنعوه من الجواز [٤] . فتصدى لقتالهم ، وقاتلهم قتالا عنيفا حتى هزمهم وقتل أكثرهم ثم تمادى حتى أطرابلس يتبعهم بالقتل [٥] .

قتل عامل طرابلس محمد بن زيادة الله :

ومن نفوسة سار ابراهيم الى طرابلس حيث قتل بها ابن عمه الاديب ، محمد ابن زيادة الله ، وصلبه ثم قام من طرابلس الى تاورغا ، فقتل بها كما تقول رواية ابن عذارى خمسة عشر رجلا ، وأمر بطبخ رؤوسهم ، فظهر انه يريد أكلها هو

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٢٠ أ .

(٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

ورجاله وقد نجح بهذا العمل في اشاعة الرعب في اهل العسكر[١] الذى عاد معظمه الى افريقية مما اضطره الى العودة الى رقادة ونكل بالفارين وعزمهم .

أبو الاحوص الشيخ الصالح يأمر ابراهيم بالمعروف :

تقول رواية ابن عذارى أن أبا الاحوص الشيخ الصالح المكفوف وهو من أهل سوسة ، كتب الى ابراهيم رسالة من املائه بعثها اليه يأمره فيها بالمعروف وينهاه عن المنكر . وتنص الرواية على ان ابراهيم عذر الشيخ المكفوف ، لدينه وفضله ، ولكنه هدده بقتل عدد من أهل سوسة ان لم يبعث اليه بمن كتب له الرسالة . وكان رد الشيخ عليه هو دعوته الى التوبة من جديد ، والرجوع عن الظلم . ووفى الله الشيخ من نقمة ابراهيم ، فمات في نفس السنة أى سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م[٢] .

اعتزال ابراهيم بن أحمد :

تذكر الرواية أنه في سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م قدم من بغداد على الامير ابراهيم رسول من قبل الخليفة العباسي المعتضد بالله ، وأمر الخليفة رسوله أن يطلب من ابراهيم بن احمد اعتزال الحكم ، وتولية ابنه أبي العباس على افريقية ، ثم القدوم مع الرسول الى بغداد للقاء الخليفة[٣] .

وفي سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠٢م كما تنص رواية ابن عذارى ، أظهر ابراهيم بن احمد التوبة لما استقام أمر أبي عبد الله الداعي بكتامة . وأراد أن يرضي العامة ويستميل قلوب الخاصة بأفعاله ، فرد المظالم ، وأسقط القبالات (المكوس) وأخذ العشر طعاما ، وتركه لاهل الضياع خمس سنة ، وسماها سنة العدل[٤] . وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا عظيمة ليفرقوها في الضعفاء والمساكين ، وانتظر عودة ابنه أبي العباس وكان قد بعث اليه بالرجوع من صقلية ليسلمه الملك[٥] . وعندما وصل أبو العباس ، من صقلية في أواخر سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠١م سلمه مقاليد الامور في الدولة ، وبدأ هو الاستعداد للخروج الى صقلية مجاهدا .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٢٩ — ١٣٠ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٣) النويرى ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٢١أ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣١ .

(٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣١ — ١٣٢ .

موت ابراهيم بن احمد في ايطاليا،

وفي جنوب ايطاليا في ١٨ من ذى القعدة سنة ٢٨٩هـ/ ٢٤ أكتوبر ٩٠٢م ، مات الامير ابراهيم بن احمد ، بعد ان قام بأعمال مجيدة منها استيلاؤه على مدينة طبرميـن . ودفن بمدينة بلـرم [١] وله من العمر حوالي ٥٢ سنة بعد حكم استمر أكثر من ثمانية وعشرين سنة [٢] .

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعـلام ، قسم ٣ ، ص ٣٦ .

أبو العباس عبد الله بن ابراهيم بن احمد بن محمد بن الاغلب

ابن ابراهيم بن الاغلـــب (٢٨٩ـ٢٩٠ هـ/ ٩٠١ ـ ٩٠٣ م)

تصف الرواية عبد الله بانه كان شجاعا ثبتـا ، ذا بصر بالحروب ، وتجربـــة فيها ، وكان أديبا عاقلا ، شديد الحذر من أبيه أيام حياته لما يشاهده من أحوالـــه، فكان يظهر له الطاعة والخضوع، وكان ابراهيم يرضى عنه ويعترف بفضله على سائـــر ولـــده (١) .

وفي سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠١ م أي عندما كان عبد الله نائبا للملك ، بعد خروج والده الى صقلية ، استرجع معظم الاموال التي كان أبوه أخرجهـا الى الفقهاء ووجوه النـاس ليفرقوها في المساكين ، والتي أعطيت لمن لا يستحقها ، وكان يقول لمشايخ افريقيـة : "اغتنم الفرصة في المال لمرض الامير أبي ، ومغيبي عنه" (٢) . وقام عبد الله باحداث تغييرات في ولايات الاقاليم ، فولى عليها من أحب (٣) .

وفي خلال هذه السنة بدأت قوات الداعية الشيعي ابي عبد الله تظهر فـــي بلاد الزاب وماحولها ، ونجح في أخذ مدينة ميلـة ، مما جعل أبا العباس يسيّـــر اليه أخاه ابا عبد الله المشهور بالاحول ، الذى استعاد ميلـة وهزم الداعية الشيعي ، هذا ولو أنه سيهزم في السنة التالية ، أي سنة ٢٩٠ هـ/ ٩٠٢ م ، أمام قوات أبي عبـد الله الداعي .

وفي سنة ٢٩٠ هـ/ ٩٠٢ م وقبل ان يصل الى أبي العباس نبأ وفاة والده فـــي صقلية ، كتب الى العمال ليأخذوا له البيعـة ، لان أباه فوض الامر اليـه ، وتخلـى له عن الملك ، واشتغل بالعبادة (٤) . وكتب الى العمال كتابا يقرأ على الناس بالوعد الجميـل والعدل والرفق والجهاد (٥) .

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٣٦ .
(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٤ .
(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٢ .
(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص
(٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .

تقشف أبو العباس وتنسكه :

وعندما وصل أبا العباس نبأ وفاة والده من صقلية ، تغير حاله وتقول الروايات أنه أظهر التقشف ولبس الصوف والجلوس على الارض وانصاف المظلوم وجالس أهل العلم وشاورهم . وكان لا يركب الا الى الجامع ، ولم يسكن في قصر أبيه ، ولكنه اشترى دارا مبنية بالطوب فسكنها ، وظل بها الى أن قتل (١) .

حبس ابنه ولي عهده زيادة الله :

وصل الى علم أبي العباس ، عن طريق بعض الوشاة أن ابنه زيادة الله ، ينوى الخروج عليه ، فأرسل اليه يستحثه في القدوم عليه ، فلما قدم عليه زيادة الله في ٢٠ جمادى الاخرة سنة ٢٩٠ هـ/ ٢٠ مايو ٩٠٢ م ، قبض عليه وأخذ ماكان معه من الاموال والعتاد وحبسه في بيت داخل داره ، هو وبعض أصحابه (٢) .

مقتل أبي العباس بن ابراهيم بن احمد :

بعد شهرين من حبس ابنه زيادة الله في يوم الاربعاء ٢٩ شعبان دخل أبو العباس الى الحمام ثم خرج منه للراحة في دار خالية ، واستلقى على سرير خيزران ، ووضع تحت رأسه سيفا ونام بعد أن أخرج كل من كان في الدار ماعدا اثنين من الفتيان كان يثق فيهما ، فلما نام تآمرا على قتله . لتكون فرصة يقدمون فيها يد المساعدة لزيادة الله ، ويفوزا بالحظوة لديه وبعد أن اغتالا عبد الله ذهبا الى حيث كان زيادة الله محبوسا وأخبراه بمقتل والده وألقيا اليه برأسه (٣) .

وهكذا انتهى عصر أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن احمد باغتياله في قصره بمدينة تونس في آخر شعبان من سنة ٢٩٠ هـ/ ٢٨ يوليه ٩٠٣ م وآلت مقاليد الامور من بعده الى ابنه زيادة الله الذى خرج من سجنه الى الملك لكي ينهي دولة الاغالبة .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ج ١ ، ص ١٣٣ — ١٣٤ ، ابن الخطيب اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٤ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٣٧ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ج ١ ، ص ١٣٤ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٣٧ .

آخر ملوك الاغالبة : زيادة الله الثالث :

ابو مضر زيادة الله بن أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن احمد بن محمد بن الاغلب ابن ابراهيم بن الاغلب (٢٩٠–٢٩٦هـ/ ٩٠٣–٩٠٩م):

لما تيقن زيادة الله من مقتل أبيه فك قيوده وكتم نبأ اغتيال والده خوفا من أعمامه الذين يمكنهم الوثوب عليه ، وأخذ الامارة منه . وبدأ يدبر أموره ، فأرسل الى بعض أصحابه ممن كانوا مسجونين معه " تهمة " مثل : عبد الله بن الصائغ ، وأبي مسلم منصور بن اسماعيل وعبد الله بن أبي طالب ، وطلب منهم المشورة ، فأشاروا عليه بأن يرسل الى أعمامه يستقدمهم هم ووجوه القواد على لسان أبيه الى دار الامارة .

وتقول الرواية انه عندما وصل اعمامه ووجوه القوم ، " دفع اليهم الصلات وأخذ عليهم البيعة " (١) . ثم أمر ان ينادى بتونس بقدوم من كان بها من الجند ، الى باب الامير فردوا اليه بأسلحتهم فأمر زيادة الله بادخالهم واحدا واحدا ، فكان الرجل منهم يدخل يبايع ، ويعطي خمسين مثقالا اذا كان من وجوه العسكر (٢) . وكتب في ذلك اليوم كتاب بيعته ، وبعث به فقرئ بتونس على منبر جامعها ، ثم أخذت له البيعة على العامة بتونس ، وكتب الى العمال بالبلاد على أن يأخذوا له البيعة على من قبلهم (٣) . ولما قرب وقت العشاء نادى في الجند ، أن يأتوا في صباح اليوم التالي لاخذ العطاء . وقبض على أعمامه أجمعين ، وكبلهم ، ثم أرسلهم الى جزيرة الكراث (على بعد ١٢ ميلا من مدينة تونس) حيث قتلوا بها في الثالث من رمضان .

أما عن الجند والموالي الذين قدموا الى بابه لاخذ العطاء فانه سوفهم (أى ماطلهم) حتى " بردت قلوبهم وملوا الاختلاف " كما تقول رواية ابن عذارى (٤) .

وما ان استوثق له الامر حتى أمر بقتل الفتيين اللذين قتلا والده " وأمر بهما فقطعت أيديهما وأرجلهما وصلبا على باب القيروان ، وباب الجزيرة من أبواب

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٥ ، ابن الخطيب ، قسم ٣ ، ص ٣٧ – ٣٨ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

تونس[١] . وتنص الرواية على أنه ايضا في تلك المذبحة قتل عمه أبا الاغلب الزاهد الساكن بسوسة وقتل أخاه أبا عبد الله الاحول الذى كان يقاتل أبا عبد الله الشيعي في طبنة[٢] .

وأهم ماتسجله الحوليات على عهد زيادة الله الثالث ، هو انتصارات الداعي الشيعي المتوالية على قوات الاغالبة ، الى جانب محاولات الاغالبة الفاشلة في سبيل صد المد الفاطمي ، من الاتصال بالخلافة أو تحريض الفقهاء وعامة الشعب على الفاطميين ، ثم نقل الحاضرة الى القيروان .

وينتهي الامر بهرب الامير الاغلبي الى مصر ، تاركا بلاده وقصوره الى الداعي الشيعي ، مشيعا بغضب الشعب وسخطه وتذمره على الاسرة التي لم تستطع المدافعة عن البلاد .

تنظيم الدولة والدواوين :

بدأ زيادة الله بتنظيم الادارة في الدولة بأن عهد بالوزارة والبريد الى عبد الله ابن الصائغ ، وبديوان الخراج الى أبي مسلم منصور بن اسماعيل . ولكي يكسب زيادة الله رضى الشعب وتأييد فقهاء المالكية ، عزل قاضي القيروان الحنفي ، وولى القضاء حماس ابن مروان بن سماك الهمداني ، الذى عرف بالورع وكان عالما بمذهب مالك وأصحابه وقد عدل حماس في أحكامه ولم يكن يهاب أحد في ولايته ونظره[٣] .

وفي سنة (٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م) اخذ زيادة الله البيعة بولاية العهد لابنه محمد[٤] .

الصراع ضد الداعي الشيعي :

عهد زيادة الله بالحرب ضد أبي عبد الله الشيعي — بعد مقتل أخيه الاحول — الى قريبه ابراهيم بن ابي الاغلب ، كما وجه لها الكثير من عنايته . ولكن بلا فائدة وذلك أن أبا عبد الله الشيعي الذى نجح في ادخال معظم قبائل كتامة في الدعوة ورتبهم في جيوش منظمة ، تدين له بالطاعة والولاء أخذ يرنو ببصره الى المدن الاغلبية

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٥ .
(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٦ .
(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٦ .
(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٦ .

غير البعيدة من بلاد كتامة ، وهو ما نجد له تفصيلا رائعا في روايات القاضي النعمان في كتابه "رسالة افتتاح الدعوة" .

ونجح الداعي الشيعي في سنة (٢٨٦ هـ/ ٩٠٠ م) في الاستيلاء على مدينتي ميلة وسطيف ، مما أثار الهلع في نفس زيادة الله .

اطلاع الخلافة على الامور في افريقية وتوثيق صلاته بالحسنيين في المغرب :

نستشف من الروايات ان زيادة الله أخذ يطلع الخلافة العباسية على مجرى الامور في افريقية وكان هدفه من ذلك هو ان تتدخل الخلافة وتسانده في موقفه ، فسيّر كما تقول الرواية الحسن بن حاتم الى العراق رسولا من قبله "بهدايا وطرف" (١) .

كما حاول توثيق صلاته بالحسنيين أقارب الادارسة في المغرب الاوسط حتى يساعدوه في مقاومة كتامة ، فولى الحسن بن أبي العيش على رئاسة قبائل جراوة ، بعد وفاة والده أبي العيش (٢) .

اثارة أهل افريقية ضد الداعي الشيعي :

تنص الرواية على أن الامير زيادة الله قام بدعوة فقهاء افريقية الى المجيء اليه بتونس فوصله عدد منهم ، اجتمعوا في بيت الوزير عبد الله بن الصائغ ، وتفاوضوا في أمر الشيعي وأخبرهم ابن الصائغ على لسان الامير ان "هذا الصنعاني الخارج علينا مع كتامة ، يلعن أبا بكر وعمر - رضهما - ويزعم أن أصحاب النبي - صلعم - ارتدوا بعده ، ويسمي اصحابه "المؤمنين" ومن يخالفه في مذهبه : "الكافرين" ويبيح دم من خالفه في رأيه" (٣) .

وأظهر الفقهاء بعد سماع تلك المقالة ، اللعنة والبراءة من الشيعي ، وحرضوا الناس على قتاله ، وأفتوا بمجاهدته (٤) .

مهاداة الخلافة :

تذكر الرواية ان زيادة الله ، أرسل هدية عظمية الى الخليفة

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

العباسي المكتفى من ضمنها : عشرة آلاف مثقال (دينار) في كل مثقال منها عشرة مثاقيل (أى عشرة دنانير) وكتب في كل مثقال منها هذين البيتين من الشعر :

ياسائرا نحو الخليفة قل له ... أن قد كفاك الله أمرك كله
بزيادة الله بن عبد الله سيف ... الله من دون الخليقة سله (١)

نقل العاصمة الى رقادة :

وفي مواجهة الخطر التتامي ، قرر اعادة مركز الدولة من تونس الى رقادة القريبة من القيروان ليكون بالقرب من جبهة القتال في اقليم الزاب ، ففي سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م وصل صاحب الخراج ابو مسلم منصور بن اسماعيل ، الى رقادة (٢) لاصلاح مابها ، ورفع ماكان قا وهى من المدينة ، كما قام بتجديد سورها (٣) .

وفي شهر ربيع الاخر من السنة ، قدم زيادة الله من تونس الى رقادة فنزل في قصره في مواجهة الماجل (الصهريج) الكبير (٤) .

الاستعداد لحرب الداعي الشيعي :

بدأ زيادة الله بعد استقراره برقادة يحشد وجوه الرجال من أنجاد العرب والموالي من الجند كما أخذ في جمع السلاح وآلات الحرب ، ولما وصلت تلك الانباء الى الداعي الشيعي ، خاف كما تقول رواية ابن عذارى وأخذ في استصراخ كتامة (٥) .

موقعة قرب قسنطينة :

التقى ذلك الجيش الكثيف الذى أعده زيادة الله وعهد بقيادته الى ابراهيم ابن حبشي ، في سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م بحشود كتامة التي قادها الداعي غير بعيد من قسنطينة (٦) . وانتهى اللقاء الرهيب الذى تطاعن فيه القوم بالرماح حتى تحطمت وبالسيوف حتى تكسرت ، بانهزام ابراهيم وجنده الاغلبي وتنص الرواية على ان ابراهيم

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٧ .
(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٧ — ١٣٨ .
(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٨ .
(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٨ .
(٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٨ .
(٦) انظر ، القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص ١٥٧ .

ورجاله لم ينجوا الا بفضل ماتركوه من الغنيمة والاموال والسلاح والسروج التي انشغلت بها كتامة ، حتى اغتنى أصحاب الشيعي فلبسوا أثواب الحرير ، وتقلدوا السيوف المحلاة ، وركبوا بسروج الفضة واللجم المذهبة (١) .

وتقول الرواية ان الداعي كتب الى أبي عبد الله الشيعي — وهو يومئذ مختفيا بسجلماسة بأخبار الفتح كما أرسل اليه نصيبه من المال مع قوم من كتامة سرا (٢) .

نتائج الهزيمة :

تتلخص نتائج هزيمة العسكر الاغلبي في سنة ٢٩٢ هـ/ ٩٠٥ م في ازدياد قوة الداعي الشيعي وحلول الوهن والضعف بين صفوف أهل افريقية ، ودخول الهلع في قلوبهم (٣) . ومنذ تلك الهزيمة التي حاقت بالجند الاغلبي ، أصبحت الحرب بين الاغالبة وبين الشيعي وأنصاره — كما نستشف من الروايات عبارة عن سلسلة متوالية من الهزائم للعسكر الاغلبي ، ولم تجد في ذلك كتب الخلافة التي كانت ترد من بغداد ، والتي كان يحض فيها الخليفة أهل افريقية على نصرة زيادة الله ومدافعة الشيعي . والتي كانت تقرأ في المساجد على الناس (٤) .

اختلاف الامور على زيادة الله :

نستبين من تفصيلات الاحداث أن الامور اختلفت على زيادة الله ، فعقب هزيمة ابراهيم بن حبشي جهز زيادة الله في سنة ٢٩٣ هـ/ ٩٠٦ م جيشا وجهه الى الاربس — القريبة — لقتال الشيعي ، وكان على رأس ذلك الجيش والي القيروان وزميله الذى سبق ان نقل بهما زيادة الله . وبطبيعة الحال خن الرجلان بأمر زيادة الله لجهاد الشيعي وهما يضمران الخلاف ، فقد عادا بالعسكر الى القيروان بعد ثلاثة أيام فقط ، وقد رضوا لانفسهم بالجبن والخضوع وهو الامر الذى لم يرض به عامة القيروان الذين خرجوا اليهم يدافعونهم ويعلمونهم القيام بواجبهم ، حتى انتهى الامر بقتل أحدهما وصلبه على باب رقادة (٥) .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٨ .
(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٩ .
(٣) القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص ١٥٩ .
(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٠ .
(٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

الاربس مقرا للأمير وحاشيته :

اصبحت الاربس التي كانت على مسيرة يومين من القيروان - مركزا للقيادة ، حيث نزل زيادة الله بغربيها واجتمعت اليه عساكر كثيرة طمعا في المال وليس احتسابا في سبيل الله ، وفي ذلك تقول رواية ابن عذارى ، ان الامير كان يعطي الاموال جزافا بالصحاف ، كيلا بلا وزن فكان الرجل يعطى ملء الصحفة دنانير في كسائه ، ويحمل على فرس ، ولكنه كان يخرج فلا يرى بعد عطا أبدا (١) .

ونجح زيادة الله في توجيه العساكر الى باغاية ، أما طبنة عاصمة الزاب فشحنها بالرجال والعتاد وقدم عليها حاجبه أبا المقارع الحسن بن احمد بن نافذ مع شبيب بن أبي شداد القمودى وخفاجة العبسي ، وكانوا من أهل الشجاعة والنجدة ، وأمرهم بشن الغارات من طبنة الى أرض كتامة (٢)

افتتاح الداعي بلزمة وطبنة :

في سنة ٢٩٣ هـ/ ٩٠٦ م ، تمكن الداعي من التغلب على مدينة بلزمة ثم على طبنة التي دخلها بالامان في آخر ذى الحجة (٣) .

الداعي الشيعي يلغي نظام الضرائب الاغلبي ويعلن العودة الى السنة في طبنة :

نجح الداعي الشيعي في كسب قلوب الناس في الزاب ، بفضل دعايته التي نادى فيها بالعودة بالاسلام الى نقائه الاول على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . فهو في طبنة يرفض أموال جباية العشور التي تقدم اليه ، على أساس أنها من المغارم ، ويقول : " انما العشر حبوب ، وهذا عين " ، ويأمر بأن يرد على كل رجل ما أخذ منه ويقول : سنة العشور معروفة في أخذه وتفرقته " ويقول لمن أتاه بمال الخراج : هذا مال لا خير فيه ، ولا قبالة ولا خراج على المسلمين في أموالهم . ثم يأمر ثقات أهل طبنة برده على أهله (٤) .

وعن هذا الطريق انتشر فعله في جميع نواحي افريقية فتاقت أنفس الناس

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤١ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

اليه ، وكاتبوه ودخلوا في طاعته ولما بلغ ذلك زيادة الله اغتم به غما شديدا ، وأخذ في حشد الرجال ، وأمر بلعن الشيعي على المنابر (١) .

محاولة استعادة الزاب :

خروج ابن حبشي بقواته الى طبنة :

خرج ابن حبشي في سنة ٢٩٤ هـ/ ٩٠٦ م بعساكره من الاربس لملاقاة أبي عبد الله الشيعي بمدينة طبنة (٢) ، ولكن الرواية لا تبيّن لنا مصير ذلك الجيش الذى ذهب للقاء الشيعي .

سير عمرون الطبني الى بلزمة :

يفهم من رواية القاضي النعمان ان زيادة الله ، وجه جيشا آخر الى بلزمة ، وأنه عهد بقيادة هذا الجيش الذى بلغت عدته اثني عشر ألف رجل الى عمرون الطبني ، ولقيت تلك الحملة الهزيمة ، وقتل قائدها عمرون ، كما كان من نتائجها سقوط مدينة تيجس (٣) ، وبعد تلك الهزيمة انصرف زيادة الله كما تقول رواية ابن عذارى من الاربس ، وعاد الى رقادة ، بعد ان استخلف على الجيش بالاربس ابراهيم بن احمد ابن أبي عقال ، وانه بدأ بناء سور مدينة رقادة " بالطوب والطوابي " هذا وان كان القاضي النعمان في روايته يقول: انه بعد مقتل عمرون اغتم زيادة الله كثيرا وقرر الخروج بنفسه للقاء الداعي ، ولكنه عاد واستمع الى نصح المقربين اليه الذين نصحوه بالا يفعل ذلك فهزيمته لو حدثت لن تكون كهزيمة قواده ، فعاد الى قصره برقادة " في اهل بيته وخاصة رجاله " (٤) .

تحصين رقادة والانغماس في اللهو :

بعد ان قام زيادة الله ببناء سور رقادة ، انصرف كما تقول رواية ابن عذارى الى اللهو ، فالتزم التنزه على البحر ، واتباع اللذات ، ومنادمة العيارين والشطار والزمامرة والزراطين ، وتضيف الرواية أنه كان اذا فكر في تغلب عدوه على أكثر

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

(٣) انظر ، القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص ١٦٤ ـ ١٨١ .

(٤) افتتاح الدعوة ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

مواضع عمله . يقول لندمائه : "املأ واسقني من القرن يكفيني "[١] .

سقوط باغاية وتفكير زيادة الله في اللجوء الى مصر سنة ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م :

في سنة ٢٩٤ هـ/ ٩٠٦ م كان لسقوط مدينة باغاية واستسلامها لابي عبد الله الشيعي ، أثره في نفس زيادة الله الذى عظم غمه ، واستشار وزيره عبد الله بن الصائغ ، فنصحه بالرحيل الى مصر سرا ، على ان يستخلف على افريقية قائدا يوكل اليه أمر العساكر ويترك له الاحوال ، واستحسن الامير النصيحة وأمر بشراء خمسمائة جمل لرحيله ثم ظهر له خطأ هذا الرأى وخاف من ثورة الناس ضده ، فتوقف عن تنفيذ النصيحة[٢] .

ونستبين من الرواية ان الذى بيّن له خطأ فكرة الهروب هو قائد جيوشه ابراهيم بن حبشي ، الذى أدخله أجمل قصوره في رقادة ، وهو قصر البحر ، وجعله ينظر الى مافيه من الزخارف والصور وبيّن له ان مثل هذا القصر لا ينبغي أن يترك للاعداء . وأظهر له ابراهيم بن حبشي أن أهل البلاد معه ، بينما عدوه الشيعي شيخ مجهول لا يعرف مكانه في البربر ، وأنه في حصن منيع ، وأن الظفر معه باذن الله .

وهكذا تخلى زيادة الله عن الهرب ، وجعل يرسل الرجال والاموال الى الاربس ، التي أصبحت أقصى ثغوره ، " فكانت خيل أبي عبد الله الشيعي تغير على الاربس من باغاية ، وخيل زيادة الله تغير على باغاية من الاربس[٣] . "

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٣ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٣ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٣ — ١٤٤ .

الاربس ضبطها ياقوت الحموى في معجم البلدان بضم الهمزة والباء ، وكتبها البكرى في شكل " لربس " وهي مدينة بتونس بينها وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام . وهي مدينة مسورة لها ربض كبير ، وبأرضها يوجد أطيب الزعفران ، ولذلك تعرف ببلد " العنبر " (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٣٦ ، البكرى ، المغرب ، ص ٤٩) .

زيارة رسول صاحب القسطنطينية :

وفي نفس السنة (أي سنة ٢٩٤ هـ/ ٩٠٦ م) ، وبينما كانت مدينة رقادة تتخذ الأهبة لأي طارئ ، وأهلها يتخذون العسس حولها ، ويبيتون في الأخبية المنصوبة بجوارها كما تقول رواية ابن عذارى ، في ذلك الوقت قدم حبشي وابن أبي حجر وابن عباس ، وهم رسل زيادة الله الى بلد الروم وبصحبتهم رسول صاحب القسطنطينية (١) . واحتفى زيادة الله بالرسول احتفاء كبيرا ، فكساه ، وأقام له حفل كبير في الملعب بقرب رقادة وجمع زيادة الله الناس للمباهاة بهم "فكان جمعا عظيما (٢) .

خروج زيادة الله الى مدينة تونس أول عام ٢٩٥ هـ ٩٠٧ م :

جدد زيادة الله كما تقول الرواية الحشد ، لحراسة القيروان ورقادة ، وكان يرغب الناس بالاموال على الانضمام الى العساكر (٣) . وفي سنة ٢٩٥ هـ ، خرج زيادة الله في شهر المحرم ، الى مدينة تونس ليرتب أموره فيها (٤) .

انتصارات الداعي الفاطمي فيما بين مجانة وقمودة :

خلال سنة ٢٩٥ هـ/ ٩٠٧ م تسجل رواية ابن الاثير للداعي انتصارات متوالية من ذلك : افتتاحه لمدينة مجانة عنوة وقتل عاملها ، وملك مدن : القصر الافريقي ، وتيفاش ، وقالمة ، ثم مسيره المظفر الى مسكيانة وتبسا مديرة (حيدرة) ، ومرماجنة (قرب الحدود التونسية الجزائرية الحالية) . وبعد تلك المسيرة رجع ابو عبد الله الشيعي عبر قسطيلية ، الى باغاية ومنها قفل الى قاعدته في ايكجان (٥) .

استيلاء الداعي الشيعي على قسطيلية وبلاد الجريد :

وفي سنة ٢٩٦ هـ وهي السنة الاخيرة في حكم الدولة الاغلبية وصلت خيل أبي عبد الله الشيعي الى قسطيلية حيث مني بالهزيمة ابو مسلم منصور بن اسماعيل ، وشبيب

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٤ .
(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٤ .
(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٤ .
(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٤ .
(٥) انظر : ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٥ ، سنة ٢٩٦ .

ابن أبي الصارم وانسحبا الى مدينة توزر . وتتبعتهم الخيل الى هناك وهي تحرق القرى وتفسد مامرت به من النعم . وأتبع الداعي ذلك بالاستيلاء على قفصة، عاصمة بلاد الجريد .

ولما وصل الخبر الى رقادة بمعاودة رجال الداعي الشيعي لنشاطهم ، ارتجت الحاضرة ، وهال زيادة الله الامر واضطربت احوال الجند ، وانتاب الجميع اليأس وخافوا على ذراريهم وأهلهم من السبي والاسترقاق (١) .

سقوط الاربس:

وأخيرا سقطت الاربس في ٢٤ جمادى الاخيرة سنة ٢٩٦هـ/ ١٨ مارس ٩٠٩م ، وانهزم ابراهيم بن أبي الاغلب (واليها) في عساكر افريقية وجمهور أجناده، ودخل الشيعي المدينة بالسيف عنوة (٢) . ولجأ أهل الاربس وفلول العسكر الى مسجد المدينة — الذي غص بمن فيه ، وانتهى الامر بأن أمر الشيعي بقتلهم أجمعين، وتبالغ رواية ابن عذارى عندما تنص على ان عدد من قتلتهم كتامة بأمر الشيعي داخل المسجد بلغوا ثلاثين ألفا ، وكان قتلهم من بعد صلاة العصر الى آخر الليل ، حتى أن الدماء كانت تسيل من أبواب المسجد كما يسيل الماء من وابل الغيث (٣) .

ولم يبق العسكر الشيعي في الاربس ، فعندما جاء الصباح وقد انتهى أصحاب أبي عبد الله من القتل والنهب والسلب نادى بالرحيل قافلا الى مدينة باغاية خشية أن يحاشد عليه (أي يجتمع عليه) أهل افريقية(٤) .

رحيل زيادة الله عن رقادة :

عندما وصل خبر الهزيمة الى زيادة الله ، سقط مابيده ، وعلم انها نهاية ملكه . وأخذ يستعد للرحيل ، وأعلن في اهل القيروان أن الاخبار أتته بالنصر على الشيعي ، الا ان اهل القيروان سرعان ماعلموا أن الدائرة كانت على أصحاب زيادة الله ، وماجوا فيما بينهم ، وجعلت الخاصة وأهل الخدمة يفرون من رقادة(٥) .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

(٥) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

وأخذ زيادة الله في شد الاحمال بما خف من الجوهر والمال . ولما كان وقت صلاة العتمة ، وفي ليلة الاثنين ٢٥ من جمادى الاخرة ركب فرسه وتقلد سيفه وجعل الاحمال تمر أمامه وقد حمل من يعز عليه من أمهات أولاده ومعه وجوه رجاله وفتيانه وعبيده ، وخرج عن مدينة رقادة ، في ثلث الليل الاول متجها الى مصر ، وتوقف في طرابلس حيث أقام فيها أكثر من اسبوعين (١) .

نهب رقادة :

وفي صبيحة اليوم الذى خرج فيه زيادة الله عن رقادة ، انتهبت المدينة ، وأخذ الناس من بقايا أموال بني الاغلب ومتاعهم وصنوف الانية من الذهب والفضة مالا يحيط به وصف (٢) .

محاولة ابراهيم بن أبي الاغلب تقلد الامارة في رقادة :

تنص رواية ابن عذارى ، على ان ابراهيم بن ابي الاغلب المتهزم في الاربس قدم الى القيروان فيمن بقي معه من القواد فنزل بدار الامارة ، وبعث يستقدم وجوه الناس ، وانتقد في وجودهم تصرفات زيادة الله ، الذى أسند أمر المسلمين الى "من كان يسعى في زوال ملكه" وطلب من الناس الاخلاص له وامداده بالرجال والاموال ، وأخذ لنفسه البيعة بالامارة في المسجد الجامع بعد صلاة الظهر الا أن عامة الناس الذين كانوا قد ملوا الحرب ، ثاروا به وبيّنوا له أنه قد عجز عن دفع كتامة بالعساكر والسلاح والمال ، فكيف يقوى على دفعهم بدون أموال . . . ثم صاحوا به لا طاعة لك علينا ، ولا بيعة في أعناقنا ، فاخرج عنا "واخطروه هو ومن معه الى ركوب خيلهم والنجاة بأنفسهم عن طريق الخروج من باب أبي الربيع ، ثم أنهم لحقوا بزيادة الله (٣) .

وعندما لحق ابراهيم بن ابي الاغلب بزيادة الله ، وعلم الاخير بما كان يضمره ابراهيم من أخذ البيعة لنفسه بالامارة في القيروان سخط عليه ، وهرب ابراهيم الى الاسكندرية واستجار بعاملها الذى أرسله الى والي مصر النوشرى حيث حذره من طمع زيادة الله في مصر ولهذا لم يحسن النوشرى استقبال زيادة الله ، الذى لم يقم

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٨ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٤٤ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

بمصر أكثر من ثمانية أيام ، ثم بعدها متجها الى بغداد ، وفي الرملة من أرض فلسطين ضرب كثير من أصحابه ورجال حاشيته وبعد استيطان الرقة لمدة سنة ، تشتت أمره وانتهى به الحال الى الانكباب على شرب الخمر وسماع الموسيقى والغناء ، وأخيرا وصلته الاوامر من ديوان الخلافة بالعودة الى مصر ، وكانت الاوامر قد صدرت الى عاملها بمعاونته ومساعدته في العودة الى ولايته واسترجاع دولته وهو الشيء الذي لم يتحقق . وانهى الامير أيامه الاخيرة في بيت المقدس ، وبذلك انقرضت دولة بني الاغلب بافريقية بعد أن حكمت البلاد مائة سنة واحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وعشرة أيام (١) .

---

(١) انظر ، النويري ، المخطوط ، ج ٢٢ ، ص ١٣٩ أ ـ ١٢٩ ب ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

بعض المصادر والمراجع

١ــ ابن ابي اصيبعة ، موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم الخزرجي ، توفي سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٧٠م .

ــ عيون الانباء في طبقات الاطباء ، جزءان ، نشر وتحقيق الدكتور نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٢ــ ابن الاثير ، ابو الحسن علي بن محمد الجزرى ، توفي سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م .

ــ الكامل في التاريخ ، طبعة القاهرة ، ٤ اجزاء .

ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ٥ اجزاء ، طبعة المعارف ، القاهرة ١٢٨٥ .

٣ــ ابن تغرى بردى ، جمال الدين يوسف ، توفي سنة ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م .

ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ح ١ ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة .

٤ــ ابن حزم ، ابو محمد علي بن احمد حزم الظاهرى ، توفي سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م

ــ جوامع السيرة وخمس رسائل اخرى ، تحقيق الدكتور احسان عباس والدكتور ناصر الدين الاسد ، طبع دار المعارف ، مصر (مجموعة تراث الاسلام) .

ــ جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، طبع دار المعارف ، سنة ١٩٤٨ ، (مجموعة ذخائر العرب) .

ــ الفصل في الملل والاهواء والنحل ، ٤ اجزاء ، القاهرة ، سنة ١٣١٧هـ .

٥ــ ابن حوقل ، ابو القاسم محمد ، توفي سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧م .

ــ كتاب صورة الارض ، نشر Kramers ليدن ١٩٣٨ ، في جزئين .

٦— ابن خرداذبة ، ابو القاسم عبيد الله عبد الله ، توفي في سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥ م .

— كتاب المسالك والممالك ، طبعة دجويه ، ليدن ١٨٨٩ ، ويذيله نبذة من كتاب " الخراج وصنعة الكتابة " لأبي الفرج قدامه بن جعفر الكاتب البغدادي .

٧— ابن خلدون ، ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولي الدين التونسي الحضرمي الاشبيلي المالكي ، توفي في سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م .

— العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، ٧ اجزاء ، بولاق ١٢٨٤هـ .

— مقدمة ابن خلدون ، طبعة التجارية .

— التعريف بابن خلدون رحلته شرقا وغربا ، نشر محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٣٧هـ/ ١٩٥٠م .

٨— ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد ، توفي سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢م .

— وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، نشر محمد محيي الدين عبد الحميد ، ٦ اجزاء ، طبع القاهرة ١٣٦٧— ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٨— ١٩٥٠م .

٩— ابن سعد ، ابو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري ، توفي سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م .

— كتاب الطبقات الكبير ، تحقيق ادوارد سخو ، ٨ اجزاء ، ليدن ١٩٠٤ — ١٩١٧ .

١٠— ابن سعيد ، علي بن موسى المغربي ، توفي سنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٦م .

— المغرب في حلي المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، طبع دار المعارف القاهرة (مجموعة ذخائر العرب) .

١١ــ ابن الشباط ، محمد بن علي بن محمد المصرى التوزرى ، توفي سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م .

ــ صلة السمط وسمة المرط ، نشر القسم الخاص بالاندلس ، احمد مختار العبادى ، معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ، ١٩٧١م .

١٢ــ ابن عبد البر القرطبي ، يوسف النمرى ، توفي سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م .

ــ الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، نشر على هامش الاصابة لابن حجر ، ٤ اجزاء ، النسخة المصورة بالاوفست ، المثني بغداد .

١٣ــ ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ابن اعين بن ليث ابو القاسم القرشي ، ولد حوالي سنة ١٨٧هـ ، توفي في سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧١م .

ــ فتوح مصر والمغرب والاندلس ، نشر شارل توري ، طبعة ليدن ١٩٢٠ .

ــ نشرة جزئية جديدة بمعرفة عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ .

١٤ــ ابن عبد ربه ، شهاب الدين احمد ، توفي ٣٤٩هـ/ ٩٤٠م .

ــ العقد الفريد ، ٣ اجزاء ، القاهرة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م .

١٥ــ ابن عذارى المراكشي ، ابو العباس احمد بن محمد ، كان حيا سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م .

ــ البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب (الجزء الاول) تاريخ افريقية والمغرب من الفتح الى القرن الرابع الهجرى/ ١١م ، نشر وتحقيق كولان وبروفنسال ، ليدن ١٩٤٨ .

١٦ــ ابن الفقيه ، ابو بكر احمد بن محمد ، توفي سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م .

ــ كتاب البلدان ، نشر دجويه ، ليدن ١٨٨٥م .

١٧ــ ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم ، توفي سنة ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م .

- عيون الاخبار، اربعة اجزاء ، القاهرة ١٣٤٣ـ ١٣٤٨ ٠
- الامامة والسياسة ، القاهرة ١٣٢٢هـ ٠
- كتاب المعارف ، طبع القاهرة ، ١٩٣٤م ٠

١٨ـ ابن القوطية ، محمد بن عمر ، توفي سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م ٠

- تاريخ افتتاح الاندلس، تحقيق عبد الله انيس الطباع ، طبع بيروت ١٩٥٧ ٠

١٩ـ ابن الكردبوس ، (آخر القرن السادس الهجرى / ١٢م) ٠

- تاريخ الاندلس ، تحقيق احمد مختار العبادى ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٧١ ٠

٢٠ـ ابن النديم ، محمد بن اسحاق ، توفي سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م ٠

- الفهرست ، طبعة التجارية ٠

٢١ـ ابن هشام، ابو محمد عبد الملك بن هشام بن ايوب الحميرى ، توفي سنة ٢١٨هـ ٠

- السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الابيارى ، عبد الحفيظ شلبي، ٤ اجزاء ، طبع دار احياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان ٠

٢٢ـ ابن منظور، جمال الدين ابو الفضل محمد بن مكرم الخزرجي الافريقي، توفي سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م ٠

- لسان العرب ، طبع بولاق ١٢٩٩ـ ١٣٠٨هـ ، في عشرين مجلدا ٠

٢٣ـ احمد امين ، ضحى الاسلام ، جزءان ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، طبعة ثالثة ، القاهرة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م ٠

- طبع دار الكتاب العربي ، بيروت، الطبعة العاشرة ٠

٢٤ـ الاصطخرى ، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي ، توفي سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م .

ـ كتاب المسالك والممالك ، نشر دجويه ، ليدن ١٩٢٧ .

٢٥ـ الاصفهاني (ابو الفرج) ، توفي سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م .

ـ كتاب الاغاني ، ٢١ جزءا ، طبع القاهرة ١٩٢٧ـ ١٩٣٦ .

٢٦ـ بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية ، بالفرنسية ، طبع الجمعية الفرنسية للاثار الشرقية ، القاهرة ١٩٤٨ .

٢٧ـ الخطيب البغدادى ، الحافظ ابو بكر احمد بن علي بن علي ، توفي سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠ـ ١٠٧١م .

ـ تاريخ بغداد او مدينة السلام ، ١٤ جزءا ، طبع القاهرة ١٣٤٩هـ/١٩٣١م .

٢٨ـ البغدادى ، ابو منصور عبد القاهر بن طاهر ، توفي سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م .

ـ الفرق بين الفرق ، طبع القاهرة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م .

٢٩ـ البكرى ، ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ، توفي سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م .

ـ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشر دسلان ، باريز ١٩١١ .

٣٠ـ البلاذرى ، ابو العباس احمد بن يحيى بن جابر ، توفي سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م .

ـ كتاب فتوح البلدان ، طبع ليدن ١٨٦٦م .

٣١ـ الثعالبي ، ابو منصور عبد الملك ، توفي سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م .

ـ يتيمة الدهر ، أربعة اجزاء ، طبع القاهرة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م .

٣٢ـ الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ، توفي سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م .

ـ كتاب التاج في اخلاق الملوك ، تحقيق احمد زكي باشا ، القاهرة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م .

ـ كتاب البيان والتبيين ، ٤ اجزاء ، القاهرة ١٩٢٨م .
ـ كتاب التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م .

٣٣ـ الجهشياري ، ابو عبد الله محمد بن عبدوس ، توفي سنة ٣٣١هـ/ ٤٢ـ٩٤٣م .
ـ الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، طبع القاهرة ١٩٣٨ .

٣٤ـ حاجي خليفة ، مصطفى كاتب جلبي ، توفي سنة ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م .
ـ كشف الظنون عند اسامي الكتب والفنون ، طبع ليبزج ولندن ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨ .

٣٥ـ خليفة بن خياط ، توفي سنة ٢٤٠هـ/ ٩٥١م .
ـ تاريخ خليفة بن خياط (رواية بقي بن محمد) تحقيق سهيل زكار ، في قسمين ، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٦٧ـ ١٩٦٨ .

٣٦ـ ديومبين (جود فروا) ، النظم الاسلامية ، ترجمة الدكتور فيصل السامر ، الدكتور صالح الشماع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت .

٣٧ـ الذهبي ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد ، توفي سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٤٧ـ ١٣٤٨م .
ـ تذكرة الحفاظ ، جزءان ، الطبعة الثانية ، حيدر اباد ـ الدكن الهند ، ١٣٣٣هـ .
ـ تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، ثلاثة اجزاء ، نشر مكتبة القدس ، طبع القاهرة ١٣٦٧ـ ١٣٦٨هـ .
ـ كتاب دول الاسلام ، جزءان ، طبع حيدر اباد الدكن الهند ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٦٤ـ ١٣٦٠هـ .

— ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، ٤ أقسام، تحقيق محمد البجاوى، طبع عيسى البابي الحلبي، القاهرة سنة ١٩٦٣م .

٣٨— الرقيق القيرواني، ابو القاسم ابراهيم، توفي بعد سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م .

— تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس ١٩٦٨ .

٣٩— الزبيرى، ابو عبد الله الزبير بن بكار بن احمد بن مصعب، توفي سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م .

— كتاب نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، نشر دار المعارف، مصر ١٩٥٣ (مجموعة ذخائر العرب) .

٤٠— سعد زغلول، التاريخ العباسي والاندلسي، طبع دار النهضة العربية، بيروت.

— تاريخ الدولة العربية، طبع دار النهضة العربية، بيروت .

٤١— السيوطي، عبد الرحمن بن ابي بكر جمال الدين، توفي سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٩م .

— حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، جزءان، طبع القاهرة ١٣٢٧ .

— تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة، طبع القاهرة سنة ١٣٠١هـ .

٤٢— الشهرستاني، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم، توفي سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م .

— الملل والنحل، ٥ أجزاء، القاهرة ١٣١٧هـ .

٤٣— الطبرى، ابو جعفر محمد بن جرير، توفي سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٣م .

— تاريخ الامم والملوك، طبعة دار المعارف، ١٠ أجزاء (مجموعة ذخائر العرب) .

٤٤— طيفور، ابو الفضل احمد بن ابي طاهر، توفي سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣—٨٩٤م .

— تاريخ بغداد، الجزء السادس، طبعة هـ. كلر، لايبزج ١٩٠٨ .

٤٥ـ القاضي عياض ، ابو الفضل بن موسى اليحصبي ، توفي سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م .

ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة اعلام مذهب مالك ، تحقيق احمد بكير محمود ، ٤ أجزاء ، طبع بيروت .

٤٦ـ فاروق عمر :

ـ طبيعة الدعوة العباسية (٩٨هـ/ ٧١٦م ـ ١٣٢هـ/ ٧٤٩م) ، دراسة تحليلية لواجهات الثورة العباسية وتفسيراتها ، طبع دار الارشاد ، بيروت طبعة اولى سنة ١٩٧٠م .

ـ بحوث في التاريخ العباسي ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٧م .

٤٧ـ القالي ، ابو علي اسماعيل بن القاسم البغدادى ، توفي سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦م .

ـ كتاب الامالي ، جزءان ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت .

ـ كتاب ذيل الامالي والنوادر ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت .

٤٨ـ القفطي ، جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب ، توفي سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م .

ـ اخبار العلماء واخبار الحكماء ، نسخة مصورة بالاوفست عن طبعة ليبزج ١٩٠٣م ، مكتبة المثني ، بغداد .

٤٩ـ القلقشندى ، شهاب الدين ابو العباس احمد بن علي القلقشندى المصرى ، توفي سنة ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م .

ـ صبح الاعشى في صناعة الانشا ، في ١٤ جزءا ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٩١٣ـ ١٩١٩ ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، القاهرة ١٩٦٥ .

ـ نهاية الأرب في معرفة انساب العرب ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، القاهرة ١٩٥٩ .

٥٠ـ الكندى ، ابو عمر محمد بن يوسف ، توفي سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م .

ـ كتاب الولاة والقضاة ، نشر فن جست ، طبعة بيروت ١٩٠٨ .